

فمركلة

رواية مصر الخالدة

ترجم بالفارسي في ماضي الحقب الي ثلاثة آلاف سنة وخمسة فيحس اذ يتلوها كأنه يحيى بحياة المصريين في عصر رمسيس الثاني وتصورها له تصورا محسوسا فيشمر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية في الملوك والفنون والآداب ويعجب لعظمتهم الحربية وانظمتهم الاجتماعية والسياسية والادارية ويستطلع مكنون اسرارهم الكهنوتية ويلم بالاسباب التي علت بهم فوق شعوب الارض طرا في زمينهم

ابرزها من الآثار القديمة واوراق البردى الدكتور جورج ايرس الالماني

ونقلها الي العربية بترجمة جديدة

محمد مسعود



الجزء الثاني

طبع

بالقاهرة في سنة ١٣٤٥ هجرية (١٩٢٦ - ١٩٢٧ ميلادية)

تطلب هذه الرواية من مترجمها برئاسة مجلس الوزراء تلفون رقم ٤٢٣
وبالمنزل تلفون رقم ٧٢٠٢ ومن المكتبات الشهيرة. والتين ٣٠ قرشاً صريحاً



**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

BOBST LIBRARY

3 1142 01199 6124



New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE

DUE DATE

DUE DATE

* ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL *

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE

NEW YORK UNIVERSITY
Elmer Holmes Bobst
Library



Donated by
the Massoud Family
of Egypt and the United States

in honor of

YEHLA MASSOUD

and

MUHAMMAD MASSOUD

from whose library this book comes

Evels, Georg Moritz

قمرانة

رواية مصر الخالدة

ترجم بالقارىء في ماضى الخقب الى ثلاثة آلاف سنة وخمسمائة فيحس اذ يتلوها كأنه يحيى بحياة المصريين في عصر رعمسيس الثانى وتصورها له تصويراً محسوساً فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية في العلوم والفنون والآداب ويمجى بمظنهم الحربية وانظمتهم الاجتماعية والسياسية والادارية ويستطلع مكنون اسرارهم الكهنوتية ويلم بالاسباب التى علت فوق شعوب الارض طرا في زمنهم

ابرزها من الآثار القديمة واوراق البردى الدكتور جورج ايرس الالماني

ونقلها الى العربية بترجمة جديدة

محمد مسعود



الجزء الثانى

طبع

بالقاهرة في سنة ١٣٤٥ هجرية (١٩٢٦ - ١٩٢٧ ميلاديه)

تطلب هذه الرواية من مترجمها برباسة مجلس الوزراء تلفون رقم ٤٢٣
وبالمنزل تلفون رقم ٧٢٠٢ ومن السكتبات الشهيرة. والنمن ٣٠ قرشاً صحيحاً

011996124

OCT - 8 1948

~~PT
1852
.E5
U212
1928
V.2
C. I~~

PT
1851
.E5
U212
1928
V.2



الجزء الثاني

من رواية وردة

الفصل الاول

— مكايد ومصائد —

كانت المدينة في هرج واضطراب والاهلون في ذهوب وإياب ،
بنصبون منها الى المرفأ فينزلون في الزوارق ويشقون بها سطح الماء ،
قاصدين الى الضفة الاخرى حيث المنظر أجدر بالاعتبار وأحرى .
وكان الباعة وأعيان التجار بمدينة الأموات يتنافسون في نصب
السرادقات وتزيينها من الزينات ، بما يلفت النظر ويحير الفكر . ذلك
لأنه كانت ستقام في الغد شعائر الاحتفال وتخصص الزوارق لنقل
المتفرجين من رجال ونساء وأطفال . وكان الهرج داخل بيت سبتي
مثله خارج الباب ؛ وإن تكن معجزة قلب آمون قد انصرفت نحوها
العيون ، وصرفت الهمم عن اعداد معدات الاحتفال بعيد الوادي ، إلا
أن الكهان والطلاب أتموا بالليل ما أغفلوه من هذا الباب ، فكنت
ترى فريقاً يتمرنون على إنشاد الاغانى الدينية وآخرين يمثلون فوق

البحيرة المقدسة رواية هيراطيقية^(١) وجماعة غيرهم يفرضون على تماثيل الآلهة الحلي والحلل^(٢) وطائفة يدهنون بالالوان الرموز المقدسة التي تقدم عليها الزمان ، ثم يعرضون للهواء جلود الفهود وثياب الكهان ، ويخرجون من الخزانات المجامر والمحاجن والشارات والرموز وزورق الاحتفالات المقدس والمشاعل والآلات الموسيقية وينسقون كل هذا في المواضع اللائقة به^(٣)

وكان الاطفال يصفرون الاغصان لتزيين الجدران ، ويرصعون بالزهر الاكليل لتتحلى بها التماثيل ، ويرفعون الرايات الى أعلا الادقال والساريات ، ويفرشون الارض بالبسط الفاخرة وينثرون فوقها الازهار الزاهرة . وكان مفتحس القرابين وبعض الكتاب يحصون في السجلات ما قدمه أهالى طيبة والاقاليم^(٤) لهيكل سبتى من الهدايا والهبات ، من حبوب وماشية وما اليهما مما لا حصر لعدده . أما أمبني فكان يشرف على هذه الحركة مراقباً ومرشداً ولم يهمل شيئاً ، فكان تارة

(١) كان في كل هيكل لقدماء المصريين بحيرة مقدسة . وذكر هيرودس في الجزء الثاني من تاريخه ماراة في بلدة (صا) من تمثيل الكهان للروايات لبللا بالقرب من بحيرة (بيت) المقدسة وقال انهم كانوا يسمون الروايات بالاسرار الواجب كتابتها

(٢) يدل على أن القدماء المصريين كانوا يكسون التماثيل بالحلل الفاخرة ويزينونها بالحلي النفيسة ما وجد على بعض هذه التماثيل من المسامير التي كانوا يثبتون الحلل بها عليها وكانوا يكسونها بها ثم يحدونها منها بقوس واحتفالات خاصة موضحة في قانون الاحتفالات الدينية وتحتوى نقوش هيكل آبيدوس (الرابعة المدفونة) التي نشر ماريت باشا ترجمتها معلومات كثيرة تتعلق بتلك الاحتمالات لكل منها معنى رمزي خاص به

(٣) يؤخذ من الرسوم والنقوش البارزة المحفوظة الى الآن في بيت سبتى (هيكل القرنة) ان هذا الزورق المقدس كان يسميه قدماء المصريين بسفينة سام

(٤) تدل النقوش التي بالجانب الشرقى من هيكل القرنة على أن الوفود كانوا يأتون من اقاليم الوجه البحرى الى طيبة لشهود الاحتفال بعيد الوادى

يرى بين المنشدین ورجال المعجزات الذين يبهتون الناس بغريب الاعمال
وطوراً بين المنوط بهم تدبير الأماكن جلوس والى مدينة طيبة
وانبيائها ووفود الامة المصرية الآتين من قاصى انحاءها . ولم يغفل على
الجملة شيئاً حتى مصابيح الزينة ومجامر المعطر الموضوعه فى كل مكان
لتمطير أرجاء الهيكل . واذ تأكد من حسن النظام واستقامة الامور
استدعى اليه فى الحال الشاعر بنطاؤور .

وكان هذا الشاعر اللبيب قصد غرفة نبشت الطيب بعد أن
ودع الامير راميرى على أثر طرده من الهيكل ، فألقاه بها فى قلق
وانزعاج لم يسبق له مثلها ، لانه كان لا يكف عن السير فيها مسبهلاً
من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ، يتأمل فى قنيناته تارة
وطوراً فى أقفاصه ، وينحى بقدمه آونة بمض حزمات النباتات الجافة
ويضرب المناضد أحياناً بكفيه ضرباً مسرفاً . فلما شهد بنطاؤور ذلك
أنشأ يقص عليه ما رآه فى غرفته من الفساد والاختلال إذ ألقى الطيور
المحبوسة فى الاقفاص ميتة والقرود قد التمس لنفسه مخرجاً من محبسه والافاعي
والحشرات الاخرى التى جعلها موضوع أبحاثه العالمية قد ذهبت
بددا . ثم شرح حادثة القرود فقال :

ما أخبت هذا الحيوان اقلب الآنية التى تحتوى الجملان
وصندوق الدقيق المعد لغذاء الطيور ، وألقى من النافذة ما وجدته من
المدى والمجسات والأبر والاقلام والبركارات . ولما دخلت الغرفة أتعرف
ابن رأيتة . . رأيتة بأعلى هذه الخزانة ، وقد استحال لونه الى أبيض

ناصر ، لانه تمرغ في الدقيق فصار كعبد الطاحون . وأمر من هذا وأدهى أنى وجدت في يده كراسة كنت أدون فيها مشاهدات وملاحظاتي واسعة كشافاتي في تركيب أعضاء الحيوانات ووصفها . وهى خلاصة أبحاثى في بضع سنوات . وقد حاولت أن اقبض عيه ، وكان يقلد حركاتى في تلاوته تلك الكراسة ، فما كان منه إلا أن اندفع بوثبة شديدة خارج النافذة ووقف بحافة البئر وأخذ يمزق ورق الكراسة ويلقى به فيها ، فاشتد غيظى وطار عقلى فوثبت خلفه من النافذة للقبض عليه ، فما كان منه إلا أن استقر فى احدى دلوي البئر وأخذ يهوى بها الى القاع فجذبت الحبل لأرفعه فيها الى ظاهر الارض ، ولكنه وثب منها وهوى الى القاع ، وفى يده بقية الكراسة المكتوبة بخطى . . قال بنطاور : إذن مات غرقا ذلك الحيوان المسكين ا قال نبسشت : كلا لأننى رفعت اذلو ثانياً الى وهو فيها وعرضته لأشعة الشمس ، فلما جف أكل بعض العقاقير والادوية فمات ظهر هذا النهار ، ومات معه الحقائق العلمية التى قيدت فى كراستى أو ابدتها . نعم ، ان جملة من تلك الابحاث والملاحظات ما برحت عندى ولكنى أرى أنه لاغنى لى عن تكرار التجارب والابحاث التى سبق لى القيام بها . وانك لتستخرج من هذه الحادثة أن القروود كالرجال يمارضوننى فيما أقوم به من الاعمال .

طابت نفس بنطاور الى سماع هذه النادرة اللطيفة ، الا أنه شاطر صديقه الحزن على فقدان الكراسة الفريدة فى بابها ، ثم جال بضميره

خاطر جعله يقول : إذا كانت جثة الحيوان لا تزال موجودة فلم لا
تضعها في مصلى توت بالقرب من خزانة الكتب ؟ ألا تدري أنه من
القرود المقدسة التي يشبه رأسها رأس الكلب . . ثم ان امين خزانة
الكتب ما أودعك القرد إلا لتعالج له عينيه فهل ذهب عليك أنه
سيطالبك به ؟^(١) قال نبسشت : أما العلاج فقد تم وشفي القرد . قال
بنطاؤور : وأين جثته . . ألا تدري أنه ربما طالبك بها ؟ قال نبسشت ،
وكان في كلامه كالطفل الذي يحاسب على تفاحة أكلها : أو ترى أنه
يطالبنى بها . . قاطعه بنطاؤور : يلوح لى وهو الارجح أنك شرحت
الجثة . قال نبسشت : نعم شرحتها وقطعت القلب للبحث فيه . قال
بنطاؤور : أنت في جرأتك على فحص القلوب كالمراة التي تغزو قلوب
الرجال . . أو تستطيع أن تخبرنى بما آل اليه قلب الرجل الذي أعطاكه
الشيخ بينم ؟ فروى نبسشت كل ما حصل ولم يكتم شيئاً إذ ذكر ما
كان من مجازفة الرجل بنفسه واعترافه بان البحث الدقيق فيه لم يوصله
الى حقيقة علمية جديدة ثم قال : ولعله قلب حيوان لا إنسان . على أنه
لا بد لى من درسه وفحصه من احدى نواحي العلم الاخرى ، ومقارنته
بغيره من القلوب . واعلم يا صديقي انى انتويت مفادرة هذا المكان
للدخول فى طائفة المشرحين . وليس فى قدرة مخلوق أن ير «قنى
بالمعدل عن هذه النية ، مع ما فيها من بواعث السقوط الى الدرك

(١) كانت القرود توهب للاله توت وقد وجدت فى موميات طيبة (وهو مومبوليس) صور
هزلية تمثلها وهى مشتتة بالقراءة وعلى جدار هيكل ايزيس (أسس الوجود) صورة منها

الاسفل من الاجتماع الانساني . قال بنطاؤور : لاشك عندي في أنك تهذي
ولا تقول حقاً . قال نبسشت : لك أن تعتقد ما تريد وليس في اعتقادك
ما يرجع بي عن تنفيذ ما اعترمته . قال بنطاؤور : ان في شغفك بتشريح
القلوب وشق الجثث ما تشمئز منه النفس وينبذه الذوق ولا يقره الطبع .
وحيت انك لم تستفد شيئاً جديداً من بحثك في القلب كما تقول ، فلم
تكلف نفسك عملاً لاخير فيه ؟ قال نبسشت : ليست نتيجة بحسبي ،
حسناً أو قبحاً خسارة أم ربحاً ، مما يهمني شأنه . لاأني لاأقصد بأبحاثي
وتحقيقاتي إلاالحقيقة المجردة ومايمكن أن ترمي اليه من فائدة للنوع
الانساني . قال بنطاؤور : من قولك هذا يؤخذ انه لا يعصمك من
العبث بالامن والاضرار بالناس عاصم من ضميرك مادمت معتقداً أنك
بالطموح الى استبطان خفيات الاسرار ترضى شهوات نفسك . بل بلغ
من أمرك انك مع اضرارك بالناس عامداً تلحق الضرر بذاتك فتطلق
مهنتك الشريفة لتتارس عملاً ليس من ورائه الا السفال والهوان مضحياً
في ذلك بما نسميه نحن الحقيقة والضياء والطهر . هسّ نبسشت لسماع
هذه الكلمات بينا كانت تبدو على بنطاؤور علامات الغيظ والغضب إذ
اصفر وجهه ووشجت عروق جبهته أنفة وكبراً ، وقال للطبيب بلهجة
حاددة : أيها الناقل المغرور . . أخطر بيالك أنك ترى بعينيك وتلمس
بيديك تلك الحقيقة الخفية بل السر المسكون الذي عز مرامه منذ الاجيال
على فحول الرجال . . ألا تدري أنك بأضرارك على الفحص في الثرى
كما يفعل النوكي والمعتوهون تهبط بنفسك الى درك الاغبياء والبلداء .

أما كان خليقاً بك أن توسع نطاق معلوماتك بدلاً من ان تحصرها في أضيق الدوائر . . حذاريك وأنت تجرى وراء الحقيقة الوهمية التي لاح لمينيك بريقها فترك سناؤها أن نزل قدمك في مزلق الخطأ والغرور ، فتعذر عليك الاقالة وتصير الى اسوأ حاله . .

قال نبسشت : ما الخبر يا صديقي . . أرايت لو اتى ملكك الحقيقة من ناصيتها أكنت أكلف نفسي مؤونة البحث عنها وتتبع آثارها . . انى كلما أمعت في البحث وأدمنت المراقبة أحست نفسي ضرورة التوسع في العلوم . قال بنطاؤور : لست كما تعلم من تخدعه ظواهر تواضعك وحلمك ، لأنى عالم بماهية الغرض التي ترمى اليه بوضعك من خطورة الابحاث التي تفرغت لها وتوفرت عليها . أنت لا تسلم بوجود شيء ولا تقر بحقيقته ما لم تلمسه يداك وتنظره عيناك . رسخ هذا الاعتقاد في نفسك فلم تجمل لاعتقاد غيره سييلا اليها وملك عليك ارادتك فأصبحت منه كمن يرضى البقاء ما عاش في سجن جدرانها المشاعر الخمس ، ولكأنى بك قد غفلت عن حقيقة من أمهات الحقائق وهي أن من وراء المادة الواقعة تحت هذه المدارك ما يسمونه « ما بعد الطبيعة » . قال نبسشت : ولكن هاءنذا أراك لا تحيط علماً بشيء منه . قال بنطاؤور : أو تجهلنى وتجهل نفسك ونحن من المطلعين على الاسرار الكهنوتية ؟ . . انه منذ صنع قائم الذات ومفيض الخيرات هذا الوجود بياهر حكمته ادرك الانسان طبيعة المادة التي تجحد على وعلى نفسك العلم بسر تديرها وقوتها المحدثه . ولست فيما أسوقه اليك من اسرار

ما بعد الطبيعة مبتدعا ولا مخترعا بل ناقلا ومعلمنا على الملا نتيجة بحث
الأمم الغابرة ، وهي ثمرة جهودهم التي توارثتها الاعقاب على ممر الدهور
والاحقاب . . . حقا ان علومنا ما برحت ضيقة الدائرة ولكن ألم يظهر
في الشعوب أنبياء صفت طبائعهم وسمت أحوالهم وولعت أذهانهم
فاطلعوا على صحيفة المستقبل وأحاطوا بأسرارها من غير قياس على
الحاضر المشاهد أو الماضي المعروف ؟ ألم يبرز من بين الحمل وأفناء
الناس من أتوا بمعجزات أدهشت العالم وامتدت نجوم بسببها الاعناق ؟
كل هذه المعجزات وما أشرنا اليه من الانبياء بمستقبل الحادثات مخالفة
في ذاتها للنواميس الطبيعية ، الا أن خروجها عن طور النظام المؤلف
لا يستدعي انكار وجودها . وليس أقبح في نظري ممن ينكر وجود
ما لا يقع تحت المشاعر والادراك . . . ان روح اللوهية منبثة فينا
انبثاها في الوجود فاذا اعتبر الانسان من ناحية الجثمان فقط فلا يكون
كفؤا لاجراز قصب السبق في العلوم العالية أما اذا انفك من قيود
الجثمان وحوم في مسابح المراتب الالهية وتسامى عن أوطان الحدثان
لسماع صوت الوجدانية فقد تجاوز الشأ وبلغ من المدى غايته القصوى .
واعلم ان الانبياء وأصحاب المعجزات لم يسطع عليهم سوى شعاع واحد
من ذلك الضياء الاقدس بل قطرة واحدة من مسجور بحار العلوم
اللدنية والقوة السرمديه التي لا حد لها ولا نهاية . . . قال نبشت
خلنا من هذا الكلام ودعنا من الانبياء والمعجزات . قال بنطاور :
كنت بادىء ذى بدء أعتقد أن نواميس الطبيعة التي أخذت

تفسك بالبحث الدقيق فيها تكشف لك وجوه عجائب المخلوقات
وغرائب الكائنات ، فلم إذن تجحد مظاهر الوحدة الربانية في هذا
الكون ؟ ألم تكن نفس الانسان بجرأ بعيد القرار ، ألا تتعرض جسمنا
لما لا يخطر في الوهم والخيال من شواذ الحادثات ؟ أما رأيت اليوم رأي
العين قلب الكبش المقدس .. قاطعه نبسشت وقد احتدم غيظا : اعلم
يا صديقي أن هذا القلب إنما هو قلب كبش هزيل اشتراه جندي ثمل
بل رجل دنس بثمان نجس دراهم معدودة . ثم وضعته سرأ يد مخنط حثير
في صدر نبيك المقدس روني .. أعلمت وأدركت ؟

قال هذا وعمد الى الخزانة ففتحها وأخرج منها جثة القرد وطرحها
أرضاً ، ثم تناول آنية من حجر النهاء كشف عنها الغطاء وقال : رأيت
رأي العين هذه العضلات المنموسة في الماء الملح .. هذه المادة التي لا
حرك لها كانت ناعمة بنعمة الحياة والحركة ، وكانت في صدر روني متأثرة
بمختلف المؤثرات لما كان سيال الحياة ساريا في جسمه .. وان تعجب
مع هذا فمجب أن تقوم الامة وتقعدها لقلب الكبش وأن يحمله
السذج والبسطاء في الموكب بأطراف الأناهل كما يحمل على الاكف
القائد المنصور . ولقد كان بوسعي أن ابثك هذا السر من قبل لولا ما
وعدت الشيخ بينم من الكتمان .. واسكن ما ذا عراك وبمصابه دهاك ؟
كان بنطاور في حديثه مع صديقه موليا عنه بجانبه يئن أنين الشكلي ،
فهم نبسشت أنه تأثر بما سمع من قوله فدنا منه بحركة الغلام الذي يحس
بوقوعه في هفوة ولا يجسر على طلب الصفح لنفسه ، ثم ظل واقفا خلفه

متردداً حائراً حتى نهض بنطاؤور وبسط يديه نحو السماء وقال :
« إلهي أنت الواحد المتفرد بالبقاء المتوحد بالعزة والثناء ، أنت
مسير النجوم والكواكب في مسابحها الابدية بمقتضى ما وضعت لها
في سابق علمك من النواميس الثابتة والقواعد السرمدية ، فلا تلجأ الى
الراحة والسكون أبد الآبأد . (١) أنت تلقى الشهب ، ليالى الصيف ،
من أوج الفضاء الذى لانهاية له وتعلم أسرار الكون وتضع أمامى من
الامثال ما استجلى منه الصدق والكذب ، أحدهما فى أحسن رواء
والثانى فى أقبح الاشكال ، فتجنح نفسى الى الحقائق وتميل عن المفتريات .
أفض نورك على نفسى وابعث شعاعاً منه الى فؤادى اهتدبه الى الرشده
فى عملى والحقيقة فى قولى فأكون دائماً سالكاً مسلك الحقيقة الابدية
ساعياً اليها بجميع قواي » .

قال الشاعر ذلك بعبارة شديدة التأثير فى النفس ، وكان نبسشت
يصنى اليه كما لو أنصت لصوت منبعت من مكان يجمله أو لوسواس
هاتف لا يدركه البصر ، فتجلت لنفسه المضطربة محاسن ما بعد المادة
فدنا من صديقه ومد اليه يده فضغط عليها بنطاؤور بعد إذ تناوولها
ضغظاً شديداً وقال : ما أشد لفحات الحزن الذى أحرقت ناره فؤادى !
أنت تعلم مكانة الكاهن الاعظم أمينى من نفسى . . . اما الآن فأه . . .
وقبل أن يتم كلامه سمع وقع أقدام ، فلم تمض برهة حتى طلع على الصديقين
شاب من الكهان طلب اليهما أن يجيبا الكاهن الاعظم ويتوجها الى

(١) كان يقرن ذكر الكواكب فى النصوص المقدسة بانها لا تلجأ الى الراحة والسكون

المكان الخاص بالمطلعين على الاسرار الكهنوتية فهرع الاثنان اليه ، وكان قد تكامل فيه عدد الاعضاء وأضىء بأنوار متألقة السناء . وكان أميني في هذا الاجتماع جالساً على أريكة خاصة أقيمت تجاه مائدة مستطيلة الشكل والى يمينه ويساره أساطين الهيئة الكهنوتية كل واحد منهم بحسب رتبته . وجلس تجاهه بقية الكهان الذين كانوا يرتدون ثياباً من التيل ناصعة البياض فصلت على مثال نصفى دائرتين متحدتي المركز . وقد أقيم في بهرة هذا الجمع تمثال الهة الحقيقة والعدل ونصب خلف العرش الكهنوتي تمثال الاله توت وصورة أخرى تمثل الهة طيبة وأمامهما رعمسيس الاول وسيتي يقدمان اليهما الضحايا والقرايين . أما بنطاؤور فجلس في أخريات القوم لحداثة عهد انتظامه في سلك المطلعين على الاسرار الكهنوتية .

وكان البحث بينهم دائراً على احتفال الغد فشكا الكهان قلة القرايين هذا العام ، وقالوا لعل الحرب استنزفت معين الثروة فلم تعد الامة بقادرة على أن تقوم بفروض الدين . ولاحظ غيرهم أن بهجة الاحتفال لا تكون بالغة قصارى درجات الكمال لغياب الملك وأسرته في الحرب ، فقال آخرون ساخرين : ولكن له في طيبة ولدا وابنة يكون من الخرق في السياسة طردهما من هياكلنا فأسكت أميني الجميع وقال : لا يمكن لسبب ما أن يعود راميري الى هذا المكان ، لاننا طردناه نهائياً من مدارسنا . أما بنت أنات التي رأى كاهن هيكل آمون في تكسر وذلة وكعاعة أن يطهرها من الدنس فلا بد لنا من معاملتها بشيء

من الشدة ، لانه اذا خلق ابناء الملوك ليطلبوا في ظلال القصور ورفاعة العيش الاستمتاع بملاذ الحياة ، فقد خلقنا باريء النسم لاعداد النفوس للحياة السرمدية . على أنه لا محل للخوف من أن يشوب بهجة الاعياد نقص أو فساد لان الوالى آتى من سلالة الاسرة الملكية السالفة سيرز للجمهور فى موكب فخم وزى عظيم ، بل فيما يناسب نفوذه وقوته من مظاهر العظمة ومجالى الجبروت . ولا يرعكم قولى هذا أيها الاصدقاء والاخوان فأتم الان فى ليلة حبلى من عجيب الحوادث بما المستقبل وحده كفيل باظهار مكنونه وكشف مستوره فى يوم واحد . ولست إخالكم تنقمون ، اذا بزغت على الافق فى ذلك اليوم شمس تجمع الى تألق الضياء لطف الحرارة فتطرح على أفراد أمة اضنتها أثقال الحروب أشعة ساطعة لطيفة . ولقد نمت معجزات حجة ترتبط بتلك الحوادث اذ رأيت فيما يرى النائم كأن رجلا حلوا الشمائل مكللا بالتقوى والصلاح قد جلس على عرش (رع) وأنه كان يصغى لنصائحنا ويوفينا حقوقنا ويرد الينا العبيد الذين انتزعوا من مزارعنا انتزاعا حتى أصبحت معطلة ، بل كادت تصير خرابا يابا لقلة من يفلحها من عمال الحقول ، ويهدم الهياكل التى شيدت للآلهة الاجنبية ويطرده من أرضنا المقدسة جميع الدخلاء والمدنسين . . .

قال رئيس المنجمين لملك بكلامك هذا تشير الى الوالى آنى ، فما طرق هذا القول مسامع الحاضرين حتى هاجوا وماجوا واختلط حابلهم بنا بلهم . قال أمينى بصبر وتؤدة بعد أن تابوا الى السكون والصمت .

إذا لم يكن هو فلعله يشبهه . وليس بمازب عليكم أن روني كان من
الموالين للأسرة السالفة ، ولهذا حل قلب الحمل المقدس صدره .
وما هو إلا الغد حتى تقف الأمة المصرية على سر هذا الأمر الدال
على عنايه الربوية بها ورعايتها إياها . وقد اتصل بي منذ ساعة أن
قد وجد عجل جديد في قطعان الوالى آتى بمدينة هرمونتيس ليقوم
مقام المعجل أيس .

ما أتم أمينى قوله حتى لاحت على وجوه الحاضرين علامات
الدهش ولبثوا متحيرين فى أمرهم زمنا استأنف أمينى الحديث بعده إذ
قال : لقد عهدت الى بنطاؤور مهمة الخطابة فى عيد الغد ، ولأنتم تعلمون
أن الشيطان استفزه بغروره فصرفه عن الرشد وزين له قبيح عمله فأضله
عن سواء السبيل ، ولكنى رأيت الصفح عنه لحسن ماضيه فى خدمة
الدين وتفانيه فى أعلاء كلمة اليقين . ولا يبعد علينا مع هذا أن ننظر
فى أمره متى تم الاحتفال . فإن كنتم لا تخالفون رأيى وهو ما أرجوه منكم
فقل يا ولدى ماذا فى استطاعتك أن تشنف به غدا مسامع القوم وماذا
اخترت من الموضوعات لتعالجه أمامهم بما ألفناه من فضلك ورجاحة
عقلك ومتانة حجتك وعذب الفاظك وشرف معانيك ؟

فأقبل بنطاؤور على الكاهن الاعظم وانشأ يسرد الموضوع الذى
وقع عليه اختياره . وكان الحاضرون يصفون اليه فأخذوا بسحر بلاغته
وفى طليعتهم شائوه . فانهم لم يسمعهم الا التنويه بفضائله والاطراء فى
مدحه بعبارات ساهمهم فيها الكاهن الاعظم ، الا أنه قال : ولكن

خطبتك تكون براء وغير مستوفية لشرائط الكمال كلها اذا لم تتناول
معجزة قلب الحمل بالشرح المستفاض . فلا بد لك من الاسهاب في
موضوعه بعبارات الاعجاب والحماس والاطناب . قاطعه بنطاؤور وحدث
بنظره في عينيه اللتين كثيراً ما نظم عقود الاشعار في وصف ما يتشعب
منهما من بريق الهمة ومضاء العزم وقال بجهير الصوت : ولكن أرجو
منك أن تخليني من مهمة اعلان المعجزة على ملا من الامة . فهت
الحاضرون لاستدراكهم وثاروا حتى أخذوا ينظرون بعضهم الى بعض
متسائلين بالايمان عن سبب هذا الرفض . ثم وجهوا انظارهم جميعا الى
بنطاؤور الذي كانت تبدو على وجهه علام الثبات والعزيمة ، ثم الى أميني
الذي كانت تحف به هالة من الوقار والسكينة ، فتبين السكاهن الاعظم
من لهجة الشاعر أن الشكوك خامرت عقيدته وأخذ يضرب لذلك أخماسا
لاسداس . ثم لزم السكوت زمنا رمق عقبه بنطاؤور بعيني المستثبت وقال
له : لقد أصبت باعتراضك كبد الحقيقة يا صديقي اذ الواجب التطهر من
الذنس قبل الكلام في موضوع المظاهر الربانية والتجليات الالهية ، وأنت
لكونك لم تكفر حتى الآن عن سيئاتك لا يجوز لك الكلام في هذا
الموضوع ، فاقصر اذن على البحث في الفضائل وحث الناس عليها . أما
المعجزة فقد عولت على الافاضة بنفسى في موضوعها .

تلقى الحاضرون هذا الحل بالرضاء والارتياح ، فغتم أميني الاجتماع
موصيا بكتمان سر الرؤيا التي رآها ومستقبيا عنده من الحاضرين جاجابو
وبنطاؤور . ولما خلا بهم المجلس قال أميني للشاعر : قل لي لم رفضت البحث

في المعجزة الكبرى التي ملأت أفئدة الكهان بالسرور والرضى؟ أجب
بنطاور . رفضته لانك فيما لقتني من المبادئ والتعاليم أوصيتني بالحرص
على الحقيقة فأنا لأجهر بغيرها . قال : أنا مازلت أوصيك أن تستمسك
بها ولكني أناشدك بأبنة (رع) هل تسرب الى ضميرك الشك في المعجزة
التي رأيناها رأى العين؟ أجب : نعم خامر ضميري الشك في أنها حقا
من المعجزات . قال : اشرح كيف استربت فيها وكيف تلبدت في سماء
ايمانك سحب الاوهام ، وظنى بك أنك من المخلصين في خدمة الحقيقة
فرمق بنطاور الكاهن بعين يخامرها الاسف والانكار وقال : انى على
يقين من أن القلب الذى ستحملة الاكف غدا ويحتفل به احتفال
الظافر على مرأى من جماهير الناس ومشهد منا نحن معشر المطلعين على
الاسرار الكهنونية ونؤدى اليه اتاوة التبجيل والاحترام إن هو الاقلب
حيوان دس في الآتية التي وضعت بها احشاء النبي روفى ساعة تشریح
جسته .

ما كاد أمينى يسمع هذا الاعتراض حتى تجبل في أمره وتراجع
الى الخلف منزعا كالمنزول به . أما جاجابو فقد أرعد ارتياعا وحملت
عيناه دهشا وقال أمينى بعد أن رجع اليه صوابه : من هو الزعيم بهذا
الادعاء وأين دليله على صوابه ؟ لا بد أن يكون المرء ممن قوس الهرم
ظهورهم وأكل الدهر عليهم وشرب لسكي يسمع مثل هذه القالة ويسلم
بها كامر واقع . أجب : أن ما سمعته منى هو الحقيقة التي لا ريب فيها ولن
أبوح مادمت حيا باسم من سارنى اياها . فواجب الامانة يقضى بالكتمان

قال : لعل مشعوذا محتملا استدرجك حتى أوقعك في شباك ختله وغدره ،
فان كان الامر كذلك فلسوف يظهر أمره ويلقى من الجزاء أشده . ان
الذين يضعون من مقام الالوهية ويصفون للاكاذيب يرتكبون إثما
غليظا ويكونون من الضالين المضلين كمن ضلوا وأضلوا . اعلم يا أعمى
البصيرة ويأبى ، السريرة أن القلب الذى سيمرض غدا على أنظار الشعب
قلب مثلث التقديس . أسمعت ؟ وستلزم إن اختيارا أو اضطرارا بالركوع
له . والآن أودعك وأتركك فى خلوة الى نفسك لتفكر فيما ينبغى أن
تقوله موافقا لميول سامعيك . واعلم أن الحقيقة درجات متفاوتات ومنازل
مختلفات ، وأن للالوهية أشكالا لولا تباينها لعسر على العقول ادراك
كنها . ألم تركيب تقطع الشمس والكواكب فى مسابحها خطوطا
هليلجية لامنتهى مداها مع ظهورها لعين الرائي مستقيمة لاعوج
فيها ؟ إن العلماء القائمين بارشاد العامة فى طريق الدين يذهبون
أحيانا الى الاتيان بأعمال قد لاتصل الى فهمها مدارك الجهلة مع أنها
لاتعمد حدود الاعمال المرضية للالوهية ، وهم مأذونون بعملها بل
المتعمم عليهم القيام بها . أما علمت أن الغاية تبرر الوسيلة . لعلك تعتقد
أن الوسيلة اذا حادت عن الطريق المستقيم تعوج بنا عن محجة الصواب
والحقيقة هى أنها لاتنفضى فى الواقع الا الى الحق وتنكب بالمرء عن المزال
والمغالط . ولعلك تكون الآن أدركت بون ما بيننا وبينك ، فنحن نقيس
الاشياء باشباهها ونعرضها على أصولها فتتجلى لنا أحوال المستقبل فى
ثوبها الناصع الذى لاشية فيه . اما أنت فتقتصر فهمك على درك الحاضر

دون سواه فيضيق على العقل مجال التصرف ، ولا ينفسح للادراك
مدى القياس الصحيح . فواجب عليك الآن أن تسلم بصدق ما تعتقده
صدقا وتجهز بأنه صدق لا ريب فيه . واعلم يا بني أن الكذب يدنس
الروح وأن الشك يسطو عليها ويأكلها كما يأكل المبرد الحديد .

فاه أمني بهذه العبارات وقد أخذ التأثير منه كل مأخذ ، فلما
انصرف بنطاؤور من حضرته سأل جاجابو : ما معنى هذا . . من أفسد
علينا هذا الشاب بعد أن كان كريم الخلق مهذب النفس ؟ أجاب : هو
الذي أفسد نفسه بانحرافه عن طريق التقاليد القديمة وشدوده عن
الاصول المرعية رضوخا لشهوات النفس ومضيا مع تيار الباطل . قال
أمني : ان يكن هذا اعتقاده الذي يتمسك باهدابه فقد اخطأ ، لأن
القوانين لم يستأثر بوضعها مقنن واحد بل اشترك فيها الجم الفقير من
الاساتذة الفطاحل والثقات في العلوم الشرعية بعد صبر وأناة في التروى
والملاحظة والمقارنة والتجربة . فالقوانين في اتساع نطاقها وانفساح مجال
حقيقتها أشبه ما يكون بأشجار الآجام تبدأ صغيرة ثم تكبر حتى تصير
بتوالى الاعوام أشجاراً باسقة ذات أغصان ممتدة وظلال وارفة . . اننى
أحب الشاعر بنطاؤور وأميل اليه ، ولكن حبي وميلى يدعوانى الى كسر
شكيمته وكبح جماحه ، وإلا فلا نلبث أن نراه كالنيل يعلو ماؤه شيئا
فشيئا فيطنى على الجسور ويفيض على الارضين ، ثم ان ما قاله الآن
فى معجزة ..

قاطعه جاجابو : لعلك أنت الذى أثار غبار الشكوك فى نفسه . قال

أميني : كلا . قال جاجابو مفكراً : ومع هذا فاني أعهد في بنطاؤور علو
الهمة والصدق . قال أميني : وأنا مثلك أعرف فيه هاتين الفضيلتين .
ولذا سلمت من غير مناقشة بصحة ما نقله الي من الاخبار ولكن لأدري
من الذي ارتكب الفعلة النكراء وهي الافضاء اليه بسر ذلك الحادث .
سكت الاثنان هنيهة بعد ذلك فقال الكاهن الاعظم : رأيت
بنطاؤور ونبسشت داخلين في هذا المكان ، وليست بالسر الكمين
صلات المودة بينهما فأين كان هذا الطيب أثناء وجودي بطيبة ؟ اجاب
جاجابو : كان يعالج فتاة المحنط بينم وهي التي دهمتها مركبة بنت أنات
فأصابتها بجرح أليم وقضى في العناية بأمرها ثلاثة أيام . قال أميني : بما
أن هذا الشيخ هو الذي حنط جثة النبي روني فقد فهمت الآن كيف
عشيت الشكوك عقيدة بنطاؤور . . لا بد أن يكون الشاب الطيب هو
الذي أفسد عقيدة صاحبه ولسوف يقر بهذه الحقيقة . والآن لاتصرفن
خواطرنا الى غير الاحتفال بالعيد ، فاذا كان يومان أو ثلاثة أيام بدأنا
بسؤال المجرمين وأوقعنا بهم العقاب المهيمن . قال جاجابو : الرأي عندي
أن تسأل الطيب فيما تعزوه اليه من التهم . ولا تنس أنه ممن رفعوا
المهيكل الى ذرى المجد والشرف بسعة العلم والحذق والكياسة في العمل .
قال أميني : خلنا من هذا الآن فأن لدينا من الامور الخطيرة ما هو أولى
بالبحث والاستقصاء . قال جاجابو : أرى في تأجيل البحث في المسائل
المهمة ضرراً بالغاً بل مصاباً فادحاً ، إذ لا يغيب عنك اننا بقنا على قيد
أنملة من الهلاك . حقا اني شيخ قد تضعضع بالهرم ركنه ورق بالضعف

جانبه ولكن الخطر لا يروعي وان جل ، وكفى أن اذكرك بسُلطان
رعمسيس وجبروته وأحذرك التطوح في تيار الانتقام ، فأنتك لن
تجني منه غير الغمط من حنك والنيل من حميد سيرتك والصاق تهمة
القسوة والصرامة بما سرى مسرى الامثال من رفك وسلاستك .

قال أميني : لم أبغض رعمسيس قط ولن أبغضه أبداً أبداً . ولولا
أنه القابض على صولجان الملك اليوم لكنت أقرب الناس اليه والحظي
من دونهم برعايته . . لقد تبينت أطواره واستقصيت أحواله وأسراره
فما وسعني الا احترامه لشرف صفاته ونادر فضائله وواسع ادراكه .
غير أنه قد كاشفنا بالعداء والبغض لا كراهية في ذاتي أو حقداً على
شخصك بل كراهية في مبادئنا وغيظنا مما تطمح اليه نفوسنا . ولو كان
أقل شوكة ونفوذاً مما هو في الحقيقة لما تعذر علينا الخلاص منه بوسيلة
ما . أما الآن وقد علمت ما له من قوة ونفوذ فلا بد من اتخاذ التدابير
للفتك به . . ولا يفزعك ذلك لأنه انصرف عنا فاستغنى عن مشورتنا
وأنكر علينا حقوقنا واتهك حرمة امتيازاتنا وغض من كرامتنا بما
يستفزنا للدفاع عن حقوق طائفتنا . أما الوسائل التي سننذر بها لنيل
هذه الامنية فبجائزة لا يجرمها شرع ، لأنه لما كانت حقوقنا مستمدة
من حقوق الآلهة فالكذب في سبيل الدفاع عنها يجب اعتباره صدقاً .
واعلم انه إذا أفلتت ازمة الحكومة من ايدينا ولم تكن لنا سيطرة فيها
ولا نفوذ فقد سقطت مكانتنا الى حيث تتساوى مع العبيد والارقاء .
وافق جاجابو على هذا القول بأيماءة منه واستأنف أميني حديثه

حادسا أنه يخاطب الشعب فقال : لقد كنت مولاي وسيدى فاحترمتك وأحبتك فقف اذن على الاسباب التي دفعتني الى هذه الحرب . . لقد ربيت مع رعمسيس في هذا الهيكل الذي قضت حكمة أبيه الملك سبتي أن يختلط فيه بسائر ابناء طبقات الامة . وكنا في الآن الواحد صديقين وخصمين ، فقي الدرس واللعب كنا كفرنسي الرهان في احراز المكافآت المقدره للفائزين بالسبق . وكان من أخص فضائله قوة الادراك وسرعة الخاطر ، ولكني كنت أمتاز عليه بالمثابرة على الاصغاء . وكان محبا الحركة نزقا بينما كنت ميالا الى السكون والرصانة ، وظل كل منا في مدة التلمذ متصفا بهذه الصفات التي امتاز بها على نده . فلما القيت أزمة الاحكام اليه دفع بالبلاد الى حرب الفتوح والتوسع في الملك ، فاظفرها الاله باعدائها إذ فازت فوزاً ميبناً في وقائع كثيرة كان هو بطلها المشار اليه بالبنان . فتفرغت للدرس والبحث في التقاليد القديمة وأحوال الامم الغابرة في أخلاقهم وسيرهم ، فثبت لي أنه لولانا معشر الكهان لاصبحت مصر خرابا يبابا إذ من هم الكهان ؟ هم كل شيء في العالم . وما هي المهمة التي وكل اليهم أداؤها ؟ تسكين كل نائر وأرشاد كل ضال . فالملك ذاته ليس هو في الحقيقة الا فرعا من روحنا وقبسا من نارنا وشعاعا من ضيائنا ، وان يكن شيئاً فبكونه الواسطة بيننا والامة التي يحكمها بسطان القهر والارهاب . وهو إذا قاومنا في أمر أو اعترض علينا أو عدل عن التماس مشورتنا في سياسته فليسقط من علينا عرشه . هذا ما كان يجب أن تكون عليه الروابط بيننا والملك ، وهو من الاصول التي حافظ عليها

سلفنا الصالح من الكهان . أما الآن فقد تبدلت الحال غير الحال إذ
أصبحنا بأيدي الملوك آلة يتقون بها شر الامة ، ولا سبيل الى أن نحترم
الامة أميرها القابض على زمام الامور مالم نحترم الآلهة قبله . فاذن
يكون الكهان قوام الملوك وعمادهم فيما يجرونه من الاحكام على
رعايام . ولقد كان سبتي ملكا جريئا عزيز الجانب مرهوبا ومحترما ،
لانه كان موفقا للنجاح في أعماله ولأن محاسن القرص جاءت اليه
منقادة فهم بانهازها ، وجرى رعمسيس على منهاجه فتراه شديد
المحافظة على الصلوات وتقديم القرابين ، حريصا على صيانة الطقوس
والتقاليد فلا يكف عن التنبيه على اشعال المصابيح واحراق البخور في
المجامر والترنم بالاناشيد الدينية وتفسير الاحلام ، الى غير ذلك مما لا
يسع سرده المقام . واكن مع هذا كله رأيتنا ولا شيء عند الناس طرا
أكبر مناقد صغر ناعنده حتى صرنا كلاً شيء ؟ . رأيت كيف تهاون بنا
وأصبح لا يمدنا شيئا ونحن نحن ؟ أما ينبغي أن نكون منه بمنزلة المشير
والناصح بل أن نملي عليه أوامره وأحكامه ! ولقد حاول الكاهن المحترم
الذي حللت محله أن يفرض على سبتي الاول الاخذ برأيه من العدول
عن ايصال بحر الشمال بالبحر الاحمر المندس الماء^(١) وجاهد عنده في

(١) كان التينيقيون قابضين على أزمة الملاحة في البحر الاحمر الذي كان معروفاً في ذلك العهد باسم «البحر المغطي بنبات الدبس» وكانوا يتجرون فيه بالمواد العطرية المستوردة من بلاد العرب والذهب الذي كانوا يستوردونه من بلدة زفر (كان يقال أنها بلدة في اليمن) وقد خطر ببال الملك نيخوس ان يجمع بين البحرين بترعة توصل احدهما بالآخر واسكنه عدل عن هذا المشروع لان الكهان قالوا ان الهواتف أخبرتهم بان قائدهم ستكون مقتصرة على الاجانب دون المصريين اذ يمكنهم من الايقال في مصر والاستيلاء عليها «أقصر الجزء الثاني من تاريخ هيرودتس»

ذلك جهادا لم يقتنع معه بان ذلك المشروع لا يعود بالفائدة على غير
الاسيويين . وأنا . . هل تمكنت من حمل خلفه رعمسيس على ابقاء تقسيم
مصر القديم الى اقاليم كما هو والمدول عن تعديله ، مع ما بذلت من شتى
الوسائل لاقتناعه بضرر التقسيم الجديد ؟ وهل ازدجر بنصائحنا المتعاقبة
حينما أثبتنا له ضرر تجهيز المعدات للقتال وتسيير الحملات لمحاربة كبار
الامراء والاقبال ؟ . . ألم يذهب به تجاوز الحد في المدوان الى حشد
عبيدنا وعمال اراضينا مخالفاً بذلك التقاليد القديمة والقوانين النافذة ؟ ألم
يخرج به الشطط في الاعتقاد الديني الى تشييد الهياكل لآلهة الشرق
الكاذبة السفاكة للدماء ، بعضها على سواحل البحر والبعض الآخر في
منفيس وطيبة ! قال جاجابو : أصبت فإنحن الآن الا كهانا بالاسم ،
يدل على ذلك ماقله رعمسيس من أن مهمتنا دينية محضة يجب أن تقتصر
على إعداد الناس للحياة الاخرى وأن عليه هو ارشادهم في الحياة الدنيا .
قال أميني : اعلم أنه قال ذلك وهو بهذا القول قد أتهم واعتدى . وهل نسيت
أنه وأركان أسرته قد اعتدوا على حقوقنا وامتيازاتنا التي يتوقف على
صيانتها مستقبل هذه البلاد ، وهل أنا بحاجة الى تذكيرك ان رعمسيس
مدنس الاصل قدر الجرثومة ؟ ألم يك من سلالة أولئك اللصوص الذين
انقضوا على بلادنا انقضاض النسورة الكاسرة وانتشروا فيها انتشار
الجراد الفاتك ؟ ولقد صد أجداد آنى غارتهم الشعواء ، ولكن جد
الاسرة القابضة الآن على زمام الاحكام من أولئك العرب العمالقة
استأذهم في المقام مع ابنائه بوادي النيل فأذنوا له ، فما هي الا فترة قصيرة

من الزمن حتى فاز هؤلاء الاجانب المروفون بالبسالة ولين الجانب ،
بازلفى من الامير الحاكم فتوجه الايثار منه اليهم وانبسط له الجاه عندهم .
وما زالوا به حتى استقر نفوذهم على اساس متينة واستمالوا رجال الجند
اليهم بافاضة الاموال فيهم وسن الجوائز والصلوات لهم فتمكنوا بواسطتهم
في النهاية من ثل عرش الاسرة الملكية السالفة والقاء سماها عليها . .
ولست بمنكر عليك أن جماعة الكهان الصادقين كجدك وجدى
أخذوا بناصرهم وحوموا عليهم لما جال في ظنونهم من أن الاسرة
الجديدة التي خلقت بهم ستعيد ما انطمس في عهد سالفتها من معالم
التقاليد القديمة . وليس ذا بالامر المستغرب فإن لنا في غضون الاجيال
المتصرمة اجداداً يفوقون المائة عدداً احرزوا جانباً كبيراً من النفوذ
والسلطان فسارت بذكرهم الركبان ، وأشير اليهم في وادى النيل
بالبنان . . وأن كهانا كثيرين غيرنا قد كرمت أحسابهم ورمخت
انسابهم . . ولكن كم لرعمسيس من الجدود يسمو بهم الى ذروة
الشرف ؟ . هب أن له عشرة جدود ، ولكن بأى أصل يتصل أولهم
وأية دوحة هو غصنها ؟ . ألا ينتسب الى جرثومة (الأمو) تلك القبيلة
المعروفة عندنا بنجث الطبع ودنس الاصل ؟ . ألا يكون الامير القبايض
على زمام الحكم الآن وهو ذلك المهاتر الجزوع سليل الساميين . . انه
يسمينا بالفلاحين استخفافاً واحتقاراً ونحن لا ذنب لنا ولا عيب علينا
إلا أننا نقوم بأشرف الاعمال التي قام بها آباؤنا من قبل في سكون
ورضاء وصبر . . أما هو فليتماد فيما هو فيه من الحركة والانتقال ومتابعة

الهوى باضرام نار الحرب والقتال ومد الأيدي للنهب والاعتقال . .
ومن غريب شأنه أنه كلما أشرفت خصوبة الارض على النفاذ لا مناص
له من مغادرة البلاد واتجاع الوهاد والنجداد، مقتدياً في ذلك بأبيه سبتي
الأول . . يقيم في طيبة يوماً او اياماً او شهراً او عاماً ثم يفاجئك
بشد الرحال قاصداً الى قارة آسيا محط الآمال . . حقا قد كان الاجني
وما زال سبب ما تعانیه مصر من صنوف البلاء، يعبد الاصنام
والاوهام . . فليسقط ذلك الغاصب وليذهب هباء !

بادر جاجابو بمصافحة أميني وصوتت : ليسقط الغاصب وليذهب
هباء ! قال أميني : لا يذهب عليك أن آتني ركب من طينة مصر، فهو
بيضة بلده وفتى قومه بل سلالة ملوكها الاولين . ولقد شهر بالدهاء
والحيلة ، ولكنه يحبنا ويحترمنا ، وإذ كنت أدري الناس بما يجمله من
القيود وثيق الارتباط بنا ، فقد عولت على تنفيذ ما عقدت النية عليه
لتأييده . فهل لك في مشاركتي لتحقيق أمينتي ؟ قال جاجابو : اني
مشارك لك قلباً وقالباً وسراً وجهراً . قال أميني : هذا ما كنت أتوقعه
من ودك القديم فعليك إذن باضرام نار الحمية والحماس في أفئدة أصحابنا
وتفهم الطلبة والمطلعين على الاسرار الكهنوتية انه اذا أجزى لهم فهم ما
يتيها الآن من الحوادث فليس لهم أن يفشوا سرها والانزلت بنا وبهم
الكوارث .



الفصل الثانى

— كيف كان الاله يعبر النيل فى عهد رعمسيس الجليل —

بزفت شمس اليوم التاسع والعشرين من الشهر الثانى التالى لفيضان النيل (١) فشوهدت عند ابواب احياء مدينة طيبة وربوعها جموع من النساء بحلاهن وتعليقات ، وأفواج من الرجال والاطفال والجند والعبيد ينتظرون بذهاب الصبر ساعة بزوغ الشمس . وكان الكهان يتأهبون للتغنى بالاناشيد المقدسة وعامة الاهلين يستعدون للسير فى الموكب الدينى والطواف حول أسوار الهيكل المقدس وعبور النهر فى الزوارق والسير بعد ذلك صفوفًا منتظمة فى الطريق الذى أقيمت على عطفيه تماثيل أبى الهول، مفضياً بسالكه الى هياكل المقبرة . وكان من العادات المرعية فى هذا الاحتفال أن يحمل آمون اله طيبة الى مدينة الاموات ليقدم القرابين الى آبائه الآلهة ويجعل نفسه قدوة لعابديه فى احترام الحياة الاخرى ومحبة الآباء . ولا عجب اذا رتب الاحتفال على هذا المثال ، فإن هذا الترتيب يشير الى معنى جليل لا يعزب عن الافهام . فقد جعلوا الضفة الغربية من النيل مستقرًا للموتى يلتمسون فيه الراحة

(١) هو يوم ٢٩ من شهر باؤنى وكان المصريون يقسمون السنة الى ثلاثة فصول كل فصل منها اربعة اشهر وهى : فصل الفيضان وفصل البذور وفصل الحصاد ، وتسمى باللغة المصرية القديمة (شا) و(بر) و(شيو) وكان الشهر الثانى من اشهر الفيضان يدعى باؤنى . وكان فى التاسع والعشرين منه يوم الاحتفال ببعد الوادى وهو يوافق ٨ نوفمبر من السنة الشمسية الميلادية

الابدية ، لان الغرب تستتر وراه الشمس الآفة ، تسبقها اليه فيه شمس وتتلوها شمس ، كلها بنات الليل ومستحدثات الظلام . فالضوء الجديد يلبث منعموراً بما انعكس من أشعة الضياء المستتر الذي استمد منه سناء المتألق ، وإنما يؤدي آمون فروض التمجيد والتكريم للشمس الآفة كي يتعظ الاحياء به ويقتدوا بفعله فلا يحوا من صحيفة قلوبهم ذكرى الموتى الذين استمدوا منهم الحياة وقازوا بنعمة الوجود في هذا الوجود .

على أن النصوص المقدسة صريحة العبارات واضحة المعاني في هذا الباب ، فقد جاء فيها أن الواجب تقديم القرابين لروحي الاب والام اللذين غيبا في القبر ، لان تمجيد الآلهة يقترن بتمجيدها . وجاء في تلك النصوص أيضاً أن الواجب على المرء أن يزور موتاه إذا أراد أن يحفظ ابناؤه ذكراه . (١)

هذا العيد السنوي للموتى لم يكن فيه شيء من شارات الحداد كما يوهمه مدلول اسمه ، إذ كان المحتفلون لا يبثون صيغيات الحزن ولا يبكون . بل كانت وجوههم ناضرة ومخايل السرور على شمالكهم ظاهرة ، لا تلهج ألسنتهم الا بترداد آيات الحمد واحياء ذكرى من طوتهم الارض ، بالمطارحة في محاسن سيرتهم . وكانت الأسر تمد الموائد أمام المدافن والطرقات غاصة بالجموع ، حتى كنت ترى الآباء

(١) انظر ملحوظات المسيو ماسيرو على أوراق البردي الموجودة بمتحف باريس وانظر ايضاً ورقة البردي نمرة ٣ المحفوظة بمتحف مصر

والامهات والاطفال من الاسرة الواحدة متماسكين بعضهم ببعض ،
خيفة أن يضل أحدهم فلا يعلم له مستقر في هذه السيول المتدفقة من
الخلق . وكان العميد يتبعون مواليهم حاملين على رؤوسهم ما يعوزهم من
الغذاء وأدوات الاستصباح يسرون على ضوئها في كهوف المقابر
ويهتدون في الطريق لدي العودة . وكان لسراة المدينة وأغنيائها زوارق
خاصة بهم تمحوها بما يعجز القلم عن وصفه من الزخرف البديع والتنسيق
الانيق . أما الفقراء فكانوا ينزلون جماعات كثيرة في القوارب
متطامنين متراكبين بعضهم على بعض حتى يبلغوا الى الضفة الاخرى
فينسابوا منها انسياب الماء من الجدول على بساط الارض .

وكان المحتفلون على تفاوتهم في المراتب وتباينهم في الدرجات
ينتظرون بذهاب الصلحبر مرور الزورق المقل للاله آمون . ونذكر
هنا انه كان لا يوجد في أطفال طيبة طفل لا يقضى ليله مفكراً في
جلال هذا الزورق وجماله ممللا النفس بأمنية مشاهدته في القند . ما ذلك
إلا لأن العناية بزخرفته كانت تتجاوز حد الاتقان ، حتى كان يماثل
الزورق الذهبي الذي يمر عليه اله الشمس ورفاقه في كل نهار أقيانوس
السماء ذي اللون اللازوردي .

وكان على مدرج هيكل آمون المفضية درجاته الى نهر النيل
وترطم بالاخيرة منها مياهه المشبعة بانطمي جم غفير من الكهان ، وفي
المسالك المؤدية الى الهيكل وعلى ضفة النهر أقوام لا يحصى عددهم ،
شاخصة أبصارهم صوب جهة واحدة ، كما كان غيرهم ينسلون الى

الساحل مقبلين من كل فج وحذب ، لشهود الموكب خارجاً من الهيكل في جلال أبته وعزة فخامته فلا يفوتهم هذا المنظر البديع المنقطع النظير ، فخلت المدينة من سكانها وكادت الطرق تصبح قفاراً والديار معطلة من الانيس . فلما أزف الموعد الموعود والاجل المحدود لتحرك الموكب ولم يتحرك بعد ، أخذ الناس يتساءلون عن السبب لا سيما وقد كانوا يرون في الكهان قوماً موفين بالمهد محافظين على الوعد وأخذ الضجري شملهم شيئاً فشيئاً حتى إذا لم تعد لهم طاقة بالصبر استفاض بينهم الخبر بأن سبب تخلف الموكب عن المسير غياب أعضاء الاسرة المالكة وكان من عادتهم فيه الحضور للانبثات بين الجماهير والاختلاط بأفناء الناس والسير على الاقدام من القصر الملكي الى الهيكل الرباني . وانضاف الى ضجرهم وملهم الانتظار التخبط في تأويل غياب بنت أنات عن الاحتفال وقد كانوا يرون حضورها من بواعث السكالم له والجمال .

وبينا القوم في حيرة التساؤل إذا بأصوات الكهان يرن صداها في الآذان ، منبعثة من فناء الهيكل المقدس خلف الاسوار العالية . ولم تمض برهة على ختام هذا النشيد حتى اجتاز آنى بابه في موكب تحف به الهيبة ويعملوه الوقار ، لأنه ما كاد يبلغ الى هذا الباب حتى انشق سريعاً عن مئات من الاطفال على صدورهم الميادع^(١) وبأيديهم الازهار ينثرونها في كل اتجاه وصبوب أي نثار ، ليطأها السائرون في

(١) الميادع جمع مبدع الثوب يلبس ليكون وقاية لغيره

موكب الاله آمون . أما الروائح العطرية فكان يوضع شذاها في جميع
الانحاء يحملها اليها النسيم فيكون لها في المعاطس أحسن شميم . وكانت
الآلات الموسيقية تصدح بتلاحين تهز النفوس هزاً . وان القوم لفي
مراح وحسن تطريب وإذا بدوي شديد تردد الآفاق صدهاء من بعيد،
اعلانا بتحرك موكب آمون فهاج الناس وماجوا وأخذوا للقاءه
يستعدون ولم يظهر لبنت أنات أثر ولم يقع على موكبها نظر .

وتداولت الالسنة في خلال ذلك عدة اشاعات ذهبوا في تأويلها
مذاهب مختلفات، وأيد خدمة الهيكل صيحة احداها إذا كدوا للسائلين
أن الكهان قرروا منع بنت أنات من التطلع الى تلك الاحتفالات .
وما قرع دوي هذا الخبر آذان المزدحمين حتى تبرموا وعبسوا الوجوه .
وما هي الا خلجة الخاطر حتى شهدوا الاميرة بطنف قصرها والى
جانبا الامير راميرى ونيفرت ينتظرون ساعة خروج الآلهة للتفرج
على جماعات الناس وأفواجهم وهم بين غاد ورائح في الطرقات المجاورة
لمساكنهم .

أما حرمان الاميرة شهود الاحتفال فسببه أن (بك ان شونسو)
كاهن هيكل آمون تمهد بتطهيرها من الدنس ، غير أنه في مساء
اليوم الذي جاء اليها فيه بهذه البشرى أخبرها ان الكاهن الاعظم
أمينى لا يسلم بدخول المقابر قبل الحصول على العفو والغفران من آلهة
الغرب . ثم اعتذر بأنه في مركزه لا مفر له من إطاعة أمر هذا الرئيس ،
لأنها بدخولها هيكل هاتور في حالة دنس قد أثقلت أوزارها وضاعفت

خطاياها . فلما سمعت بنت أنات هذا الكلام استنجدت بالوالى آنى
وسألته أن يلبي نداءها فوعدها بذلك . غير أنه تلكأ فى انجاز وعده
وظلت تنتظر حتى إذا كان آخر الوقت أخبرها بأن أمينى ما برح وطيد
العزم على حرمانها الحضور فى الاحتفال ، ثم نصحها أن تدعن لأمره
ولا تثير ساكن غضبه . ودنا القزم نيمو من ينفرت فى الوقت نفسه
ليبلغها رجاء والدتها راتوى أن تحضر لزيارتها ، فأجابته بأنها لا تستطيع
بل لا تريد مفارقة صديقتها الاميره فى مثل هذه الظروف الخطيره .
وكانت بنت أنات أذنت لكبار حاشيتها بزيارة المقابر وشهود
الاحتفال وسألهم أن يخصوها فى هذه الزيارة بصالح اداء وطيب
الذكر ، وبمد أن قضت حصه من الوقت فى استشراف الجماهير فى
حركاتهم واختلاطهم ، عادت من الشرفه الى حجرتها وأتحت على
شقيقتها راميرى باللوم والتأنيب لأنه بسوء تصرفه وطيش عمله جعل
الكاهن الاعظم يضطهدها ويتابعها بمدائه الفادح ، ثم أحالت على هذا
الكاهن بالتعنيف واستطالت فى سيرته وأساءت غيبته ، غير أنها مع
هذا قبضت على يدى أخيها وقالت له وهي تحنو عليه بقوامها اللدن :
أى أخيه ! حيث إننا ركبنا معاً متن الشطط وسقطنا فى مهواة الغلط
فلنكفر عما فرط منا بقبول ما حكم أمينى به علينا . والرأى عندى الآن
أن تمسك عما لا يجدى نفعا من الكلام وأن تنتهج من الخطط
والمسالك ما لا يجيد عما كنت تنتهجه منها لو كان والدنا حاضراً . فأجش
بالبكاء واندفع يشق ثم صاح عالياً : لو كان أبى هنا لما اجترأ أمينى على

هذا المهديان وأفاعيل الصبيان، بل نلح عن كتفيه فروة الفهد وأخلى منصبه لمن يصون كرامة الملوك ويحفظ العهد . . . سوأة له كيف يعاملك بهذه الاهانة؟ قالت هدىء روعك يا أخى وقل لى أتذكر أنك كنت لا تزال طفلاً لما شهد والدنا هذا الاحتفال لآخر مرة؟ أجب : نعم : أذكر ، وما كان أجملها من صبيحة قضيناها في سرور وابتهاج . قالت بنت أنات : وأنا كذلك ما زلت أذكرها بما جمعت من أسباب السرور والاعتباط . لقد كنا آنذاك أطفالاً وكانت الزينة التي أقمناها مما يهر الابصار ويأخذ بالالباب ، وكنا جميعاً جلوساً في البهو الملكي الكبير فدعانا والدنا ثم أخذ بيدنا الى حجرة والدتنا المنعمورة برحمة الآلهة ، وكان لم يمض على وفاتها زمن طويل ، فقال لنا بصوت الحنان والرفق أنه قد عفا عن تجاوز عن سيئاتنا لقاء ما أظهرناه من الندم على ارتكابها والحذر من السقوط فيها مرة أخرى . ثم قبلنا بين عينينا وجذبنا اليه بيديه الكريمتين قائلاً بصوت الشفقة : لا أكون ذلك الملك الجبار العظيم وعميس إذا ألحقت بكما ذرة من أذى ولم أسلك معكما مسلك العدل .

وما سمعنا منه هذا القول حتى ألقينا بنفسنا عليه وأخذنا نقبله قبلات الاعتراف بالجميل ، فدفعنا عنه بلطف وهو باسم الشكر وقال لنا : لقد كنت ولا زلت أحبكما حباً جماً وأسوى بينكما في هذا الحب ، وانى لموقن أنكما تقابلانه بمثله لى . ثم جاذبنا الحديث فى والدتنا ونوه بذكرها وأطرى فضائلها وحثنا على الاقتداء بها وانتهاج طريقها

ووعدنا باصطحابنا لزيارة قبرها وتقديم الهدايا والقرابين اليها . وتكلم
بعد ذلك على ندرة الفرص المتاحة للمرء يقيم بها الدليل على براعته
وشجاعته وعلل ذلك بقلة الحوادث الجلييلة والاطار الجديرة بالاعتحام ،
وبأن الحياة سلسلة حلقاتها الحوادث المألوفة ، تتألف منها كما تتألف
السنوات من انضمام الشهور والساعات ، والساعة بالساعة والشهر
بالشهر أشبه من الماء بالماء ، فأن اتخذتم لتأفها الحوادث من ثبات
وجلد تلقيم كبارها من غير خوف ولا اكرات . ولما جاء والدنا على
ختم اقواله الحكيمة تصاخنا وتماقنا متعاهدين على اتخاذه إماماً لنا في
أعمالنا . واذكر اني ما كنت في وقت أرحب صدرأولا أهدأ بالامني
حينما شنف والدنا اذانا بهذا الوعظ المبلغ على مقربة من قبر والدتنا .
فشخصت نيفرت في بنت أنات بعينين مغرورقتين بالدموع
وقالت : انه لهين على المرء كسب المحامد والفضائل اذا بلغ والدك مثل
هذا المبلغ من الرفق والالطف في النصح . سألت بنت أنات : ألا
تذكرين يا نيفرت أن والدتك اطربت سمعك بمثل هذا القول في
صبيحة تلك الاعياد ؟ أجابت وقد علت وجهها حمرة الخجل : كلا لانها
كثيراً ما كانت تخطيء موعدا الاحتفال لقضائها الوقت في تسوية
شعورها وزينة نفسها فلا يكون لها هم ولا وكدا الا سرعة الوصول
الى الهيكل . سألت بنت أنات : أتأذنين في أن احل اليوم منك محل
والدتك . . وأنت يا راميري هل تعلم أن والدنا كان يعفو عن ضباط
جيشه ويصفح عن حاشيته وخدمه وعبيده ويحضهم كما كان يحضنا على

الاستمساك بعروة التقوى والصلاح واستلال الضغائن والاحقاد من القلوب . . ألم يكن من كلمه المأثورة قوله « لا يكفى المرء لبس الثياب الناصمة البياض بل يجب أن يكون قلبه أرق من النسيم وأصنى من الدمع » ؟ .. فواجب عليك يا شقيقتى أن تكف عن لوم أمينى والاقذاع فيه ، فأنا هي القوانين والانظمة تطالبه بالشدة فى تطبيقها . ولا يغيب عنك أن والدنا سيقف على ما دار بيننا وبينه من الحادثات وله وحده حق الفصل بأرائه السامية وحكمته البالغة فيما شجر من الخلاف . . آه . . انى يا عزيزى راميرى ويا عزيزتى نيفرت أشعر بقلبي يفيض حنانا ورأفة فليات كلا كما ليقبلنى ولنذهب بعد ذلك الى المصلى حيث نتمتع النظر باستجلاء تماثيل موتانا الاعزاء الذين لم أحظ بتقديم القرابين اليهم فى هذا اليوم النير المقدس .

قال راميرى : سأصحبك اليه يا شقيقتى . قالت بنت أنات : أما أنت يا نيفرت فالزى مكانك لتجنى من هذه الازهار الزاهية النضرة طاقة جميلة نعهد الى بعض الاتباع وضعها على قبر والدة قرينك مينا . قالت همذا وانطلقت نحو المصلى مع أخيها ثم عاد الاثنان بعد ساعة فوجدنا نيفرت قد ضفرت أكليلين من الزهور انتوت اهداء احدهما لوالدة مينا عملا بأشارة بنت أنات والثانى لوالدة الاميرة . فلما علم راميرى بقصدها قال : سأتولى أنا وضع الاكليلين على القبرين . فسألت بنت أنات : وكيف تكون الحال لو شهدك أمينى وهو الأمر بمنعنا من دخول الهيكل ؟ أجاب راميرى : لن أذهب الى ذلك المكان

بزبي وشارقي الحاليين بل متشكراً بزبي صبي بستاني . أتسمعين صوت
البوق المؤذن بخروج الاله من الهيكل ؟ قال هذا وهوول نحو الشرفة
فاقتفت نيفرت وبنيت أنات أثره ، وتمكن الثلاثة من شهود الاحتفال
كما لو كانوا فيه حاضرين .

قال رامبرى : ان هذا الموكب لطالع شووم ونحس ما دمنانحن
ووالدنا غير موجودين به (١) ولا ريب أن تجرده من مظاهر الابهة
والجلال عزاء لنا عن عدم مثولنا فيه بازبائنا الجميلة يحيط بنا الاحراس
والفاشية ، ولكن عزف هذه الموسيقى جميل جداً . . . وهاءنذا أرى
هناك حملة الافلام والمنشدين والنبى الاول للهيكل الاعظم وهو الكاهن
(بك ان شونسو) الذى تحف به المهابة ويحمده الوقار ، غير أن علامات
التدمر بادية على وجهه ، وها قد أوشك الاله ان يظهر لان رائحة البخور
قد بلغت الينا محمولة على أجنحة النسيم .

قال الامير هذا وجئنا على ركبتيه فاقتدت به الاميرة ونيفرت ،
وكان نظرها قد وقع على ثور تنعكس أشعة الشمس على جلده الأملس
البراق ، وبين قرنيه إطار ذهب خالص يملو حافته ريش النعام الابيض
وتلاه حملة المراوح فالاله آمون ، لا يكاد النظر ينفذ اليه لكثرة ما كان
يحول بينهما من المراوح المتخذة من ريش النعام الابيض والاسود
مثبتة بأطراف قضبان من الذهب . وكان مستويا على عرش منصوب

(١) استدل الدكتور ابرس في وصف هذا الموكب بالنقوش المثلثة للاحتفال بعيد الالجات
في مدينة آبو

على مصطبة مفروشة بقماش مسدول وموشى بأسلاك الذهب ومزين
بأكاليل الازهار الفضة ، يحمل ذلك كله على أعناقهم جماعة من الكهان
يسرون الهويثا بخطوات مقدره ، ينبعث من المجامر حولهم دخان
البخور فينعمد فوق رؤوسهم . وما وضع الاله في وسط الزورق الذي
بلغ الغاية من الزخرف حتى وقفت جموع الجماهير على الاقدام بعد اذ
جثوا طويلا . ثم توارد بقية الكهان يحمل بعضهم في صندوق مبرفش
بالالوان شجرة آمون المقدسة التي لا تنوى . وجاءت بمقهم فرقة
موسيقية ثم جماعة من الكهان يحرقون البخور في المجامر فتنتشر ريحه
في أرجاء الفضاء .

تنفست بنت أنات الصعداء عندئذ وقالت : لو كان والدي حاضراً
لبرز للنظارة بعد الاله في موكب حفييل جليل . قال راميرى مكملًا : ثم
لتلاه موكبك يا شقيقتى العزيزة فوكب ميناء ورجال الحرس . ولكن
هنا نذا ارى الآن بدلا من ذلك كله الم آتى سائراً على القدمين اوما
أغرب الزي الذي برز فيه يريد أن يحاكي به أبا الهول . فسألته
نيفرت : وما تعنى بهذا القول ؟ أجاب باسمًا : ان أبا الهول حيوان
بجسم ليث ورأس انسان ، ولكن عمنا آنى قد تدثر بامساح الكهان
التي هي رمز السكون والسلام ، ثم غطى رأسه بخوذة الجند . قالت
نيفرت : ليت الملك حاضر ، إذن ما اجترأ أحد ان يجرمك المشاركة
في هذا الاحتفال . قال راميرى : الحق أولى بان يتبع ، لو كان والدى
حاضراً لتغيرت معالم هذا الاحتفال ، إذ كان لا بد له من الجلوس على

عرشه الذهبي وخلفه تمثال الحقيقة والعدل حفيظين عليه ، وفوق رأسه
الظلة المزخرفة . انظري يا شقيقتي هذا الجم الغفير من المنجمين والكهان
الذين يحملون الاعلام وتمثيل الآلهة ، انظري قطمان الماشية التي تتبعهم
لتقدم قرباناً . أفلو كان الملك والدنا حاضراً أما كان يتجاوز عدد هذه
القطمان أضعاف ما هو عليه الان ؟ وأما كانت الوفود مترادف من
أقصى الاقاليم لأداء ما يجب لمقامه السامي من التبجيل والتعظيم؟ .. انى
لم ينب عنى شيء من دقائق الاحتفال حتى الشعار المرسوم على الاعلام (١)
وهل تعرفين من هم حدود الملك والدنا الذين تمثلهم تلك الصور والاشكال؟
أظنك لا تستطيعين التمييز بينها لبعدها عنك .. أما أنا فأعرف من
تمثلهم .. أرى أن الصورة الاولى تمثل (أحمس) الاول الذى طرد من
أرض مصر قوم العالقة الذين يمت اليهم والدنا بصلة ، ولا تمثل جدى
سيتى الاول تمثيلاً تاماً . أرايت الجنود ؟ .. لعلهم ممن عادوا من الحبشة
ظافرين ودخلوا بالامس مدينة طيبة فرحين مستبشرين .. ما أجمل
هذا الاحتفال ! ما أحسن هذا الاستقبال ! ما أشد هذا التصفيق ! ان
الجيش لجدير به وحقيق ! لأنه سلك مسلك الشجعان وثبت في مواطن
الجلاد والطمان . وإذا كان استقبال الاهلين له على هذا المثال من

(١) كان لكل مركز من مراكز مصر شعار خاص به يرسم أو يطرز على الاعلام التي كانت
ترفع في الاحتفالات والمواكب العمومية وكانت ترمى في عهد -سيتى الاول ببلدة آيدوس
«العرابة المدفونة» خافقة تتضمن اسماء المراكز والاقاليم . ويحتوى النصوص التي كانت تستعمل
في هياكل دندره وانس الوجود لتفسير قوائم الاقاليم بيانات مفيدة تتعلق بالانظمة السياسية
والدينية لكل اقليم . وقد وصف هارس وبروكش ودوميشن ودى روجيه وادى النيل وصفا
جغرافياً دقيقاً

الفخامة والجلال فكيف يكون استقبالهم إذا عاد والدى الهمام وحوله من أسرى الملوك مائة بالتمام؟ وكان يدبر سير موكبه المنيف قرين نيفرت مينا ذو الاصل المريق الشريف؟ انى أرى من هذا المكان جميع أصدقائى وخلانى، وأكابر رجال الدولة تبدو على وجوههم أمارات العز والصولة .

ما سمعت نيفرت ذكرى قرينها حتى تهتت وقالت : وأسفاه ! واحر قلباه ! ما برح ميعاد عودتهم الينا بعيداً . وكان الموكب لا يزال يمر فى مجال أنظار الناظرين كأن لا نهاية له ولا ختام ، إذ كانت الجنود تتلو الجنود بأشكالها المتباينة تتخللها الفرق الموسيقية وتبعها الحيوانات النادرة (١) ، يمسك بأرسانها وأزمتهما العدد العديد من العبيد . أما زورق الاله آمون فكان فى هذه الاثناء بلغ الى منتصف النهر ، فبدأ لانظار الجموع المتراخمة على الضفتين كالعروس تهادى فى أبهى حلة وتختال فى أجمل زينة ، لانه كان مصنوعاً من الخشب الصقيل المكفت بالذهب ومرصع الحافة بكرات بلور (٢) لونها كلون الزمرد والياقوت . وكانت سارياته مموهة بالذهب وشراعه من الحرير القانى ومقاعده

(١) وصف يونانى يدعى راليكسونوس شاهد هذه الاحتفالات الحيوانية الاجنبية التى كان يجلبها المصريون من الخارج ليتزين بها احتفال امر باقامته (بطليموس فيلادلف) أو (فياو ذوقوس بن سوطر) وهو بذلك قد احى هادة سابقة تشهد بوجودها ككتابات ونقوش الاسرة الثامنة عشرة فى قبر (رشى مارا) — انظر صحيفتى ٤٦ و ٤٧ من كتاب المنحة الدهرية فى تخطيط مدينة الاسكندرية تأليف ممرّب هذه الرواية

(٢) وجد فى المتحف المصرى ضمن مجموعة (مينوتولى) وبجاميع اخرى غيرها انواع كثيرة من الاحجار التى صنعت تقليداً للاحجار الكريمة ويقول المارفون ان امهر الصناع فى العصر الحاضر يمجزون عن صناعة مثلها فى اتقان التقليد

من العاج الصقيل بلونه الجليل وأكاليل الورد والزنبق متعاقبة متزاوجة
 في جبال الساريات بشكل جميل ومثال أنيق . أما سفينة الوالى فكانت
 تتلألأ بانعكاس أشعة الشمس على رسومها ونقوشها الذهبية . وكانت
 مفروشة بالطنافس البابلية الثمينة النادرة ، وفي مقدمها رأس أسد من
 الذهب ، في موضع العينين منه حجران كبيران من الياقوت كسفائن
 الملكة حاتاسو . وما كادت السفينة المقدسة المقلدة للاله آمون والكهان
 الذين أخذوا بحالهم فيها تصل الى الضفة الاخرى حتى تهافت اخلاط
 الزمر على النزول في القوارب والزوارق الاخرى التي غصت بهم ، الى
 حد كان يخشى معه عليها الفرق . وقد بلغت هذه الزوارق عدداً لا
 يحصى وانتشرت فوق سطح النهر حتى لم يعد الراؤون يرون مائه من
 خلالها ولا أشعة الشمس تنعكس عليه لاتصالها بعضها ببعض واختفاء
 سطح الماء تحتها .

فلما شهد راميرى هذه الجلبة قال : اقد تهيأت لى الفرصة فلا بد
 من اغتنامها . لقد اعتزمت التنكر بزي بستاني لاجتياز النهر ولترصيع
 قبور الاجداد بأكاليل الزهر . قالت بنت أنات : أو يرضيك أن ابقى
 وحيدة مع نيفرت ؟ أجاب بصوت المبتهل : لا تملئي فؤادى حزناً
 وشجواً يا شقيقتى فقد كفانى ما لقيته . قالت الاميرة : اذهب انى
 شئت ولو كان والدى هنا لاستطعت مرافقتك . قال راميرى : وما
 الذى يمنك منها ما دام لا يعوقك انت ونيفرت عن التنكر مثل عائق
 قاطع ؟ فنظرت بنت أنات لنيفرت بعين المستفهم وقالت : ان هذا

الضرب من الجنون . فهزت نيفرت رأسها بما يفيد اقتداءها بها في كل عمل ، فأدرك راميرى مغزى هذه الإشارة وقال وقد تهلل وجهه فرحاً واستبشاراً : هيا بنا ، فانه لم يبق أحد ولو كان ابن شحاذ الا وقد برح داره اليوم ليلقى أكاليل الازهار في المهواة التي غيبت فيها جثة والده ، فكيف يليق بأولاد رعمسيس وقرينة مينا الطاهرة الذيل التقصير في أداء هذا الفرض المقدس وكيف لا يحق لهم وضع الازهار على قبور موتاهم الاعزاء ؟ فما سمعت بنت أنات هذه الكلمات حتى احمرت وجهها خجلاً وقالت : ان في وجودى بجوار القبور ما يدعو الى تدنيسها . فمدت الامير راميرى ذراعيه لعناق شقيقته وقبلها بين عينيها قائلاً . أمثلك من يدنس القبور ! . . . أنت التي خلقها الله لتخفيف ويلات المنكوبين وتخفيف دموع الباكين بحسن الغزاء ومقبول الدعاء ! . . . أنت التي بصورتها الفاتنة ومخايلها الطاهرة تذكرنا بصورة والدنا الكريم . . . أممكن أن يكون مثلك ، أنت ايها الملاك ، مدنساً يقذر بلوته ويلطخ برجسه الموتى ؟ .. اذا سلمت بالمستحيل فقلت أن البجعة الناصعة البياض التي أراها هناك حالكة السواد كالليل البهيم أو الغراب الفاحم اللون ، وان هذه الورود الزاهية الالوان التي نمت بها شرفة القصر وامتلاً بمبيقتها كل مكان ليست وروداً بل هي نبات الشكران فأهون على نفسى التسليم بهذا الزعم من أن تخيل لحوق الدنس بك . وبعد فهل أنت مدنسة ؟ .. ألم يطهرك الكاهن (بك ان شونسو) ، واذا كان أمينى . قاطعته بنت أنات : لقد أصاب أمينى الحق في فعله . وأولى بك أن

تفكر فيما نحن فيه لا أن تذممه . قال راميرى ساخرآ : نعم أصاب أميني
وأجاد وآ ، بما فوق المراد واني لمائه على القول بدنسك وبانه لا يجوز
لك فشيان المقابر ولا الهياكل ، ولكن هناك ما يحول دون امتزاجنا
باخلاط الزمر أم هل للطرفات في تلك الجهات حاسة ثم تبيين بها
ظهر الانسان ودنسه ؟ أما هي نفس الطرفات والمسالك التي تطأ تراها
صباح مساء اقدام المخططين وغيرهم ممن ضربت عليهم الذلة والمسكنة
لدنس حرقهم . . زنى كلامي يا اختاه بميزان العقل واعرضيه على محك
التقد الصحيح واعدلى عن عزم البقاء في هذا المكان وتعالى معى الى
حيث ترمي بنا ظروف الحدثان . . تعالى تنكر ، فاذا انطلت الحيلة
ولم يتعرف علينا أحد جعلت نفسى مرشداً لك وهديتك السبيل . عندئذ
نضع أكاليل الزهور على القبور ونصلى للموتى ، ثم نتبع الموكب فنسمع
الخطب ونتمتع الطرف بعجائب اصحاب المعجزات ، ولا بد لينطاوور
بالرغم مما دهى به أن ينبرى للخطابة . ولا يذهبن عليك اعتقاد أميني أنه
متى تكلم خلب المسامع بسحر بيانه وأطرب الافئدة بالاناشيد المقدسة .
فميسا بناهيا يا اختاه لشهود الاحتفال . قالت بنت أنات فجأة : هلم بنا
الى الامام ؟

ما سمع راميرى هذه الكلمة حتى اعترته دهشة السرور لاجابة
اخته طلبه وتحقيقها متمناه . أما فيفرت فنظرت للاميرة بعين المستفهم
المستنبت ثم حولت وجهها الى جهة أخرى ، بعد إذ أيقنت توله فؤاد
بنت أنات وأنها دخلت في زمرة المشاق المستعرة قلوبهم بنار الاشواق .

الفصل الثالث

— وقائع أميرتين وشاب اقتحم الاهوال فصار من الابطال —

لم تمض ساعة من الزمان حتى كان ثلاثة أشخاص متكرين بثياب خالية من الزخرف يجتازون نهر النيل ، امرأة معتدلة القوام تبدو على حياها سمات الهرم الا أن في رشاقة قدما ولين اعطافها ما يدل على فتاه السن . وشاب اسمر وغلام يناهز الخامسة عشرة من العمر . وكان يتعذر على المتوسم فيهم التسليم بأنهم بنت أنات وراميري ونيفرت الذين أتقنوا التنكر بتغيير ازيائهم وألوانهم حتى لا يرتاب أحد في أمرهم . فلما بلغوا الى الضفة اليسرى من النيل أشارت بنت أنات الى اثنين من اتباعها أن يدنوا منها . فلما فعلا سارتهما بكلام ثم صرفتهما فذهبا بعيداً عنها وأخذتا يقتفیان أثرها بحيث لا يتوهم أحد أن لهما علاقة بها . ولم يكن الثلاثة قد تمكنوا من عبور النهر الا بعد ما ذاقوا من المشاق ما لا يدنوه عادة غير العامه والافناء ، ذلك لانهم لم يكونوا التمسوا دليلا ليفسح لهم الطريق كالمعتاد أو يمنع الزوارق الاخرى من مسابقة زوارقهم ومزاحمتها في الوصول قبلهم الى الضفة الغربية من النيل . ولم يكن على أحد في ذلك حرج لان الظروف قضت بان مجهل الطرفان أحدهما الآخر بهذا المثال . وما نزل الثلاثة هذه الضفة حتى كان الموكب بلغ الى هيكل سبتي ودخل فيه .

وكان السكاهن الاعظم واقفاً على ضفة النيل لاستقباله، يحف به
الكهان والمنشدون وأنبياء مدينة الاموات الذين سارعوا الى وضع
الاله آمون في سفينة سام المصفحة بالفضة والذهب والمرصعة بالاحجار
الكريمة. ثم تقدم ثلاثون خادماً فحملوا السفينة على الاعناق لينقلوها
الى صدر الهيكل حيث تقام الصلوات الدينية. وكان المشرحون
يركعون أمامهم وينثرون يمنة ويسرة في الطريق شذور الذهب (١).
وكان نواب الاقاليم ووفود المراكز أفواجا وشتوتاً في فناء الهيكل
يستعدون للقاء الاله وتقديم ما جاءوا به من الهدايا والترايين اليه.
وبعد أن قاموا بهذا الفرض المقدس تحرك الموكب من الهيكل سائراً
في الطريق التي اعتاد السير فيها كل عام وهي الآخذة من الشمال الى
الجنوب. فلما دنا من مدخل هيكل أمينوفيس الثالث الذي نصب أمامه
تمثالان هما أكبر تماثيل وادي النيل حجماً وأعظمها روعة قصد الى
هيكل تحوتس الأكبر (٢) ثم قفل راجعاً، مقتفياً في سيره السفوح
الشرقية من جبال ليدية، وهي السفوح الصخرية الصلدة التي نقتبت فيها
القبور على شكل يجعلها شبيهة بخلايا بيت النحل (٣) ثم صعد الى سطوح
هيكل حاتاسو وانحدر منها الى السهل المجاور لقبور الملوك السابقين (٤)

ولما آذنت الشمس بالمغيب كان الموكب قد بلغ مقر الاحتفال

(١) هي المعروفة اليوم باسم قرية موراي
(٢) هي المعروفة اليوم باسم الاسيف ودار أبو النجا
(٣) انظر صحيفات ٤١ و ٤٣ و ٨٥ و ٨٨ من الجزء الاول من كتاب بارونى المسمى
« ايبى جركس رجبى تورنن سيس »
(٤) هي اقدم جزء من هيكل مدينة أبو ولا تزال مخروطة لم تمتد عليها عوادى الدهر

بالقرب من مدخل الوادي المؤدى الى مقابر سيبتي ، وفي نهاية قبور
الاميرة الملكية التي اغتصب زمام الحكم من يدها . وكانت العادة في
زيارة هذه القبور الاستضاءة بالمصاييح والمشاعل قبل رجوع الاله الى
المهيكل وأن يبدأ بالتمثيل قبيل نصف الليل فوق البحيرة المقدسة جنوبي
مدينة الاموات . وكان قلب الحمل المقدس ، اثناء سير الموكب ، في إناء من
البلور مثبت بطرف قضيب طويل بحمله رجل يتبع زورق الاله ، وقد
روعي هذا الترتيب لتقع عليه أنظار الجموع الحشيدة لشهود الاحتفال .
أما بنت أنات وراميري ونيغرت ، فقد تهيأت لهم بتدايرهم
الاسباب لوضع الزهور على قبور الاجداد دون أن يتنبه لهم أحد ،
ثم اندمجوا في الجماعات التي كانت تقتفي أثر الموكب ، وظلوا سائرين
حتى بلغوا الى كهف جدود مينا الذي شاده والد جدده (نقر حوتب)
وقتما كان نبياً لهيكل آمون . وكانت رحبة ذلك الكهف غاصة بالناس
يتسمعون في سكينه وخشوع صوتاً منبعثاً من الداخل ، هو صوت
شاعر ينشد نشيداً نظم لآلء الفاظه ودرر معانيه شاعر ممن عاصروا
ذلك النبي ، تعظيماً لمقامه وترفيماً لقدره ، لانه أوقف قطعة ارض لينفق
من ريعها على من يقوم بترتيل ذلك النشيد في كل عام لمناسبة الاحتفال
بعيد الموتى ، وحتى لا يمتور معانيه تحريف نقشت عبارته على الصخر
لتدوم بدوامه ما كرر الجديدان وتعاقب النيران .
وكان مينا يترنم فيما مضى بأبيات هذا النشيد الحسنة الانسجام ،
وكانت نيغرت تتابع نغماته بالايقاع على المود . وليس في هذا ما يستدعي

العجب لان المصريين كانت تدفع بهم الفطرة الى مزج الافراح بذكرى
الموتى ، وهذا الدافع الغريزي نفسه هو الذى حمل بنت أنات ونيفرت
وراميرى على الوقوف لسماع النشيد الذى نوره هنا بمعناه .
« أيها الميت الشريف ذو المقام المنيف ! لقد لجأت الى الراحة
الابدية والسعادة السرمدية ، وتمجنت لك حقيقة الاشياء بأسبابها بعد
ان عزت على طلابها ، وتأكد ان أحداً من البشر لا مفر له من يد
القدر ، بل لا مناص له من محتوم القضاء لان الارض طريق السماء .
لقد آذنت الشمس بالافول وأمست فى دنو أجلاها كالشيخ الكهول ،
فيا أيها السكوكب البهي الساطع والجرم العلوي اللامع ؟ لقد أقننا لك
شعائر الاحتفال على أحسن مثال ، فلا غرو اذا تعاقبت الاعياد على
توالى الاعصار تعاقب الليل والنهار ، وأطرقنا الرؤوس برهاتاً على
الخسوع والوجل لتودع قلوبنا الامل ، وسكبنا ما عندنا من الزيت
وزيادة تفاؤلاً بالحسنى والسعادة ، وطرحنا أكاليل الزهور على هذه
القبور ، التى غيب فيها خير الاهل والاقرباء وأعز الاصدقاء الاوفياء ،
فتقبل إلهنا هذه الروائح العطرية التى تسطع إجلالا لقدرتك الربانية ،
واطرح على وجوهنا شعاعاً من ضيائك المتألق ليظهر ما عليها من
الدمع المتدفق ، واجعلنا فى موئل من صواعق غضبك والانتقام فأنها
تمحق القلوب الضالة فى حالك الظلام . أيها الآلهة الساكنون فى
منازل السلام والسكون ! تقبلوا دعاءنا حققوا رجاءنا ، كونوا لنا أدلاء
وأصدقاء أوفياء ، يوم السفر الى المحشر ، يوم الرحيل الى الحظيرة

الربانية بالضفة القدسية .

فلما أمسك المنشدون عن النشيد أخذ جمهور السامعين يلقون على المصلى نثار الازهار ، اشارة الى ما يداخلهم من الفرح والاستبشار . أما راميرى ونيفرت فنزلا الى كهف الموتى ، فأخذت نيفرت تصلى وتلمس من ارواحهم أن تصون حياة مينا من غدر الزمان وطوارىء الحدثان . ثم وضعت برفق ولطف اكليلاً من الورد على التابوت الذى يحتوى جثة والذته . وحدث فى غضون ذلك أن فريقاً من رجال البطانة الملكية مروا بالامير راميرى والاميرة بنت أنات دون أن يعرفوا منهما احداً وازدحم الناس ازدحاماً اضطر الاميرة ونيفرت مراراً الى اللياذ بالكهوف الموجودة بالطريق . وكان أغلبها ساطعاً بالانوار يتهافت الناس على غشيانها أفواجاً حاملين معهم الشواء والفواكه والنبيد والجمعة . وليس فى تقديمهم هذه الهدايا ما يستدعي العجب فليس الموتى بحسن العقيدة المستكنة فى نفوسهم الا قوما رحلوا الى بلد مجهول هم فيه أحوج من سواهم الى الزاد اللازم لصيانة حياتهم وحفظ ذماتهم فى هذه الرحلة الطويلة .

كانت الشمس تهوى الى الغروب حينما مدت على حفاف الساحة التى أقيمت بها الحفلات الموائد ورصت عليها ألوان الطعام وما تشبیه النفوس من الحلويات اللذيذة على اختلاف أشكالها والفواكه الطريئة من تين وأعناب وتمر ورمان ، وصفت على موائد غيرها ألوف الصنوف من الاحذية والانسجة والاعطار والمراوح ومواد الزينة والزخرف

وأدوات القرايين ووسائل التجميل والتزين ، فهاهي إلا ساعة حتى
خلت الأوعية الشاملة لتلك المعروضات مما فيها لاقبال الناس على اشتراكها
وتنافسهم في اقتنائها ، وتهافت الناس حول موائد اللعب وبيع السوائل
المخمرة والمشروبات المخدرة . وكانوا يتلاقون في الطرقات فيسوق أحدهم
للآخر مثلا من أمثال الحض على التقوى أو حديثا من الاحاديث
الموضوعة للحث على الاحسان والخير . أما الاطفال فكانوا يتبمون
والديهم ويشيرون الى ما يروق لهم من الحلوى المعروضة والاحذية التي
كسبت في اللعب ، ويتكاثرون بما معهم من الحلقات النحاسية التي
وزعت عليهم للبذرة والتنعم . وكان أرباب المعجزات في بيت سيدي
يستهوون الجموع ويستدرجونهم الى الالتفاف بهم بما كانوا يعرضونه
عليهم من غرائب الحيل . وكانت حلقة الجمع إذا صفت استحسانا لمعجزة
توارد المارة حولها لاستطلاع الخبر . فلما مرت بنت أنات بهذا المكان
كانت الحفلات الدينية قد انتهت وبدت لانظار الناظرين الظلة التي
اعتاد الملك وأعضاء أسرته الجلوس في ظلها أثناء الاحتفال . ولكن لم
يكن أحدهم جالسا تحتها ، وإنما الذي اغتصب حق الجلوس فيها هو
الوالي آنى تحف به هيبة الملوك ، غير أن الكراسي التي صفت الى جانبي
عرشه كانت خالية من الجلساء فضع منها الرواق والرواء .

في هذا المكان المعظم وتحت تلك الظلة الملكية الجليلة نهض أميني
الكاهن الاعظم واقفا وأعلن للشعب معجزة قلب الحمل والاهتداء الى
محل أيبس جديد في قطمان ماشية الوالى آنى . وقد تداولت اللسانة

الخبرين وأخذ ألوف الناقلين على الاسرة المالكة يفسرون خطبته كلمة
كلمة ويحملونها على معاني كثيرة ويذهبون في توضيح غوامضها
مذاهب شتى ، ولكنهم أدركوا بالرغم من هذا التباين مغزى قوله « إن
معجزة قلب الحمل وسهولة الاهتداء الى عجل أليس في قطمان الوالى
آنى فالآن مبشران بدخول مصر فى دور جديد من السعادة والطمانينة
اللتين حرمتها منذ عهد بعيد » ، اذ حولوا أنظارهم جميعاً نحو الوالى وقد
أدركوا أنه المقصود بهذه الاشارة المهمة . أما بنطاؤور فكان انتهى
من لقاء خطبته لما بلغت بنت أنات ورفيقاها ساحة الاحتفال، وقد
صدمت فى سيرها شيخا قوس الهرم ظهره كان يحدث ولده الواقف
الى جانبه بقوله : ما أمر علم هذه الحياة . . . كثيراً ما خطر لى أن
أطرح هذا العبء الثقيل الذى أبهظ الآلهة به عاتقى ، وها هي المرة
الاولى التى سمعت فيها هذا الكاهن الشاب يقول ما فهمت منه أن
الآلهة ياملوننا برفق يوجب علينا لهم جزيل الحمد ووافر الشناء .
ثم سمعت زوجة كاهن تقول لابنها : أرأيت يا (هور أونزا)
بنطاؤور الكاتب الحصيف والشاعر الجيد الشعر الحسن الاتزاع له، وهل
سمعت وهو يقرع الاسماع بجواهر لفظه؟ . . . إذا نظرتة وعرفته فأنتى
مخبرتك عنه بأنه مع ضمة أصله قد سبق فحول الرجال برجاحة عقله
وسعة علمه وصدق فراسته وحسن تصرفه فى الترسل ووفور حظه من
صوغ المعانى الشريفة فى الألفاظ العذبة اللطيفة ، وإنى لآتمنى له مستقبلا
حسنا ومكانة عليا بين رجال هذا العصر . وكانت غادتان واقفتين

بالقرب من منبر الخطابة . فلما شهدنا بنطاؤرها أعجبنا بحسن مرآه وجمال
محياء فقالت احدهما للآخرى : ان خطيب اليوم قد برع في الجمال كما
برع في البلاغة وحميد الخصال ، وما أرق صوته الذي يدخل الآذان
بلا استئذان ! فقالت الآخرى : لقد رأيت علامات الهمة والنبيل بادية
على وجهه حينما طرق باب البحث في الحقيقة والفضيلة ، لهذا لا استبعد
أن يكون قلبه ممتلئاً بالمنح الربانية والهبات الالهية ، وما الوجه إلا مرآة
القلب .

ما طرقت هذه المدائح سمع بنت أنات حتى احمر وجهها خجلاً
وتمنت لو أرخى الليل سدوله لتمود الى قصرها مع رفقتها ، غير أن
أخاها راميرى أبى الا ان تقتفى معه أثر الموكب والاسترشاد في طريقه
بنور المشاعل ليوغل في الوادى الغربى ويزور قبر جده سبتى ، فوافقته
الاميرة بالرغم منها لانه كان يتعذر عليها الرجوع بلا رفيق في الطريق
المؤدى الى ضفة النيل لتدفق الناس فيه وتدافعهم بالمناكب ابتغاء السبق
الى هذه الضفة . وكان لا مفر لها إذا هي خالفت أخاها ، من أحد
أمرين : إما الانحدار مع تيار الجموع أو الرضاء بمصادمتهم في معارضتها
هذا التيار الجارف ومقاومة حركته .

ما بلغت الاميرة ونيفرت وراميرى الى الوادى حتى أرخى الليل
سدوله ولم يبق للضباع وبنات آوى من أثر لما أجفلها من ضوضاء الناس
وتألق الانوار وهو ما لم تألفه في بطن الصحراء ، بل ومن تحول غمغمة
أصوات هؤلاء القوم وهم في طريقهم الى الوادى الى ضجة عالية وصياح

مرتفع ، وذلك بعد إذ انسابوا فيه وانتشروا في نواحيه يحملون المصابيح التي يحيط بلهبها ورق البردي ملونا بالالوان الزاهية ويتصاعد من بينهم العثير والدخان فيصير فوق رؤوسهم كالسحب المتكاثفة .

وكانت بنت أنات قد بلغت من سيرها مع رفاقها الى نقطة تجاه الكوخ الحقير الذي يسكنه الشيخ بينم ، فوقفت مع من وقف من الناس ، لان الحراس المنوط بهم صون النظام كانوا يدفعون الجموع المزدحمة بمصيهم الطويلة الى عطفى الطريق ، ليتمكنوا الموكب من المرور . فأومأت الاميرة عندئذ الى بيت بينم وقالت لأخيها : أرى هذا المنزل الحقير ؟ إن فيه الأيكة البيضاء التي دهمتها جياد مركبتي واصابتها في صدرها بجرح بالغ . ثم نظرت من خلال الحاجز الى الضوء الضعيف الذي يلقى أشعته على محياها السني ، وقالت : ها هي تلك الجالسة الى جانب جدها . . . أقترأها ؟ . . .

فوقف الامير على أطراف أصابع قدميه حتى استمكن من رؤيتها وما كادت تقع عيناه عليها حتى بهت وصاح : إن جمالها ليأخذ بالالباب ولكن ما ذا تراها تعمل لهذا الشيخ الهرم . . . يبدو لي أنه يؤدي فریضة الصلاة وأنها تضع مقديلا على مكان والقلق يشاور فؤادها . قالت الاميرة : لعل جدها الشيخ أصيب يعارض مرض . قال الامير ضاحكا : المرجح عندي أنه أفرط من شرب النبيذ فتوهم أن نفسه تسيل معه ، وإلا فإذا أرى ؟ انه يحرك شفقيه وعينيه على وجه ترتاع منه النفس ؛ ولعل بالرجل مسأ أو طائفا من الجنون . قالت نيفرت : كل ما في

الامر أنه من المدنسين . قالت الاميرة : ولكن دنسه لا يحول دون
انصافه بالتقى والاستقامة . ولقد قصيت أحواله واستبطنت
أسراره فعلمت أنه رجل فنوع محب للصلاح والخير متفرغ للعبادة .
ومن ثم تراني أرجح أنه مريض لا سكران . وما كادت الاميرة تم
هذا الكلام حتى ألقى راميرى المصباح من يده وصاح قائلاً : انى
أراها تقف على قدميها . . هلمى انظريها يا بنت أنات . . أفلا تكون فى
حاجة الى معاونة أحد . . ما رأيت قط فى حياتى فتاة فاقتها فى بياض
البشرة ورشاقة القوام وحلاوة المنظر ، غير أنى أتبين اضطراباً وتخلخلا
فى مشيتها لعل منشاهما ضمف قوتها على أثر مرضها . . ها قد عادت
فجلست الى جانب الشيخ وأخذت تعرك جبهته بكفها . ما أشقى حظ
هذه الغادة الفاتنة فأنها بدأت تنن وتبكي . . أود ان التى اليها بكيس
نقودى لعلها بما محتويه تصرف الشجن عن فؤادها . قالت بنت أنات :
حذاريك هذا الامر ، لاننى كثيراً ما أرسلت اليها الهدايا فكانت
تأبى قبولها ، وليست تقودك هي التى مستجلو صدأ الحزن عن نفسها ،
لان المال وان كثر لا يكفكف الدمع ولا يستل الحزن من تضاعيف
الصدر . وقد اعتزمت أن أرسل اليها فى الغد العجوز (أسنات) لتقف
على سر ما برح بها من الحزن فاعمل عندئذ على تسرية همها وإجلاء
كربها . . أجيلى يانيفرت النظر فى الموكب واحتشاد الناس فيه ومضايقتهم
يايانا بتدققهم . . ولا مفر لنا عقب مرور الاله من الأوبة الى القصر .
قالت نيفرت : وأنا الأخرى أود أن لو سارعنا بالعودة اليه فقد استظير لى

وملاً الرعب قلبي . ثم دنت من الاميرة والتصقت بها فزعة مضطربة .
قالت بنت أنات : أخشى أن يقع ما لم يكن في حسابنا من التأخر
في العودة . قال راميري : ما أجل هذا المنظر . . فأنى أرى قلب الحمل
يلمع في انائه لمعان الكوكب في السماء . وكان الناس خروا على الاذقان
سجداً اجلالاً له ، فاقتدى بهم اصحابنا الثلاثة . وحدث أن وقف
الموكب فترة من الزمن تجاههم ، لانه كان كلما قطع الف خطوة وقف
ليلتس السائرون فيه الراحة من عناء السير ، لا سيما وأن عددهم بلغ
الالوف ومنهم الضعيف وذو العاهة ، وهم أحوج الناس الى تزويد أنفسهم
القوة لاستئناف المسير . ولقد سمعوا البشير في مقدمة الموكب يزف الى
جمهور الامة بشرى المعجزة ويفسر لهم اسبابها . وكان صوته الجهوري
يرن في أركان الفضاء فيرجعه الافق ترجيعاً واضحاً صريحاً ، بالرغم من
غممة الجموع المتراخمة والافواج المتراكمة . ومما ضاعف اضطرابهم
وضجيجهم عند تطفيل الشمس ان القلب الالهى كان يسطع في انائه
البلورى ، كأن له شمعاً ذاتياً ينبعث منه فيكاد نوره يضيء الاقطار
ويخطف سناؤه الابصار .

أما ينم فكان لم يذق الطعام منذ برح ، في اليوم السابق ، دار
المحنطين عائداً الى كوخه الحثير ، بل ظل الوقت كله واجماً صامتاً
لما ألقى في روعه من القلق والانزعاج ، وبلغ من ذهوله أنه لم يجاوب
على سؤال واحد مما كانت زوجته وحفيدته توجهانه اليه . وكل ما
شهدتاه منه أنه كان دائم التحديق بنظره في نقطة واحدة ، وأنه كان

يتمم بكلمات لا يفهم السامع لها معنى ويرفع يده من وقت لآخر الى
جبهته بحيث كان يخيل لهما أنه مصاب بآلم شديد في رأسه أو ان بهذا
الرأس أفكاراً وهو اجس رديئة سلبته الطمأنينة وصبت عليه جام
المحوم . وتمادت به هذه الحال حتى ضاع رشده وأخذ يهذى تارة
ويضحك أخرى من غير سبب ظاهر ، فلما خشيت زوجته عاقبة أمره
هجرت بالذهاب الى هيكل سبتي لاستدعاء الطبيب نبسشت .

ولقد سبق الى نفس وردة ، لما رأته في هذه الحال ، أن تضع على
جبهته بعض الحشائش الخضراء التي جاءت بها الساحرة نيخت معتقدة
انها إذا لم تشفه من علته فلا أقل من أن تخففها عنه . وما وقف الموكب
الذي كانت تحف به الالوف من حملة المصاييح أمام بيت المحنظ حتى
قال رجل لآخر : هذا قلب الحمل أفلا تراه ؟ فلما سمع بينهم سؤاله
ارتعدت فرائصه ، بيد أنه ملك جأشه ووقف على قدميه وأخذ يمعن
النظر في القلب وهو يتلألاً في إنائه البلورى الشفاف ويتصعد الدخان
حوله من مجامر الطيب فحفز الخوف أحشاه وتناول عنقه للاستطلاع
ثم أخذ يتسمع أقوال الناس ليمنى طرفاً من حديثهم ويمير أذنه
لكل صوت ، فسمع المبشر يعلن بشرى المعجزة بصوت جهير وأخذ
يتفرس في الوجوه فرأى الناس وقد لزموا الصمت والسكون خشوعاً
واجلالاً . وكان لهذه المظاهر أثر شديد في نفسه فلم يتمالك أن دفع
بنفسه بينهم ومضى في تيارهم ونفذ في صفوفهم واجتأ بكفه في وجهه
وجبهته ، واستمر يزاحم الناس حتى اذا صار على مقربة من القلب المقدس

ضحك ظهراً لبطن وعلت قهقهته حتى خيل للسائرين في الموكب أن
من وراء الآكام والصخور رهطاً من المجانين يضيعون في التماجن
والتطايب الوقت الثمين .

وقف الناس لهذا السبب ، وقد أخذ الهلع من نفوسهم كل مأخذ ،
فحدد الكاهن الاعظم نظره في بينم ، ولم يكن يعرفه من قبل . وتصفح
وجهه ثم وقع بصره على الضوء الضعيف المنبعث من بيته ففهم على الفور
أن الرجل تسلل الى الموكب من هذا الوكر الحقير وأيقن أنه لا بد أن
يكون من طائفة المخنطين اللعينة وعالماً بسر القلب ، قال على ضابط كان
يسير الى جانبه ليتلقى منه أوامره وهمس في أذنه بكلمات مومثاً الى بينم
المجنون ثم استأنف السير كأن لم يحدث حادث ولم يضحك ضاحك .

أما الشيخ فكان لا يزال يضحك ضحك من أصابه خبل المجاذيب
حتى التقى بنفسه على حامل القلب اللامع فانقتل اليه بعض الاعوان
وأدركوه قبل أن يلحق به أذى ثم قبضوا عليه ، فحاول التملص من
أيديهم فضربوه ضرباً مسرفاً ثم تركوه . وما كادت الزمر التي تتألف
منها مؤخرة الموكب تمر بمكان الواقعة حتى كان مطروحاً أمام كوخه
الحقير يتخبط في دمه الذي كان يسيل غزيراً من جراحه الفادحة . ولقد
برزت وردة فرأته في هذه الحالة ، فلم تعرف بادىء ذى بدء أنه جدما
لحسكة الظلام . . وكان فريق ممن أخذتهم نكرة الدين اقتفوا أثره وهم
سكرى بسورة الغضب والنبذ وأخذوا ينمقون : ألا فاسرعوا الوثبة
اليه ! اقتلوا هذا الدنيء الحقير ، سوأة له ! . . قطعوه لربا ، أسخن الله

هينه . . . احرقوا وكره المدنس . . . القوه في النار مع هذه الفتاة التي
برزت من هذا الوكر اللعين لترى ما حل به . . . فالى لعنة الآلهة كلاهما
وحر سقرا . . .

وكان في الجمع امرأتان نزعتا المصاييح من اطراف قوائمها ورمتا بها
الرجل المسكين ، ودنا جندي حبشي من وردة فجذبها من ناصيتها
وسحبها على وجهها . ولكن لم تمض برهة حتى أقبلت زوجة بينم ومعه
بنطاور ، لانها لم تجد الطيب نبسشت فخبرت الشاعر بأن الشياطين حلت
في زوجها فعصر من فوره للاطلاع على هذا الحادث . وكان ساعته
لباس العمل لانه لما ألقى خطبته وعاد الى الهيكل لم يتجرد من الثياب
البيضاء وهي شوار الكهان وشارتهم التي يعرفون بها وافرغها على
جسمه حتى لا يقف أحد على حقيقة أمره .

ولقد مر بنظره حينما وصل الى بيت المحنظ أمر هائل ومنظر
رهيب . ذلك أن اخلاط القوم وسقاطهم كانت صدورهم تلي بحزازات
التعصر الديني فطرحوا ذلك الشيخ الضعيف أرضاً وأمسكوا بتلايب
وردة كما قلنا وأسرفوا في الاساءة اليهما ، فما وسمه عندئذ وقد أحفظه
هذا المدوان الذي لا مبرر له إلا الانقضاض على الحبشي واشباعه
ضرباً . وقد أمسك به من نطاقه ورفع في الجو بكثا يديه ثم طرحه
بعيداً عنه كما يطرح العبء الثقيل ، وشهد القوم منه هذه البسالة
فارتاعوا وتمتقروا متراجعين ، بيد أن الحقد الذي ملأ صدورهم حفزم
للوثة على بنطاور والتنكيل به وتناصروا في هجومهم عليه . وكان من

شأنهم معه في ذلك ما يرى من الذئاب الخاطفة حينما تهتم بالمهجوم على
فريستها للفتك بها ، فما تمالك أن اقتلع أحد أعمدة الظلة التي كان أقامها
ينم لوقاية حفيدته من حر الهجير . وكان هذا العمود من خشب الجبشة
المعروف بشدة الصلابة فأخذ الشاعر يدور على نفسه وهو قابض على أحد
طرفيه في رسم في دورانه بالطرف الآخر دائرة لم تحدث نفس واحد
من أولئك الناقين باقتحامه إياها لما كان يصيبه من الأذى لو أقدم على
هذا الفعل ، وبهذه المثابة استطاع أن يستخلص وردة من مخالب
عدوانهم . ثم قال لهم : ان من يجرأ منكم على إصابة هذه الغادة بأذى
فليوطن نفسه على الاعتقاد بدنو أجله . . . تعسا لكم وسوأة أيها
الانذال ! أفلا تخبجون وقد بلغ عددكم المائة أن تسيثوا الى شيخ قد
وقع على الارض مغشياً عليه وقتاة لا تملك لضعفها الذود عن حياتها ؟
لا حياكم الله ولاحي آباءكم ، فقد دنستم هذا الاحتفال بارتكاب جريمة
لم تنسج في الشناعة على منوال .

فظل المعتدون تجاه هذا التقريع مبهورين فترة من الزمن لا
يدرون ما ذا يعملون ، ولكنهم ما لبثوا أن أعادوا كرة الهجوم على
الشاعر والفتاة والشيخ ، بأغراء من لم يشهدوا الحادث من أصله بل
كانوا ينسلون من كل فيج وحدث لاستطلاع الخبر . وقد اختلط حابلهم
بالتابل فلم تسمع الا همهمة تتخللها صيحة : فلنحرق المدنسين ، فلنصرم
النار في وكرهم اللعين ؟ . . . ودنا من الشاعر بنطاؤور فريق من صناع
مدينة طيبة وأخذوا عليه الآفاق وضيقوا النطاق ، دون أن يتمكن أحدهم

من تبين حقيقته أو يعلم أنه من السكمان ، بسبب تنكره من جهة
واحتدام الفتنة في ظلام الليل من جهة أخرى ، وتناول غير العمود عصا
كبيرة أخذ يهوى بها ضرباً مسرفاً على كل من يدنو منه ويتقى بواسطتها
لكلمات المعتدين وضربات عصيهم ، ولبت هكذا في جهاد عظيم وبلاء
شديد حتى اصطدم وهو لا يدري بماجز ضعيف خلفه ، فجاء سقوط
هذا الحاجز ضئلاً على إباله إذ افتتم بقية الثائرين هذه الفرصة لمهاجمته
من الخلف والقاء جذوة نار على بيت المحنط ، فسرعان ما شب فيه
ضرامها . وكان مبنياً بسعف النخل الجاف فأكله عن آخره وجعله
رماداً تذروه الرياح وأضاء القوم لهيب النار فاستأنفوا كرة الهجوم .
وكان بنطاؤر قد خارت قوته وتلاشت ؛ بيد أن ذلك لم يثنه عن مواصلة
الدفاع عن وردة التي كانت لائمة به لا تفارقه ، غير أن رجلين اختطفوا
المصا من يده على غرة منه فامسى أعزل من سلاح ينزود به عن حوضه
ويدفع شر العدوان عن وردة ، وصاح الناس لذلك صيحات الفوز
والانتصار . وكان اليأس آتئذ يدب في قلبه ويحل منه محل الرجاء ،
فاذا بشاب قد اخترق الصفوف ويده سيف مصلتا قدمه الى بنطاؤر
وتراكن الاثنان ظهراً لظهر فأخذ بنطاؤر يجيله متهدداً به القوم حتى
تراجعوا بيمداً عنه لما تولاهم من الخوف . ثم حمل عليهم حملة صادقة
صارخاً في وجوههم فكان في حركاته ووثباته وصيحاته أشبه بيطل كمي
رأى مع ضعف قوته ان القلب له على أعدائه الكثيرين أو انه لبت
المرين أريد به السوء فخرج للذياد عن حوضه مزجراً مكشراً

عن أنيابه فلا قلوب مریدی السوء به هلماً و فزعاً . وكان الامير
راميرى وهو ذلك المجهول الذى حمل السيف الى بنطاور ممسكا بمنجبر
يدفع به عن نفسه فقال للشاعر : .. ان هؤلاء الجبناء يلقون علينا جذوات
النار . ثم ترمى على وردة فأطفأ النار التى بدأت تشب بأطراف ثوبها .
ورمى بعض الناس بنطاور بالاحجار فأصابه أحدها باصابة ترزعع منها
ركفه وخارت قوته ثم تدفق القوم كتلة واحدة على بنطاور فسقط
حاجز كان قائما هناك وظهرت فى الحال منه غادة سمهرية القوام لم
تنشب أن توسطتهم قائلة : قفوا مكانكم أيها القوم ! .. اننى بصفتى بنت
أنات فتاة رعمسيس أمرم بالكف عن هذا العدوان الخسيس ..

فما سمع المعتدون هذه الكلمات حتى بهتوا وتولتهم الخيرة
ووقفوا صامتين واجمين ، فرفع بنطاور رأسه وود أن لو جثا على ركبتيه
أمام ابنة رعمسيس التى ساقها المقدور فى أنسب وقت لاتقاذه من مخالب
الموت ، شكراً لها . ولكنه تذكّر ما تلقاه من الدروس عن الكاهن
الاعظم وما بناه عليها من الحكم بخطأ الاميرة فى مخالفتها جموعاً
تسمو على عظماء أفرادها سمواً عظيماً ، فبدلاً من أن يجثو على ركبتيه قال
بصوت جهورى : مهما يكن من أمر هذه الغادة التى ساقها القدر
لاتقاذى من مخالب الموت ، ومهما يكن بينها وبنات أنات من قرائن
الشبه الكثيرة فليست هي حتماً بابنة رعمسيس . أما ان أردتم معرفتى
فانى منبثكم باني بنطاور كاهن هيكل سبتى وخطيب الاحتفال فى هذا
اليوم وبصفتى هذه وباسم وظيفتى المقدسة أمرمك أيها الفتاة بمفادرة

هذا المكان في أقرب آن .

خضعت الاميرة لامشارته وظل الناس سكوناً زمناً قام بعقبه شاب
أصيب في يده بمجراح خطيرة فقال : هذا الرجل جندي لا كاهن كما
يدعي ، فلا بد لنا من قتله لأنه غاش والغاش غير خليق بالحياة . ولكن
سمع صوت آخر منبمنا من وسط الجمع يقول صاحبه : تنحوا للكهان ..
دعوا بنطاؤور صديقي وخطيب الاحتفال في أمن وسلام . . اما من أحد
بينكم يعرفني ؟ أجاب نوتي من الحاضرين : أنا أعرفك أنت نبسشت
الطيب . . أنت الذي عاجلني من كسر في ساقى . وأجاب آخر :
أنت الذي عاجلني من رمد في عيني كاد يذهب بنورها . وقالت غادة
هيفاء مومئة الى بنطاؤور : أما هذا الشاب الجميل الطلعة فكان خطيب
الاعیاد اليوم . فلما سمع الشاب المصاب في يده بالجرح هذا القول ثار
فيه نائر الغضب وحاول الوثوب على الشاعر قائلاً . ان يكن خطيباً أو
لم يكن فهذا لا يعنينى . فجذبه بعض الحاضرين من ناصيته وحالوا دون
اعتدائه على الشاعر ، ثم افسحوا الطريق لنبسشت الذي مال على بينم
هنيهة لم يلبث أن رفع رأسه بعدها وقد ظهرت على وجهه علامات
اليأس والغضب وقال : لبس القوم هؤلاء الذين قتلوا الشيخ المسكين .
قال بنطاؤور : وذه أول مرة في حياتى لوئت يدي فيها بدم الغير في سبيل
استخلاص وردة النضرة الزكية من مخالب الموت الذى انتاب جدها
العائر الحظ .

ما كادت كلمة وردة ترن في أذن نبسشت حتى أخذ بروح ويفعدو

مجداً في البحث عنها واستطلاع حقيقة أمرها . ثم أخذ يستطيل فيمن
اعتدوا عليه بالسب الشائن إذ كان يقول بصوت عال : يا ذوى القلوب
المشوبة بالسموم ! يا اولاد الافاعي والمقارب ! يا قاطع الطرقات !
وما زال يسترسل في هذا السباب حتى عثر على وردة ريحانة فواده
جالسة بالقرب من نيخت الساحرة ، فزفر زفرة المكروب الذي زالت
كربته وصرفت غمته ثم عاد فاهتم بالجرح ، وسأل الشاعر عما إذا كان
هو الذي صرع وحده كل الذين اعتدوا عليه . فتبسم بنطاؤور ابتسامه
الحياء والتواضع لا الاستكبار والعلو والزهو . وكان في حاله هذه
تجاه الشاب الذي جرحت يده كالطفل الذي يجرح عصفوراً بعد صيده
ثم يبكي حزناً عليه مع أنه السبب في مصابه . أما نبسشت فقد حدق
بنظره في بنطاؤور ، وقد أخذ منه القلق والذهول كل مأخذ وسأله : لم
لم تجهر باسمك في الحال ؟ أجاب بنطاؤور : ان روح الاله (منث) سرت
في عروقي حينما شهدت هذا الرجل الحميم وقد جذب اليه وردة من
شعرها المرسل على كتفها ، فلم أعد قادراً على ضبط نفسي . . . قال
نبسشت : لقد أحسنت ، ولكن قل لي كيف نخرج سالمين مما دخلنا
فيه متورطين ؟

طرق الآذان دوي طبل كانت تردده أركان الوادي ، فاهي إلا
فترة قصيرة من الزمن حتى وفد الضابط الذي أنقذه أميني للقبض على
المخبط ومعه شردمة من الجند . فأمر المجتمعين حول بيت هذا الرجل
أن ينصرفوا فاذعن بعضهم وعصى الآخرون فحمل عليهم وشتت شملهم

حتى لم يبق في مكان الحادث أحد سواه وأعوانه وبنطاؤور ونبسشت .
أما الاميرة وأخوها ونيغرت فقد زابلوا المكان من بادية الامر مع
المتثلين لأمر الضابط ، إلا أن راميري كان كثير الاهتمام بوردة فلم
يرجح المكان إلا بعد إذ استوثق من سلامتها وأيقن ان لا خوف على
حياتها . واستولى الجزع الشديد على نيغرت فلم تستطع السير على قدميها
فحملها رؤساء حملة المحفات على اكفهم متشابكة الاصابع وساروا بها
أمام الاميرة لتشمها باسمى التفاتها . ولم يفتر راميري لحظة واحدة عن
التفكر في وردة وما عسى أن يوول اليه أمرها في هذه الليلة فقال
لاخته : لقد أصبح بيت المحنظ أترأ بعد عين فأين يقى أولئك المساكين
أنفسهم من طواريء الجو واعراض الحياة في الخلاء ؟ . . .

أما الضابط وجنده فانهم بعد أن اجلوا الناس عن الوادي عادوا
الى مكان الشيخ ينم فوجدوا به الساحرة نيخت ووردة وبنطاؤور
ونبسشت ، فشرح الشاعر للضابط ما عاينه من الحوادث ثم عرفه بنفسه
فمد اليه الضابط يده مصافحاً وأمعن النظر في ذاته معجباً وقال : ما أشد
هذا الساعد وأمتن هذه العضلات . . . لو كان حول رعمسيس أعوان
مثلك لما طال بمحاربه امة الريتاس الامد . . . ومن الأسف أن يكون
الذين صرعتهم هذه الساعد من ابناء طيبة لا من الاسيويين . ويزيدني
أسفاً أن أكون مضطراً بحكم المهمة التي نيطت بي الى القبض عليك
والذهاب بك الى الكاهن الاعظم أميني . . .
فأوماً بنطاؤور برأسه ايماءة الامتثال وقال : افعل ما بدا لك فلست

بمراضك في شيء . فأمر الضابط أعوانه بحمل جثة ينيم الى بيت سبتي ،
ثم التفت الى بنطاؤور ونبسشت وقال لها : أرى من الواجب القبض على
هذه الفتاة . قال الشاعر : انها مريضة وليس لها شأن . قال الطيب :
والراحة لها لازمة والاضاع كل أمل في نجاتها من الموت . . . وعندى أن
الصواب في تركها حيث هي ، لاسيا وأن الاميرة بنت أنات كريمة
ملكنا قد خصتها بمحبتها وحبها برعايتها مذاصابتها الجراح التي كادت
تودي بحياتها . قالت نيخت : سأحملها الى بيتي للعناية بصحتها ، ولقد
بعثت اليه بجدتها لانها كادت تحتنق بدخان الحريق ، الا انها قد أفاقت
من غشيتها وعادت الى سابق حالتها . قال الطيب : كل ما أسمع لها
به أن تقيم في بيتك بين عشية وضحاها أي ربما اهتدى الى مكان يليق
بهما . فنبسمت الساحرة وقالت ساخرة : اني أعرف كثيرين غيرك
يودون أن لو تقيم هذه الغادة في بيوتهم وان لو يتولوا العناية بأمرها
والمحافظة على حياتها .

كان الجند في خلال ذلك أتموا وضع الجرحى على الاسرة المعدة
لنقلهم فأمرهم الضابط بالمسير فصاروا ومعهم بنطاؤور وجثة الشيخ ينيم .
أما بنت أنات وراميري ونيقرت فوصلوا في غضون هذه الحوادث
الى شاطيء النيل بعد أن لقوا من الصعاب ما يقصر عن وصفه القلم ،
وكانوا انفذوا أحد حملة المحفات ليبلغ الى النوتية الأمر بأعداد الزوارق
واستعجالهم في ذلك ، لأن نفقات الآلات الموسيقية وأصوات المغنين
كانت تصل اليهم من بعيد ، كما كانت المصاييح الساطعة الانوار تحرك

في الافق فيتخيلها النظارة جذوات متحركة من النار . وفي هذا الدليل على أنهم إذا لم يبادروا باجتياز النيل قبل عودة الموكب في هذا المظهر الجليل فقد تعذر عليهم عبوره ، إذ من العادات المتبعة في ذلك الوقت انه ما دام زورق آمون يشق خياله صفحة النيل الصقيلة فليس لزورق آخر أن يجرى عليه ولو كان لأمير أو عظيم . ويجوز بمثل هذا الانتظار أن تمنح آية الليل ويسفر النهار ، فلا يعودون الى مساكنهم بل يلبثون في أماكنهم .

وكانت بنت أنات وشقيقها ينتظران في الظلام ، بذاهب الصبر ، عودة الرسول الذي أتقدها لاعداد الزورق ، والى جانبها نيفرت وقد تلاشت قوتها وخارت عزيمتها . فألقت بنفسها على الاميرة فأحست هذه بارتعاد فرائصها واضطراب سائر أعضائها . وعاد الرسول في الاثناء فأخبر الاميرة بعودة الزورق من الضفة الاخرى وانه سار منها بهدوء وتوازن حتى رساتجاه المكان الذي كانت تقف فيه مع أخيها ونيفرت فأسرع راميرى اليه ونزل فيه وأمسك بالمجداف . وكان ضابط أحراس هيكل سيتي آتئذ في طوافه يتعهد رجاله وأعوانه ، فدنا من الزورق وقال لراكبيه . ليكن في علمكم أن هذا آخر زورق يرخص له بعبور النيل الى الضفة الاخرى قبل أن يتم زورق الاله اجتيازه اياه .

فاسمعت بنت أنات هذا الانذار حتى همت بالنزول في الزورق وكانت تبذل قصارى همتها للمحافظة على نيفرت ووقايتها من الطوارئ . وكان يضيء مكان النزول من الشاطئ نور باهت منبعث من بضعة

مصاييح ، فما كادت الاميرة تصل الى حافة النهر وهى على ما وصفناه من
العناية بنيفرت حتى شعرت بيد شديدة قد هوت على كتفها وصوت
أبح يدوى فى أذنها ، عرفت على الفور بنبراته أن صاحبه انما هو بما كر
وكان يقول : مكانك أيها الحقير . . . تراجع بزورقك الى الوراى ليحل
زورقى محله ، وعندك من الوقت متسع لتعبر بمن معك بعد انقضاء
الاحتفال .

فلم تنبس شفتا صبايط الحرس حينما سمع هذا الأمر بكلمة بل
تركه يهتر بما يشاء علما منه بجفاء طبيعه وخشونة خلقه ، ولم يعارضه بعد
ذلك فى صغيره الشبيه بزئير الاسد أو هرير الكلاب ، ولم تكذب تردده
الآفاق حتى سمع اصطدام المقاذيف بالماء من زورق أخذ يتقدم متهاديا
نحو الشاطيء . وقد رآه بما كر فصاح برجاله : ادنوا الزورق منى . أما
هؤلاء الناس فعليهم بالانتظار حتى يمر موكب الاله .

وكان زورق بما كر أكبر من زورق الاميرة وأمتن ، ولصدمة
خفيفة منه تكفى لتعطيمه . فلما رأى راميرى من بما كر ما رآه او عز
لاخته أن تعجل بالنزول الى البر ، فأجابته الى طلبه بسرعة وبالفى فى
التنكر والتخفى حتى لا يعرف رئيس الطلائع هويتها . الا أن هذا
الايخى استوقفها ثانياً وصاح بها . أما أمرتكم أيها المشردون بملازمة
هذا المكان ؟ ثم أمر نوتيمته بدفع الزورق الى وسط النهر . فخشيت بنت
أنات سوء العاقبة لاسيما وان الخلاف بين أخيها وبما كر اشتد واحتدم ،
لأن قائد الطلائع أمعن فى مهاراته وحمقاته حيث قال : كيف يجرأ

هؤلاء المتشردون المرايا على معاندتي ومخالفة ارادتي .. لا بد لي من تأديتهم وتقويم المعوج من أخلاقهم .. عليك يا ديكرك (١) بهذه المرأة وهذا الغلام .. احمل عليهما واطردهما قسياً عن هذا المكان . قال هذا وأوماً الى الكلب فوثب عليهما نابحاً . فلما رأت نيفرت هذا الأمر صاحت صيحة المذعور فعرف الكلب صوتها فعدل عن توثبه ونباحه وتحكك بها مدهاناً متملقاً . وكان بما كره على وشك النزول في زورقه فلما شهد الكلب يحوم حول نيفرت ويتمرغ عند قدميها أخذته الدهش وانجحه نحوها وصاح بها مفضياً : سوف أعاقبك أيها الشاب المفتون لانك استعنت بالسم والسحر على اذلال هذا الكلب لطاعتك . ثم رفع سوطه وأراد أن يهوى به على نيفرت فسقطت على الارض رعباً وهلعاً . ومما لا ريب فيه أنه لولا بنت أنات التي كانت آتت خلفه واستطاعت أن تجذب يده لمزق السوط خدها تمزيقاً بدلاً من الاثر الخفيف الذي تركه فيه وكان سبباً لذعرها ووقوعها مفشياً عليها . وما وقع نظر راميري على هذا العدوان حتى برح الزورق ويده المقذف وابتدر المعتدي الاثيم بقوله : انك لجان سافل ١١

أما بما كره فلم ينبض له مذ سمع هذا القول نبض لاعتياده مكافحة الانداد في ميادين الجلاء، بل نظر الى كلبه ديكرك وصفر له صفيراً خاصاً يفيد معنى الامر بالهجوم على الامير وتمزيقه جلده بأسنانه . ففهم راميري هذا المعنى ، وكان ثبت الجنان جريئاً كما كان صياداً حاذقاً

(١) اسم كلب بما كره وقد سبق الكلام عليه في الجزء الاول

حاضر الذهن طالما تفرغ مع رعمسيس أبيه للصيد في الآجام العامرة بالوحوش الكاسرة ، فضرب الكلب بطرف المقذاف ضربة أصابته في خيشومه فصرعته . ولم يكن لبعاءكر صديق أوفى له عهداً من هذا الكلب إذ كان رفيقه الأمين في جولاته وأنيسه في سكونه وحركاته والصديق الذي لا يمل في وحدته واجتماعاته . فلما شهده طريح الثرى يتمرغ في دمه وتتنازعه عوامل الموت والحياة غلب عليه التهور واستمكن من نفسه الغضب فرفع السوط يريد أن يهوى به على الأمير انتقاماً منه على فعلته .

أما راميرى فقد كانت تلك الحوادث المتتابعة بما تخللها من المصاعب والاطخار قد نهت في نفسه عزة الملك وكرامة الامارة فكبر عليه أن يجرأ مثل بعاءكر على ما ارتكب من اعتداء شائن وقذع مهين في حق اخته ونيفرت . وكان يحس كرجل أنه المسؤول عنهما وأن الواجب عليه منع الاذى من الوصول اليهما . ودبت فيه نخوة الرجال وشجاعة الابطال فضرب بعاءكر بالمقذاف ضربة نثرت من يده السوط وجعلته يئن من شدة الألم ويعول كالثكلى ، غير أنه جرد من نطاقه خنجراً ماضياً وحاول أن يضرب به الأمير فسرعان ما توسطت بنت أنات بينهما وجهرت باسمها ولقبها ، فما طرق صوتها سمعه حتى تراجع الى الورااء خشوعاً وخجلاً . ولم تنبس شفقتاه بكلمة ، بل وقف منها موقف العبد الخاضع يتلقى من مولاه الامر . ولقد أمرت النوتية بأن يدنوا الزورق من الشاطيء وراها تجذب اليها نيفرت التي روعتها هذه

الحوادث وتأمرو أولئك النوتية بالابتعاد عن الشاطئ فم كل ذلك طبق
إرادتها، وأخذ الزورق يشق وجه النيل بجيزومه فاهي الا دقائق
معدودة حتى وصل الى الضفة الاخرى فغادره ركابه جميعاً الى القصر
الملكي تتنازعهم عوامل الوصب والتلق والارتياح .

وكانت ستخم مضطجعة في محفتها بأعلا الجسر، فوصلت الى سمعها
ضوضاء المعركة التي نشبت بين الامير وابنها . وقد تاقت نفسها الى
استطلاع الخبر، فلما جاء هذا الاخير في زورقه سألته عنه فلزم الصمت
وكفت هي عن السؤال ، وظل الاثنان كذلك الى أن تم عبور الموكب
للنهر ، وعبره بعض المتخلفين بأمره . وكان يلقي في خلال ذلك نظرات
الاسف والحسرة على كلبه العزيز الذي قتله راميري ثم الى يده التي
أصابها المقذاف بضربة مسرفة فجرحت جرحاً فادحاً فيمتملى صدره
حقدماً ويتأجج بضراوة حب الانتقام ويقول : هذه البزرة الشريرة التي
غرسها رعمسيس . . هذا النسل الخسيس السوف يعلون من أنا . .
ان مينا وفرعون بالمسكر متجاوران فهما لا محالة هالكان .



الفصل الرابع

— وليمة في هيكل والكهان بين المشرب والمأكل —

بعد أن ظل بما كر واقفاً طويلاً على ضفة النهر عاد الى طيبة مصطحباً والدته ورمة كلبه ليرسلها الى كينوبوليس^(١) وقصد بعدئذ الى طيبة الاموات لحضور مأدبة الليل . وإذا كان يحس في يده آلاماً شديدة من جراء الضربة فقد ضمدتها له والدته كيلا يعوقه عائق عن حضور تلك المأدبة التي دعي اليها لأول مرة بعد وفاة أبيه . ثم كان لا مفر له من الذهاب اليها ، وقد أبلغه أميني ان الوالى راغب جداً الرغبة في مقابلته ومحادثته .

كان بما كر من أسرة اشتهرت بالاصل العريق والمحمد الكريم والنسب الراسخ بل عرفت بين العموم بانها بذت أسرة فرعون شرفاً ومجداً ، غير أنه اذا رمت به المصادفة في جمع من علية القوم ووجهائهم ظهر عليه في الحال من الامارات ما يوقن المتفرس فيه أن في أمره شيئاً خفياً لا قدرة لأحد على استجلائه . وكان حائزاً على لقب «كاتب» وان لم يكن في الواقع من الكهان الكاتبين ، كما كان جندياً وان لم

(١) هي سلوط الآن وكانت مقر عبادة الاله (انويس) وكان الكلب من بين آلهتها المحترمين . روى بلوتارك معركة حصلت بين اهالي (كينوبوليس) و (أوكرتكوس) التي كان اهالها يبدون السمك المسمى بهذا الاسم . وسبب هذه المعركة ان اهالي المدينة الاولى أكلوا سمكة من السمك الذي يبيده جيرانهم فانتقم منهم هؤلاء بان ادبوا مادبة تناولوا فيها ما أمكنهم الحصول عليهم من الكلاب

يدرج اسمه في ديوان الابطال المحترمين . فهو لاذن لم تتوافر فيه فضيلة ولم تتحل نفسه بمحمدة من محامد الخصال . وكل ما أثر عنه أنه كان حريصا على أداء واجباته في المواعيد الموقوتة لها ، وأنه كان من الهمة والنشاط بما لا يجاريه فيه أحد متى كان الفرض الذي يرمى بهما اليه تحقيق أمنية أو قضاء وطر أو نيل مطمع . وبالجملة فقد كانت أطواره وطباعه تناقض ما عرف عن أفراد الطبقة الرفيعة التي حشرته الظروف في زمريتهم ، وكان والده الموهار في مقدمتهم فضلا وشجاعة وكرما .

ولم يكن بما كر بخيلا بل كان بما أسنى له من الرق وأرغد عليه من العيش رخي اللب كثير البذل . ومما يؤثر عنه أنه أنفق أموالا طائلة مما أخلفه له والده في سبيل الخير والبر ، غير أن نقائصه الشائنة وعيوبه الفاضحة أفقدته الصواب فلم يعد يستطيع وضع الاشياء في مواضعها أو يقدرها قدرها . وكان إذا أجزل لاحد العطاء تقاضى منه في مقابل انعامه عليه إتاوة الثناء على شمائله وضريبة الاطراء في كرمه وسخائه ، وربما تعسف في الطلب فركب المركب الخشن وأتى من قبيح الفعل ما لعل سببه أنه كان يرى حقا لنفسه الظهور بالصرامة والعزم على مرأى من الناس جميعا حتى من أسداهم الجميل ووصلهم بالمنع . لذا كان لا يجنى من غراس فعاله الحميدة غير العداء له والحقده عليه . وكان أخص ما يعرف به من الخصال الكبرياء والصلف ، الا أن غياوته كانت تبدو من خلال هذه النقيصة واضحة كالشمس بين السحب الكثيفة . وما يعرف من صفاته المحسوسة خشونة صوته وصلصلته في

رداءة تجزئة عند الكلام واتساع وجه في انبعاث يشوهه وقصر جسم
في اختلال تناسب وانعدام تجانس وضيق عقل لا يدرك معه لطف
الاشارة ولا حسن الانباء . ولقد كان يفضل الاقامة في المعسكر عليها
في المدينة لانه في المعسكر غير مقيد بما يصده عن جهاده في غوايته
وتحبطه في اباطيله واسترساله في شهواته . أما المدينة فانه فيها مضطر الى
مخالطة أمثاله فلا ينعم بينهم باله بل يشعر أنه دخيل فيهم وأنه أدنى منهم
مرتبة . تلك هي علة إثارة العزلة عن الناس وتجنبه مخالطتهم ، فإذا
أجاب دعوة أميني فما هو إلا ليظهر في مظهر العاني المتعجب المتعشم .
وجرت العادة بأن لا يمد السباط الا في منتصف الليل ليشهد
المدعوون ما يعرض على البحيرة المقدسة من المراء ، العجيبة وليسمعوا
الاناشيد والمدائح التي صاغ الشعراء قلائد نظامها واقتنعوا بأبكار معانيها
تمجيداً لأئوبس وأوزريس . ومع هذا فانه ما ولج مكان الاحتفال
الذي بلغ بزينته منتهى الابهة والجلال حتى رأى المدعوين مجتمعين وتجلي
له آنى مستويآ على العرش الى يمين أميني وأمامها المائدة الكبرى ، وقد
صفت حولها كراشي خالية من الجالسين ، وكانت مخصصة لبعض
كهنة هيكل آمون الذين دعوا للشهود لإحتفال ثم امتنعوا عن إجابة
الدعوة معتذرين . وما كان لتخلفهم عن الحضور من سبب صحيح
سوى اخلاصهم الولاء لرعمسيس وارتياحهم في صدق نيات أميني على
وجه أزمهم اعتبار حكاية المعجزة حيلة مبتدعة لدس دسيسه وتدمير فتنة

انتقاماً منه فيما أظهره من الايثار لكهان طيبة الاموات (١) .
لما دخل بماكر هذا المكان واتجه نحو المائدة كان يجلس اليها القائد العام للجنود الظافرة العائدة من الحبشة وفريق من عظماء الضباط ، فرأى بجواره مكاناً خالياً فسارع اليه وما تأهب للجلوس فيه حتى رأى هذا القائد يوعز الى جالس على مقربة منه أن يسبقه اليه ففطن بماكر لهذا اليعاز وفهم منه أن القوم لا يتقبلون ممثله بينهم فولى عنهم مديراً وأخذ يتلفت يمنة ويسرة ويمد بصره أمام وخلف للبحث عن مكان يليق به بينما كان ذلك القائد يتمتم لسانه بالكلمات الآتية : « ان نبيذى يحمض إذا نظر اليه هذا الفظ النليظ » أي ان مجاورته إياه تفضى الى غضبه وتدمره منه .

انصرفت الانظار نحو بماكر وحومت عليه دون أن يدعوه أحد الى الجلوس ، وأحس أنه دخيل فاحتدمت نار الضغينة في صدره وبدأت أمارات الفيظ على وجهه وعن له أن يفضح من قاموا بترتيب الاحتفال ، فاتجه الى الباب من فوراً ، غير أن الوالى شاهده وهو عائد ففطن في الوقت الى حقيقة قصده وساراً أمينى في أمره فدعاه هذا

(١) تبرع جميع ملوك الدولة الحديثة بالاموال الطائفة لهيكل الكرنك واقدم اسم نقش على جدراته هو اسم اوزيرسن الاول من الاسرة الثانية عشرة . وقد عطلت أعمال العمارة فيه في عهد الهيكسوس اى عرب الرعاة ولكن ملوك الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة اهتموا بتوسيع نطاقه اهما عظيماً فبلغ من السعة والنخامة وحسن التتميق مالم يبلغه هيكل اخر . فان القاعة الكبرى منه التى بدىء بانشائها في عهد رمسيس الاول وتمت في عهد سبتى وزينت بالنقوش والرسوم في ايام رمسيس الثانى كانت محتوية ١٣٤ عموداً وكان يبلغ طولها ١٠٢ متر وعرضها ٥١ متراً . وقد ضم رمسيس الثانى هيكل الافصر الى هيكل الكرنك وأنم نظامها بمبان بلغت الغاية التصوى من الاتقان والنخامة . وكانت الهدايا والقرابين والتبرعات تنصب في خزائن ذلك الهيكل الجليل كالسيل العزيز وكان كل فرعون يلى الحكم بحجاري اسلافه في العناية به

اليه ورجا منه أن يجلس الى جانبه مؤكداً له ان المكان الذي يدعوه الى الجلوس فيه كان معداً برسمه ومحجوزاً له ، والحقيقة أنه كان مما خلا على أثر رفض أنبياء هيكل آمون وكبار كهنته اجابة الدعوة الى الوليمة . فما استقرت هذه الكلمات في أذن بما كر حتى انجلى كربه واهتزت نفسه سروراً ، فأخفى رأسه شكراً وإجلالا وجلس في الكرسي مطرقاً برأسه خشية أن يرى حوله من يرمقه بعين الاحتقار ويستكثر ما لقيه من مظاهر الحفاوة والاكبار .

غير أن الهواجس لم تلبث ، وقد استقر في مكانه ، أن خامرته فأنشأ يقول : جلس والدي مراراً في مثل هذا المكان وكذا جدي ومن قبله أجدادي الأولون فلم لا أجلس فيه مثلهم وأنا غصن دوحهم ووارث مجدهم ؟ .. ألم يكن لأسرتنا الفضل على رعمسيس بأخلاصها في خدمته ؟ وبينما كان تأمها في يبداء هذه الهواجس إذا بخادم أقبل عليه ووضع غصنا منضداً بالازهار على كتفه وتلاه آخر سكب في قدحه النبيذ ووضع أمامه من ألوان الطعام ما يسيل له اللعاب ، فرفع عنده رأسه فكان أول من ابصر به النبي الثاني جاجابو وهو يرشقه من نظرات السخر والاستخفاف بسهام حادة ، فماد الى الاطراق حياء واستخذاء وأحس بنفسه الصغار والهوان . ولقد حانت من الوالى التفاتة اليه وهو في هذه الحيرة فهم بتخليصه من هذه القيود إذ أخذ يطيب نفسه برقيق اللفظ وعذب المؤانسة وقال للحاضرين : ان الموهار سيرحل غداً الى البلاد السورية لاداء مهمته الخطيرة . وأردف هذا

القول بالاطراء في مدحه والثناء عليه ، فلم يجابوب بماكر بكلمة على هذه التحية الجميلة ثقة منه بأن الوالى كان يتكلف الظهور بهذه الرعاية ليبرر للحاضرين اجلاسه إياه الى يمينه أي في أشرف مقام وأسمى مكان ، ولكن صمت الموهار لم يمنع الوالى حينما حان أوان تعاطى الشراب من التنى الفوز لبعاكر في كل ما نيط به من جلائل الاعمال .

وأردف الكاهن الاعظم هذا التنى بالثناء على بماكر بالنيابة عن كهنة هيكل سبتى ، لأنه كان في اليوم السابق تبرع للهيكل بقطعة أرض جيدة التربة (١) وما ختم أميني ثناءه حتى ارتفعت من السامعين أصوات الاستحسان والتصديق وثلج صدر بماكر ورضيت نفسه ونعم باله ، الا أن علامات الألم من الجرح الذى بيده كانت ظاهرة على وجهه وفهم الوالى ذلك فسأله : أيديك جرح ؟ أجاب : نعم بها جرح ولكن لا خوف منه ، وسببه أني كنت أرافق والدتي الى الزورق فسقط على يدي . . فقاطمه أحد كبار ضباط حامية طيبة مازحاً ، وكان من رفاق بماكر في المدرسة : سقط على يده مقذاف أم عصا ؟ فسأل الوالى : أو هذا من الممكنات ؟ قال الضابط . نعم وقد وصلت اليينا تفاصيل ما وقع في تلك الليلة ومنها يفهم أن الذى جرحه شاب في مقتبل العمر وانه قتل كلبه قبل أن يجرحه في يده .

فسأل متولى أمور الصيد بصوت الآسف : أو قتل كلبك

(١) توجد وثائق كثيرة تتضمن بيان تبرعات الملوك والسكبراء بالأراضي الزراعية للهيكل . وكان الاغنياء من الاهلين يقتدون بالملوك اذ كانوا يتبرعون بمبالغ جسيمة لتزيم المعابد وتوسيع نطاق الهياكل كما فعل النفي (أمن أم أبت) في هيكل مدينة أبو

ديكر . . . ان والدك كان كثيراً ما يحضر به للصيد والقنص وكنت
أصيد معه جنباً لجنب ، فصادق بما كر بإشارة على هذا القول . وكان
يود أن لو ينتهي الحديث في الموضوع لولا أن قائد الاحراس الذي له من
سمو المرتبة ما يديح له الكلام قال ساخراً منه غير مكترث بما بدا على
وجهه من علامات الحياء والاستخياء : نعم وما صرع الفتى الكلب حتى
قهرك وجرذك من سلاحك . سألت آتى : وهل أفضت المعركة الى هرج
بين الناس ؟ أجاب قائد الاحراس : كلا فان الاحتفال اتقضى على ما
يرام من السكينة والسلام . ولو لم تعرض حادثة المنخط بينم الذي بما
اعتراه من الخبل والجنون أخل بنظام الموكب فترة من الزمن لساغ لنا
القول بأن هذا النظام بلغ من الاتقان أقصى حدود الامكان . وقد
أصبح لزاماً علينا الآن أن نشكر للمحتفلين حرصهم على النظام أجمعين .
ولكن قل لي أيا بما كر ماذا استلان فؤادك واستل من قرارة نفسك
كين الحقد حتى تنزلت عن الانتقام من ذلك الشاب الذي أصابك بيدك
وصفحت عنه هذا الصفع الجميل ؟ قال جاجابو : أصحيح ما تزعمه من
صفحه عمن اعتدى عليه وما عرفنا عنه الا الغلظة في معاملة الناس والقدر
في التشفي منهم لأقل حادث ؟

تحول أميني نحو جاجابو ورشقه بنظرة فهم منها مراده ، وانه كان
لا ينبغي له تنقيب الحديث الى هذا الموضوع فسرعان ما احمض من
هذا التهكم على بما كر الى الظهور بمظهر المهتم بأمره المشفق عليه إذ
سأله عن أسباب المعركة وعن الفتى الغر الذي تعدى عليه بالضرب

والاهانة . أجب : ان طغمة من الاشرار الاغرار راموا أن يحولوا
دون رسو الزورق الذي أعدته لكي تعبر والدتي به النهر على الشاطئ .
يبتغون بذلك المرور قبلنا فأفهمتهم ان تقدمنا عليهم حق ثابت لنا ،
وبينا كنت ماضياً في حديثي اذا بفتي شرير توأب عليّ فصرع كلبي
ديكر ثم . . . ولكن قسماً برأس والدي الاوزرسي الذي طالما أكرم
هذا الحيوان الامين الشريف أنه لو لم تقف بيني وذلك الفتى المغرور امرأة
قالت انها ابنة رعمسيس ، ولولا أنها بهذا الاعتراض منعتني من الانتقام
لنفسى لكانت التماسيح الآن تتأب في قاع النيل جثة ذلك الغرّ الذي
يخيل لي انه راميري المنبوذ منذ أمس من مدارسكم نبذ النواة .

فلما سمع متولى الصيد والقنص هذا القول قال : قف مكانك
ياحضرة الموهار فلست أنت بالمثل حتى تخبط في حديثك خبط عشواء .
كيف تجراً عليّ ثلب ابناء رعمسيس والنيل من كرامتهم بمثل هذا
التلبيس ؟ وكان بعض الضباط الحاضرين من الموالين للاسرة المالكة
قد ساءم سماع هذا الافتراء ، فال أميني عليّ بما كر وسارّه أن يلزم
الصمت ثم قال بصوت جهير مخاطباً متولى أمور الصيد : بدا من خلطك
في كلامك وعدم تدبرك مصائره ما أوقع في روعي انك مصاب بحمى .
تعال يا جاجابو لنفحص جرح بما كر ولنقرر ما يحتاجه من علاج . . .
أرى في الاعتداء من أمير كراميري ما يحط من كرامة المعتدى عليه
ويزرى بشرفه . فأخذ جاجابو يد بما كر وبعد أن نزع عنها ما حولها
من الضماد صاح : ربا . . . لقد كانت الضربة شديدة تكسرت بسببها

عظام ثلاثة أصابع . . انظر يا بما كر زمردة خاتمك . .
ما ألقى بما كر نظره على الجرح حتى ساد على عقله إيمانه بالآوهام
الباطلة ولم يعد يشعر بالألم . وما كاد يوقن أن فص الخاتم قد شدخ ،
وهو الفص الذي كان رعمسيس أهدها الى والده لا الذي أهدها اليه
تحتوس الثالث حتى زفر زفرة الاغتباط والرضاء وأحس بالهموم وقد انجلى
صدأها عن صدره . وزاد اغتباطه أن أجزاء الخاتم تطايرت حتى لم يبق
به أثر من كلمة رعمسيس المنقوشة فيه . واضطربت شفقاته بعد ذلك
وسمع هاتفاً يقول له : لقد رسمت الآلهة لك الخطة التي يجب عليك
اتباعها ، لأنه وقد انمحي اسم الملك من الفص وذهب هباء فلا بد أن
يخسر صولجان الملك . قال جاجابو : يحزنني بل ويكمدني أن يضع الفص
دون اليد التي كانت تتحلى به . . ولكن حمداً للآلهة أن جعلت الاصابة
باليدي اليسرى . . والذي أراه انسب بحالك الكف عن الشراب والبحث
عن نبسشت فإنه هو الذي يستطيع دون سواه معالجتك واعادة العظام
المرضوضه الى مواضعها طبقاً لقواعد العلم ، فهم بما كر بالانصراف
واعداً الكاهن الاعظم والوالى بالعودة نهارةً لمقابلتهما . وما كاد الباب
يغلق من خلفه حتى قال أمين صندوق الهيكل وكان يشيمه بنظره :
لقد لقي الموهار اليوم من شؤم طالعه ما ينبغي أن يكون له العظة
الزاجرة . وهو ما زال مصرًا على ارادة الجهل بها حتى الآن وهو أن
المرء في اختلاطه بالناس واحتكاكه بهم ينبغي أن يعاملهم بغير ما يعامل
به الجنود في المعسكر . وان تأذنوا لي فأني أقص عليكم حادثة وقعت له

ليس فيها ما يرتاح له الفؤاد أو يثلج منه الصدر . فصاح المدعوون جميعاً :
نعم ! نعم ! هات ما عندك هات . قال أمين الصندوق : أتعرفون الشيخ
سبني ؟ . . هذا الرجل المعروف بثروته الواسعة تبرع للفقراء بكل ما
تملكه يمينه ، لأن أولاده السبعة لبوا نداء الآلهة وهم في مقتبل العمر
إماني ميدان القتال وإما حتف أنوفهم بمختلف الامراض . ولم يحتفظ
لنفسه من تلك الثروة الطائلة بغير حديقة وبيت صغير . يعتقد هذا
الشيخ ان الآلهة دعوا ابناءه الى السماء فلبوا دعوتهم فرحين مستبشرين
وانه لم يبق عليه بعد مفارقتهم إلا اسعاف المنكوبين ومواساة
البائسين ومراعاة أوامر الدين القاصية باطعام الجائعين وارواء العاطشين
وكسو العرايا والمقرورين . ولقد استنزف في هذا السبيل كل ثروته فلم
يبق عنده منها ما يدفع عادية الجوع والعطش وطوارئ الجوع عن
نفسه ، وهو لذلك ما برح يقطع أقطار المدينة ويجوب أنحاءها جائعاً
عاطشاً عارياً يستندى أكف السابلة ، فان تصدقوا عليه بشيء بذله للفقراء
كيلا تنقطع عنهم سلسلة احسانه . وقد عرف الناس منه هذه الشيم
العالية فترام يتسابقون الى الصدقة عليه ، وشهدته اليوم حاملاً زقه
يسأل المارة احساناً ناظراً اليهم بعين الاتهال وخص بالسؤال من بينهم
بما كره ، فسرعان ما نأى عنه بجانبه وصاح فيه قائلاً : اليك عنى . .
واخساً لا تتعلق بأذيالي . ولكن الشيخ لم يعبأ بهذه الالهانة بل اقتفى
أثره طمعاً في احسانه وألحف في السؤال ، فدار بما كره على كعبه وضربه
بسوطه ضرباً مسرفاً وقال : ما هي الصدقة التي تلح في طلبها . فنلقى

الشيخ الضرب بالاحتمال والتجلد ومدّ يده بالزق الى بما كر وقال له
وهو يذرف الدمع غزيراً من عينيه : إذا كان ضربك اياي نصيبي من
صدقتك فأين نصيب الفقراء . .

وكنت ساعتئذ ماراً بجوار بما كر فرأيتَه يتسلل كالخرباء حتى دخل
كهفاً معداً لِحِثِّ الاموات . فاعتصمت والدته البائسة فرصة اختفائه
فأفرغت مامعها من النقود في زق سيني . فالحمها الناس مقبلة على الصدقة
حتى سارعوا الى الاقتداء بها في التصديق عليه ، إذ بسطوا له الأيدي
بالاحسان اليه فاجتمع عنده من الصدقات والمبرات ما لم يخطر له ببال .
وكان الجالسون الى المائدة مقبلين على سماع هذا الحديث بطيب
نفس لان الانسان مفطور على حب سماع الذم فيمن شهروا بالتجبر
والصلف والطموح الى ما لا يناسب حالهم من المعالي وشرائف الرتب .
وكان اميني وآني في أثناء ذلك يتناجيان اذ كان الأول يقول للثاني :
لقد شهدت بنت أنات الاحتفال من بدئه الى نهايته . قال اميني : لعلها
كانت تود أن تتحين الفرصة للقاء الكاهن الذي شملته برعايتك . قال
اميني : لا بأس من سؤال بنطاور عن هذه الامور . قال آني : ارى
في الظروف الحاضرة ان استدعاء الشهود لسماع أقوالهم تدبير سابق
لأوانه . قال اميني : وهل أنت بحاجة الى شهود وقد عهدت في شاعرنا
الصراحة والصدق ولو أحرقة الصدق بنار الوعيد . قال آني باسمي :
لنبرح هذا المكان فآني احب ان اراه في متنازع بين الصدق والانكار . .
وهل نسيت يا صديقي ان للمرأة في هذه الحادثة ضلعاً ؟ قال : صدقت فان

الحوادث بلا نساء كالطعام بلا ملح .

ثم دعا اليه جاجابو وعهد اليه برياسة المأدبة بالنيابة عنه ووصاه
بمعاملة المدعويين ونحريضهم على الشراب ومنعهم عن الخوض في أحاديث
الملك أو الحكومة أو الحرب ثم قال له : ولا يذهب عليك أننا اليوم
في قوم من الاجانب وان النبيذ فاضح للاسرار هاتك للستار، وأن أس
التدبير أن يتلفت الانسان يمنة ويسرة في كل خطوة يخطوها ليتقي
شروور من يترسمون اثره لتسمع ما يقول وتربص السوء به ، فلا تنس
هذا ولا يبرحن عن بالك !

فضرب آني بكفه كتف الكاهن أميني كما يمزح الصاحب مع
صاحبه وقال : أما أن المدعويين سيستنزفون في هذه الليلة ما ادخرته من
النبيذ العتيق فهذا ما لا خلاف فيه . ولقد اتصل بي أنك لا تهتم بأمر
الشراب وأنك لا تفرق بين الكأس ممتلئة بالشراب والقدر فارغاً
منه . ولكني انصح اليك اذا طاب لك الشراب ان تطلب من تابع
ذلك الواقف هناك ليملاً قدحك بنبيذ بيلوس^(١) فانه خير الانبذة طمها
ولونا على الاطلاق .

وكان مما جرت به عادة أميني ان يبرح مائدة الطعام عند ما يهيم
القوم بالشراب . فلما ترك مع آني بهو الاحتفال علت ضوضاء بين
المدعويين وجاء الخدم والحاشية باغصان الازهار يطوقون بها اعناقهم
وتبعهم غيرهم يحملون أباريق الشراب ليملاً وابها الافداح الفارغة وسمعت

(١) بلدة في فينيقية كانت شهيرة في ذلك العهد بكرومها

في أثناء ذلك ألحان موسيقية تهز النفوس لحسن صنعها وصحة تجزئتها،
فأهى الاقتره من الزمن حتى وصلت الى بهو الاحتفال جوقة من
الموسيقار يصدحون بالانغام المطربة وفي طليعتهم رئيسهم موجهوا وجهه
اليهم ضارباً باطراف أصابعه اليمنى على كفه الايسر لوزن الانغام وضبط
الايقاع وأدائه الاداء الصالح في تطابق تام وحسن انسجام، واخذوا
يطوفون حول المدعوين ويواصلون العزف حتى دب الحماس في نفوسهم
فاخذوا ينقرون على اقداحهم البلورية مراعين في الضرب والتلعين موافقة
الموسيقين .

تلايلات وجوه الكهنة عندئذ وأبرقت أسرتهن ومضى الضباط
في المطايبه والتلح بعضهم مع بعض بينما كان جاجابو يشير الى شاب من
خدمة الهيكل فاقبل عليه مكلل الهامة با كليل من الازهار وييده
مومياء صغيرة مذهبة طفق يطوف بها على المدعوين فائتالكل مدعو
« كل مرينا واشرب هنينا » واطرح الهموم ظهريا فعا قريب تصير مثل
هذا^(١) ثم دعا النبي جاجابو بتابع الوالى الذى كان يحمل ابريق نبيذ
يلوس فشرب منه كأسا دهاقا بعد كأس حتى اتشى واتقدت في قلبه نار
الغيرة على آتى فأخذ يطريه ويتبسط في تعداد مناقبه . وكان بين الحضور
كاهن معروف بالوقار وحسن السميت فلما لمبت الخمر المعتقة بعقله خرج عن
أفقه وانطلق لسانه من عقاله فقال: ما أطيب هذا النبيذ وما أجود طعمه
وما أشبهه بالصابون . قال جاجابو : هذا تشبيه غريب في بابه فاخبرنا

(١) اشار هيرودتس الى هذه العادة في الجزء التالى من تاريخه

عن أسبابه . قال الكاهن : ان النبيذ يطهر القلب من أدران الهموم
والا كدار فهو من هذه الجهة كالصابون الذي يطهر الجسم من الاقذار .
قال جاجابو : لله درك أيها الكاهن ولا فض فوك . ثم التفت الى
بقية الكهنة وقال : ليأت كل منكم بمثل سائر وقول معروف في مدح
هذا الشراب والتنويه بحسن أثره ، ثم التفت الى النبي الاول لهيكل
امينوفيس وقال : هات ما عندك هات فانت أول من يشنف سماعنا
بتلك الآيات اليبينات . قال النبي : الحزن سم ترياقه النبيذ . ثم تلاه
المستشار الخالص في معية الملك فقال : لسكل شيء سر وسر النبيذ الفرح
وانبرى امين الاختام بعده فقال : النبيذ يطرد الهم من عتبة البيت
ويوصد دونه الباب . واقتفى اثره حاكم هرمونتيس وكان من
المعمرين فقال : النبيذ ينعش أفئدة الشيوخ ولا يفيد الشباب .

هنا صاحب الحضور : هذا قول مبهم يحتاج الى بيان . فضحك الشيخ
حتى بانث نواجذه وقال : أي بيان تبغون والقول من البداهة بمكان ؟
ألا تدرون أن النبيذ يبعث الهمة والنشاط في نفس الشيخ ويكسب
الشباب أخلاق الصبية ؟ قال جاجابو ملتفتاً للمدعويين الشباب : لا
تنسوا هذا البيان معشر الشبان . ثم قال لرئيس المنجمين : وأنت هات
ما عندك من الامثال . قال : النبيذ سم نافع وشراب يستقل من الرأس
العقل النافع . قال جاجابو ضاحكا : اذا كان الامر كما تقول أيها الصديق
فليس لمثلك أن يخشى عاقبة الايمان فدونك والشراب ! . ثم التفت
الى ضابط الصيد والقنص وسأله : وأنت هات ما عندك من الامثال

قال : ان الكأس تشبه حاقها شفة الحسناء فمن احتساها كان
كمن ارتشف الرضاب من ثمر الاحباب . ثم التفت الى قائد وسأل :
وأنت يا حضرة القائد ؟ أجاب : أود أن يجرى في النيل بدل مائه الدافق
مثل هذا النبيذ وأتمنى أن يضخم جسمي حتى يصبح كأحد تمثالي
أمينوفيس وأن تكون يدي كأس يبلغ ارتفاعها مسلة حاتاسو (١)
لأجرع بها ذلك الشراب وأسكر حتى لا يهمني أحضر عقلي أم غاب .
واذ قد جاد كل منا بما في وطابه من الاقوال فعليك أن تتحفنا أيها
النبي المحترم بما في خزانة ذاكرتك من الحكم والامثال .

رفع جاجابو رأسه رويداً رويداً وأدنى الكأس منه وأخذ يحدق
فيها بنظره مستتباً كما يفعل العاشق المتوله اذا رمق معشوقه الكثير
الصد ، وبعد أن شرب منها متمهلاً أرسل الى السماء نظرة من نظراته
الحادة كأنه يستنزل وحيا وقال : ان منزلي لا تخولني الهوض بمفروض
الحمد والشكر للآلهة تلقاء ما غمرونا به من جزيل النعم . قال الوالى
آنى وكان داخلا من الباب دون أن يشعر به أحد : أصبت أيها الكاهن
ولو كان لنبيذى لسان لما عجز عن أداء حق الشكر لك تلقاء تنويهك
بذكرة على هذا النسق البديع . فما بلغ صوته الى مسامع الحاضرين حتى
هموا واقفين وقالوا : السلام على الوالى . فسلم عليهم واستأذنهم في
الانصراف ، ثم قال : أدعو الى تناول الطعام غدا كل من طاب له

(١) هي المسلة التي ما زالت قائمة في هيكل السكرنك ويبلغ علوها ٢٣ مترا . ويبلغ ارتفاع
المسلة التي نقلت من الاقصر الى باريس واقامت بها في ميدان الكونكوردي ٣٢ مترا

تعاطي هذا النبيذ حتى اذا سره شرابه في الغد كما سره اليوم فتحت له باب داري في كل مساء ليتعاطى ماشاء من الشراب . وليكن خير وافد وأكرم ضيف وأجدر بالاكرام والترحاب .

ما كاد يتم آتى هذه الكلمات حتى دوت أركان المكان بالتصفيق وصيحات السرور وتضاعف دوي الهتاف له حينما دنا من الباب وشيعته الافئدة والالباب . ولبت المدعوون في تعاطى شراب وهرج واضطراب ولم يزيلوا مكانهم الا بعد أن تنفس الصباح وكلل هامات الجبال بتاج لجيني من ضيائه المتألق . وكانت العادة في مثل هذه الظروف أن السواد الاعظم من المدعوين يقيمهم العبيد من الجانبين أو يحملونهم من الذراعين والقدمين ليضعوهم في المحفات ثم يسرون بهم الى دورهم شتى وزرافات ، ولكن الكاهن الاعظم أمر بأعداد الأسرة لم داخل الهيكل لهبوب العواصف المريعة وهياج عناصر الطبيعة .

وبينا كان المدعوون مقبلين على الشراب لا يكفون عن الضحك والاسترسال في التطايب والمالحة بلطيف النكات . كان الشاعر بنطاور في غيابة السجن جائياً على ركبته باسطاً الى السماء كفيه لا يفتر عن الدعاء والصلاة ، وقد تجرد لها حتى لم يشعر بالرسول الذي أنفذه الكاهن الاعظم يستدعيه اليه ليستجوبه في حضرة الوالى عن حوادث اليوم الماضي . ذلك لأن بنطاور كان يجمل حقيقة الحب ومقدار سلطانه على القلب فاصبح من نفسه في حرب عوان إذ كان تارة يتغلب عليه بقوة الاقتناع وطورا يندل له بما فطر عليه من الميل وسرعة الاندفاع . وكانت

عادته في كل مساء قبل الاستسلام الى الراحة من العناء أن يعرض على ضميره صحيفة سلوكه وأعماله في اليوم الماضي ويحاسب نفسه حساباً صيرياً ويوازن بين حسناته وسيئاته ، فانخفت موازينه ولو بمشقال ذرة انحى عليها باللائمة . ولكنه في تلك الليلة لم ينظر أمامه غير الظلام الحالك ولم يوجه الى ضميره كلمة لوم قارص ولم يمثل لخاطره غير صورة خيالية واحدة هي صورة بنت أنات التي كانت تتجلى له في أجمل المظاهر فتسلبه المشاعر وتحيطه بسياج متين لا منفذ فيه للخلاص .

وزاده اضطراباً وحيرة في تلك الليلة انه لم يعتد على أحد بالضرب من قبل ولم يسفك قط دماً فاخذ يقرع نفسه على سوء فعلها ودبت الوسوس في ضميره . ولكنه كان كلما استمكنت هذه الخيالات من نفسه أحس بالجنادة الموكلين بحفظ الأمن يهرون بأيديهم الجافية على ناصية وردة ولمح كأن بنت أنات تحديق فيه النظر تستحثه على انقاذ الفتاة وتستنهضه الى تخليصها من أيدي الظالمين فلا يسهه الا تلبية نداءها بالمبادرة لتنفيذ طلبها . وكان يخيل له في أثناء ذلك أنه يراها تتابع حركاته بنظرها فتبت فيه الاقدام على القيام بالمهمة الخطيرة التي عهدتها اليه . وما كان له ان يتخلى عن تنفيذ أوامرها لأنه كان فضلاً عن انصياعه لميوله القلبية يشعر بأن ما عمله يطابق الواجب تمام الانطباق وأنه لا لوم عليه ولا تريب على الاطلاق .

على أنه ما نشب أن تبين مما مر به من الحوادث أن مستقبله في الحياة قد أخذ سبيلاً أخرى أجدر بالاعتبار وأحرى . . ألم يخالف

التقاليد التي رسمتها عليه النصوص الكهنوتية . . ألم يرسخ في عقيدته أن التقيد بالقيود السابقة وحصر النفس في دائرتها الضيقة أصبح مستحيلاً، وان توافرت في هذه الدائرة أسباب الراحة والهناء والبعد عن المهرج والضوضاء . . .

لما عبثت به بلجات الحيرة وقذفته على ساحل الشكوك والريب مديد الضراعة والابتهال الى الاله الواحد ذى الجلال أن يكلاه بعين رعايته ويسبل عليه ستر حمايته، ثم خلق بأجنحة الفكر في سماء الهداية والنس من والدته التقية الرحيمة أن تشد أزره في التماس الطمانينة لقلبه والراحة لضميره والقناعة بحاله، غير أن اخلاصه في التوكل لم يعصمه من الوقوع فيما قدر له منذ الازل. لانه كان كلما بالغ في الانابة والطاعة وبذل في ذلك جهد الاستطاعة شعر في نفسه بدافع لا يقوى على رده يلقي به في تيار لا غاية له من الاماني والآمال. ثم يتولاه الذهول فيقع في وهدة اليأس من الرشد والقنوط من الهداية الى سبيل الصواب يضرب صدره اسفاً وحسرة معتقداً انه ارتكب جرماً لا يغتفر وذنباً لا شفاعه فيه وعضاً أنامله حزناً وندماً.

كان بنظاؤور في هذا النزاع الشديد بين اهوائه النفسية ووازع الضمير حينما وفد عليه رسول الكاهن الاعظم. فلما وقف على مهمته قام من فوره تلوح عليه علامات البشر والاعتباط لا علامات الخوف أو الامتعاض. فلما صار في حضرته روى عليه الحوادث بتفاصيلها وشرح كيف انه نازل طفمة الاغتمام ثم وصف الخطر الذي أحدق بوردة من

تعديهم عليها وتضاهيهم على الفتك بها حتى اضطر الى الاقدام على حمايتها ،
وذكر ما كان من جهاده في ذلك حتى تمكن من خلاصها وفاز هو بالنجاة
من أيدي أولئك الطغاة .

فقال أميني : ولكن أجهلت انك للوصول الى هذه الغاية قتلت
أربع انفس مما حرمت الآلهة قتله وجرحت ضعف هذا العدد من
انفس اخرى ؟ وما الذي عاقبك عن مكاشفة القوم بأمرك وانك من
الكهان ليكفوا في الحال عن العدوان . . لم لم تحبرم بأنك أنت الذي
قام فيهم خطيباً فخطب اليابهم ببلاغته وملك أفئدتهم بفصاحته . . لم لم
تجتهد في تسكين الخواطر النائرة بما اشتهر عنك من شدة التأثير في
الحث وقوة الحججة في الاقناع . . لم عدلت عن هذه الوسائل كلها مؤثراً
عليها القوة الجائرة ؟ أجاب بنطاور : لم أكن ساعتئذ في أمساحي
الكهنوتية . قال اميني : هذه غلطة فوق تلك الغلطات وذنب جاء
ضغناً على إبالة تلك الذنوب . . أنسيت أن القوانين تحرم عليك مبارحة
الهيكل في غير شوار الكهان المعروف بلونه الابيض من قديم الزمان . .
أتنكر أنك لو كنت على الاقل لابساً ثياب العمل لكفت كلمة منك لصد
المعتدين أم كنت تجهل ما خولته من نفوذ الكلمة بين افراد الامة ؟
قال بنطاور : لا أنكر أنه كان باستطاعتي ان أصد الناس عن
التعدي لو لبست ذلك اللباس ولسكنهم كانوا قد تدفموا في تيار الغضب
والانتقام فلم ينفع معهم غير اقتضاء الحسام ، على أني لم أجد من الوقت
ساعتئذ فسحة للتفكير في ذلك الامر ، لاسيما وقد رأيت أحد المهمل

للتشردين قد انقضت على الفتاة المسكينة كالذئب الخاطف وجذبها من
شعرها فلم أملك من الاندفاع لانقاذها غير مفكر في أنه ربما عرضت
للموت حياتي ، وسرى في عروقي دم الغيرة والحمية بحيث كان في قدرتي
أن أقتل الف نفس بدون أن احسب حساباً أو أخاف عقاباً .

قال أميني : ارى في عينيك لمع البرق الخاطف ولربما كنت الآن
تعتقد انك جئت بما عجز عنه الاوائل من آيات البسالة في حومة
الوغى . . اما علمت ان الذين جندتهم هم ابناء وطنك البررة وأنهم كانوا
عزلاً من السلاح كما لم يكن معهم من يدفع عنهم السوء ، وأنهم اذا
أستشاطوا غيظاً فها هو الا للغيرة على الدين حيناً رأوا أن الدنس كاد
يلحق به بسبب ذلك الشيخ الدنيء . . من ابن جاءتك تلك الحمية
العسكرية والحماسة الحربية وأنت لم تخرج عن كونك ابن بستانى يتفانى
في خدمة الربوبية في اخلاص وسكون . قال بنطاور : لما رأيت القوم
قد تكاثروا من حولي واني تأهبت للدفاع عن نفسي شعرت في قلبي بما
يشعر به الجندي أو البطل الكمي اذا أحس ضرورة الدفاع عن الراية
التي عهدت حراستها اليه . نعم لم أخرج عن كونى كاهناً وأنى بهذا
الوصف اعترف بذنبي وأكفر عنه بقبول العقوبة عليه دون تدمير ولا
مقاومة . ولقد شعرت بما طرأ على نفسي من العواطف فلم يسعنى الا
العمل بمقتضاها . قال أميني : وتريد بعد هذا أن تكفر عن ذنبك بقبول
العقوبة ! ولكن لم أغفلت في سياق كلامك الحادثة التي ترتبت عليها
نجاتك . . أتريد أن تعلم ما هي . . هي وصول بنت أنات في خلال

تلك الحادثات وتدخلها بين الجموع وهو ما لم يكن منتظر الوقوع . .
وتكذيبك للاميرة أمام القوم بأنها ليست بنت أنات ، مما دل على
معرفتك اياها بالذات وأنتك عمدت انكار ذاتها لغرض في نفسك . .
فجاوب على هذه الهم جواب أيا من جعل نصب عينيه الترفع عن سفاسف
الامور ورفع يمينه لواء الحق المشور .

ما طرقت هذه الكلمات أذن بنطاؤور حتى تريب وجهه واكفهر
وشخص بعينه الى آني الذي كان عند سماعه هذه الاسئلة يلزم الصمت
ثم قال : لا أرى مجال القول ذاسمة اذ لسنا هنا بمعزل عن الناس . قال
أميني بفتور : الحقيقة واحدة لا تتعدد وما تريد الاجابة به على سؤالي
يجوز أن يسمعه جناب الوالي ، فهل عرفت بنت أنات وأنها كريمة
فرعون . إن الحق لا ينكره الا الخاسرون . قال بنطاؤور وقد تحبل في أمره
وارتاع : حقا ان المرأة التي انقذتني من الخطر تحاكي بنت أنات ولكن
وجوه الشبه بينهما لم تكن متوافرة في نظري . ولو أني نظرتك وأنت
استاذي ومهذب روحي ومثقف عقلي ، الذي طالما اكرمني ورفع مكاتي
ثم قذف بي من حالق في درك المهانة ، اقول لو اني نظرتك كما نظرت
بنت أنات لعاملتك بما تؤاخذني به بلا وجل ولا تردد . . الم يك من
واجبي إزالة الشبه في نفس الاميرة وصون كرامتها المستمدة من
الالوهية والتي تسمو بها درجات على العناصر البشرية . . الم تهبط من
عرشها الملكي لتنفذ من الخطر رجلا مثلي منحوس الطالع ؟ أما كان
فرصاً محتوما علي بعد ذلك التفاني في حمايتها ودفع الاذي عن ذاتها ؟ . .

قال : أميني لا عجب فأنت فارس الميدان في البلاغة والبيان . ثم
تكلف المسف والتعجير في كلامه وقال : اني أطلبك بأجوبة سهلة
خالية من التعميد . نحن موقنون أن بنت أنات كانت متكررة بزني نساء
العامة ، وقد كاشفت بما كرت بحقيقة أمرها ، وهو الذي أخبرنا بأنها
شهدت الحفلة من أولها الى آخرها وانقذتك من مخالب الخطر .. وهل
كنت تعلم أنها كانت معترمة عبور النيل ؟ .. أجاب بنطاور : ومن
أين لمثلي الاطلاع على مكنونات الصدور ؟ قال أميني : لا ريب أنك
حينما تدخلت في الامر ، كنت تعلم أنها بلا اشتباه ولا تليس فتاة الملك
رعمسيس . أطرق بنطاور رأسه وارتعدت فرائصه ثم قال : نعم كنت
اعتقد أنها هي . قال أميني : ان طردك اياها مع اطلاقك على سرها
والصاقك بها النش والادعاء لنفسها بما ليس فيها لمن الوقاحة والجرأة
بمكان . قال بنطاور : لست أنكر هذا الفعل الا اني رأيتها جازفت
بكرامة والدها اذ تقدمت لانقاذي من الخطر ، فأحييت أن أفدى
هذه الكرامة بحياتي وحررتي وسمعتي . قال أميني : كفي ، كفي .. قال
آني : وماذا تم في أمر الفتاة التي أنقذتها ؟ أجاب بنطاور : اخذتها
الساحرة نيخت الى مفارقتها كما اخذت جدتها زوجة الشيخ بينم .

انتهي الاستجواب هنا فأعيد بنطاور الى سجن الهيكل وما كاد
يتوارى عن العيان حتى قال الوالى : حق لنا أن نخشى هذا الرجل لما
بيديه من التعجير لجانب رعمسيس . قال أميني باسمنا : بل لجانب كريمته
بنت أنات . . ان تشيعه اليها هو ما يخشى منه ، وأما ميوله فيما بقي من

احواله فأنا من أعرف الناس بها . قال الوالى : ولكن راعى منه
جمال منظره وسعة مخبره وطلاقة لسانه وثبت جنانه . . انى أريد سجنه
عندى لانه قتل واحدا من جندى . فعبس وجه أمينى وقال بتؤدة : إن
لهيئة الكهان وحدها الحق فى محاكمة الخارجين عن القوانين من رجال
الدين . وهو امتياز ممنوح لها ، فكيف تطالبنى بذلك وانت باعتبار
كونك مليكنا والقابض فى المستقبل على زمام امورنا أقسمت بالمحافظة
على هذا الامتياز ، لاسيما وقد نصبنا انفسنا للدفاع عن حقوقك المقدسة ؟
فتبسم آنى وطمان الكاهن الاعظم قائلا : سأستبقي امتيازاتكم مصونة
دائما ولكنى ارى الخطر سيهددنا بهذا الرجل فملت الى الصرامة فى
معاقبته . قال أمينى : أما الصرامة فهى ما لا بد منه ولكن ليس لاحد
سوانا أن يحاسبه على ما قدمت يداه . قال آنى محتدما غيظا : ارتكب
الرجل جريمة القتل بسفكه دم أربعة انفس كان حراما قتلها بغير الحق
فهو لعقوبة الاعدام مستحق . قال الكاهن الاعظم : متفق معك على
أنه قتل أكثر من واحد ولكنه كان فيما اجترمه مسوقا بحقه فى الدفاع
عن نفسه . ولست أرى ما يدعو الى التفريط فى حياة شاب أفاضت
عليه الآلهة اسمى المواهب ؛ لمجرد انه لم يجد سوى التجبر مركبا فركبه
فى ظروف غير ملائمة . وانه ليسلوح لى من اقوالك وحركاتك أنك
تضمر له الحقد ، وهو ما يحملنى على الريبة فى نيتك نحوه ويدعونى الى
الخوف على حياته منك فمدنى عدة صادقة إن كنت لى محالفاً ولشروعى
مؤازرا الا تقدر به . فتبسم الوالى وقال : أعدك هذه العدة . ثم مد

يمينه مصافحاً ، فقال الكاهن الاعظم : أشكر لك هذه المنة . . ان
بظاؤرمقدم على تلاميذى كلهم وهو أحقهم باحترامي ومحبتى رغم
غلطاته المتكررة ، وأفشدك الحق ، أما لحظت وقما كان يشرح لنا
اسباب منازلته القوم تلك الشائيل التي كان يتجلى فيها فلا يسمع الناظر
اليه معها الا القول بأنه آسا أو ابنه الموهار السابق الوالد الاوزريسي
لبماكر رئيس الطلائع ؟ . .

قال آنى : لا بد مع توافر الشبه بينهما ان يكون وضع الاصل
خامل الذكر . . والى أى أصل تمت والدته ؟ . . أجاب أمينى : أمه زوجة
بواب الهيكل وهي معروفة بحسن الخلق وسلاسة الطبع ولين العريكة .
قال آنى بعد أن أطرق رأسه مفكراً : انى عائد فوراً الى المدعوين
ولكن لى عندك حاجة اروم قضاءها . ذلك أنى كنت اشرت الى سر
يجعل بماكر فى قبضتنا وآلة فى يدنا . واذ كان لا يعرف هذا السر
سوى ساحرة آوت وردة عندها فن صواب الرأى استدعاؤها هنا
لاستجوابها فى امور أروم تحقيقها بشرط الا يصرف هذا الامر الخواطر
الى مشروعنا . فوعده أمينى بقضاء هذه الحاجة اذا بادر بانفاذ الجند
ليأتوا بالعجوز وأمر أحد أعوانه باعداد قاعة الجلسات وإضاءتها
بالانوار الساطعات ووضع كرسي له فى الحجره المجاورة لها ليتسمع من
وراء الباب ما يدور بين الوالى وبينها من السؤال والجواب .



الفصل الخامس

— ييكي احدى حسان طيبة الفاتنات و ليلة التجليات —

بيننا كان ضيوف بيت سبتى يعاقر بعضهم ابنة العنب ويدبر
البعض الآخر الدسائس على ما يوافق أطماع الوالى ، وبيننا كان أحراس
الكاهن الاعظم يقطعون وادى المقابر ركضاً على الاقدام فى طلب
الساحرة ، هبت فى وادى النيل ربح عاصفة اقترنت من ناحية الجنوب
الغربى بريح السهائم التى كانت تطارد أمامها سحباً قائمة اللون وتثير رملا
أسود فتدروه فى جميع الأنحاء وتلوى أشجار النخل العظام فتجعلها
كالقوس اذا أرسلت منه السهام ، وتقوض أعمدة الخيام وتقذف فى
واسع الفضاء قماشها فيبدو كالخيال الايض فى حالك الظلام ، ثم تصدم
وجه النيل فبعد ان يكون فى استواء المرآة يضطرب كالبحر الخضم
فيلتمس راكبوه النجاة ، وتصطدم موجاته صفافه بالتواتر كصفوف
جيش انتضي جنده من السلاح كل حسام بآر .

وكان بما كرا نثذ فى زورقه فأخذ يحث النوتية على بذل الجهود
لبلوغ الضفة الاخرى . وكثيراً ما أشرف الزورق على الفرق ولكنه
تلافى الخطر مذ قبض على الدفة وسير الزورق بنفسه حتى وصل فى أمان
الى الضفة الاخرى . وكانت الرياح لشدها أطفأت المصابيح المعلقة
باطراف الادقال ايذاناً بالرجوع ، فلما هبط بما كرا البر من الزورق

لم يجد بانتظاره أحدا من الخدم وحملة المشاعل فاضطر الى اختراق الطريق
الموصل الى بيته في حالك الظلام تميت به الرياح المحرقة وأسفى على
وجهه الرمال وتثير العثير . وكان اذا صار على مقربة من داره وسمع
البواب بناح كلبه بادره ، وقد أيقن أنه عاد ، بفتح الباب وقابله بالترحاب
غير أنه لما قتل الكلاب اضطر النوتية الذين صحبوه لحراسته ومؤانسته
في وحشة الطريق الى طرق الباب ولبثوا بطرقونه بكل ما أوتوا من
قوة زمتا طويلا فتنبه البواب من نومه وهم بفتحه خائفا مذعورا .

وكان صحن الدار حالك الظلام لأن المصابيح كانت اطفأتها
الرياح ولم يكن بها كلها غرفة مضاعة سوى مخدع ستغيم . فلما أحست
الكلاب همسه هو ومن صحبه من الاحراس عوت عواء طويلا فانتفض
لسماعه صدر بما كر اذ لم يتبين في هذا العواء هري ركلبه المحبوب .
ولشد ما تألم قلبه وكسف باله لما أبلغ الشيخ الحبشي القائم على حراسة
مخدعه قتل كلبه ، فبث أنين الحزن والشجو ، لأنه كان شريكه في الحياة
وقسيمه في السراء والضراء . وتقلب اليأس على بعا كر فالقى بنفسه
على كرسي وسأل الحبشي ماء باردا يضع فيه يده الجريحة عملا بأشارة
الطبيب نبسشت . فلما شهدها الخادم الامين والدم يسيل منها صاح
صيحة الجزع سائلا : من الذى حركك وقتل كلبك ؟ أما زال هذا
المجرم القادر على قيد الحياة ؟ فأوما بعا كر بإمحاء الايجاب ثم أطرق
رأسه وعجل بوضع يده في ركوة ماء جاء أحد الخدم بها خلال ذلك
الحديث .

وكان بما كرم يحس بضعف في قوته وانحطاط في مكانته وجرح
في عزته . وكان يود أن لو تنشق مياه النيل كالأخدود فتبتلمه أو يمود
طفلاً ليسترسل في البكاء دون أن يلومه لأم . واتجه خاطره بمد ذلك
صوب غاية أخرى واشتد خفقان قلبه وجهضت عيناه وازداد تقلبهما
في حجاجيهما كما يفعل الذي به طائف من الجنون . وكانت نفسه ساعتئذ
متأثرة بعامل التشفى والانتقام واردة السوء لمن صبوا عليه جام الرزايا
والآلام . ولقد بدا بمد من أمره أنه اطرح الهوى ولم يتخذه شفيماً
لدى من جنوا عليه ، وظل تنتابه الهواجس ردهاً من الزمن ثم قال :
أيأشأفة رعمسيس لسوف استأصلك وأمحوك من الوجود فلا يبقى لك من
أثر . وسأعمل معاول الهدم والاستئصال في حاشيته المقربين فلا يكون
فرق في الاندثار بين الملك في سماء المجد والعلياء ومينا والامراء الذين
أخذتهم الكبرياء .. لا بد لي من إبادتهم جميعاً والتعفية على آثارهم . واني
لعالم بالسبيل الى تحقيق هذه الامنية فصبراً صبراً ، وما انتهى من مناجاة
نفسه بهذا الكلام ورفع يده كمن تأخذه حدة الغضب فيهم بضرب
من حوله انفتح باب الغرفة ، واذا بستخم داخله تسير على مهل . ولم يكن
بما كرم سمع لها همساً حينما اقبلت على مخدعه لشدة قصف الرعود وعصف
العواصف فرأته وهو في ذلك الوضع الغريب ، قدنت منه وصاحت
باسمه وقد تولها الذعر اذ كان ما خمنته أنه أحابه من الشيطان مس .
فما أبصر بوالدته حتى أرعد ولكنه تكلف السكون وضبط النفس وقال :
يا والدتي ها أنت ذه ا لقد أوشك الصباح ان يسفر وينتشر ضياؤه في

الخافقين . وهي ساعة ما حيلى النوم فيها ، فلم جئت هنا ؟ أجابت : اعتراني
سهاد لان الرياح اشتد عصفها فنخيل لى انها تدك جدران الدار دكا
وصرت من الفزع فى حالة لا يمانلها الاحالى يوم توفى ابوك . قال
مشفقاً : أفضل أن تبقى هنا وتنامى فى فراشي . قالت : لم آت هنا للنوم
بل لما وقع بصفة النهر فانه ألقى فى فؤادى الهلع والقلق . وليس هذا
لانك اصبت فى يدك بجرح بالغ ولا لما تعانیه الآن من الآلام بل
لانك سلكت مع ابن الملك مسلكا يستثير عليك غضبه ونقمته . . لا
يفوتنى أن جلالته لا يحبك كما كان يحب والدك بل يمتك المقت كله ،
ولذا ترانى على خوف من أن يفتك بك . ثم انى لم أفهم معنى لضحكك
الذى سمعته . . ونبراته بلياتها وعطفاتها ومداتها تدل على خبث الطوية
وقصد السوء . . وما رأيتك عليه من الاوضاع الشاذة . . أفلا يكفى
أن يملاً قلبى رعباً وترتمد له فرائضى فزعاً ؟ .

لزم بعاكر ووالدته الصمت بحيث كان يتوهم الناظر اليهما أن
قصف الروع قد استرعى سمعهما فأصاخا اليه . ولقد ظلا فى هذا
الوضع الجامد زمناً قالت بعده ستخم : أحس بعاطفة غريبة تملكنى
هى غير التى تظن انى متأثرة الآن بها . . ما برحت أفكارى متولية
شطر ذلك الشاب بنطاؤور الذى خطب الناس فبهرم بفصاحته وعواطفى
نزاعة اليه لأنى أرى قرائن الشبه متوافرة بينه ووالدك يوم خطبنى
من أهلى . . وجوه الشبه بينهما تحملنى على الاعتقاد بأن الآلهة لما
دعوا اليهم المرحوم زوجى قضت ارادتهم الناقذة بان تبقى على وجه

الارض صورة حية من ذلك الاصل المريق المليح . قال الشيخ الحبشى :
أصبت . . . انى أرى بين سيدى المرحوم وشاعر القوم قرائن شبه
كثيرة . ولقد أمعت فيه النظر أمام بيت المحنط وهو ينازل المتعدين
عليه فشمت فيه الشهامة ، وكان يرفع يده واحدة همود الخيمة ويجيله بها
كما كان سيدى المرحوم آسا إذا نزل فى حومة الوغى يشهر سيفه
ويخطر به بين الاعداء . وما سمع بما كر هذه الآراء حتى اندفع يقول :
دعك من هذا الهذي يا مجنون ، أين وجه الشبه بين واحد من الكهان
ووالدى زعيم الشجعان ؟ ولو أن هناك جامعة شبه تربطها لما منعى ذلك
من المضي فى أخذ الثأر ممن سبني وبوقاحتى غلبنى . قالت ستخم : ولم
هذا المناد وهذه البغضاء وكيف لا تقتدى بأبيك فى خلاله الشماء ؟
أتكره التشبه به فى اكرام الاشباه واحترام النظراء ؟ قال بما كر :
وهل يحبني هؤلاء الاشباه حتى أحبهم ؟ . . قد بلغ من نكد طالعى ان
يعارض الآلهة انفسهم رغائبي ويما كسوا مطالبى ويلقون المعائر فى طريقى
وأنا أنا الذى يوافيهم بالهدايا والقربان فى كل آن . فياللطامة الكبرى
والمصيبة العظمى !!

قالت ستخم : حذار يا بني ! ان زمام أمور العالم بأيدي الآلهة
فلا تطير ريشة فى مهب الريح الا بأذنهم وسابق ارادتهم . وقد كان
المرحوم ابوك على هذا الاعتقاد يجهر به فى كل محفل وناد ، ولكن
ما أعظم الفرق بينك وبينه فى محاسن الاخلاق وتصوير الخلاق ؟ . .
قد امتلأ قلبي ذعراً منذ رأيتك تقذف من فيك شواظ الشتائم الفاضحة

على ولي نعمتك ومنفق الخيرات على والدك من قبلك ، أميرك المبجل
رعمسيس . قال بما كر : اصبغ هذا الملك الد خصومي وسوف تسمعين
عنه ما هو أجدر من الشتائم بالاهتمام بل وسوف يعلم ابناؤه ان ابنك
وابن المرحوم زوجك لا يتذلل لأحد ولا يصبر على الهوان والضميم ،
بل ينتقم شر الانتقام ممن يريدونه بالأساءة أو يقصدونه بالحطة
والدناءة . . ان صدري لينشرح سروراً لو رأيت تلك الذرية القذرة
تتلوى حول قدمي . فصاحت ستخم وقد طار لها : انك لعتل ذميم
وخائن أثيم . . نعم لست الا امرأة ضعيفة الحول ولكنني أقسم بطاعتي
لايك واجلالى لسيرته لأسلبك نعمة حبي وعطفي إن لم . . آه لقد
رأيت . . لقد فهمت . . لقد علمت . . أجبنى أيها الجاني الاثيم أين السبعة
السهام التي كانت معلقة هنا ؟

ما كادت ستخم تفوه بهذه الجملة حتى ألقت بنفسها على بما كر
فتراجع الى الخلف كما كان يفعل في طفولته إذا سقط في هفوة ، وهمت
والدته بمقابه فافتفت أثره حتى أدركته وجذبتة من نطاقه . ثم كررت
عليه صائحة ذلك السؤال ، فاضطرب حنقاً وحنقاً لا خوفاً من والدته
واحتراما . ثم قال : أما السهام فما برحت في كنانتي وها هي ، على أنني ما
زلت مصراً على رشقها في كبد عدوى وسوف تقفين قريباً على حقيقة
كل شيء . .

وقاضت العبرات من عيني ستخم وثارَت نفسها فرفعت يدها
ثانياً في وجه بما كر الذي لم يمالك أن دفعها بعيداً عنه قائلاً : اعلمي

لست أيتها السيدة طفلا وإنما أنا رجل ولى وحدى هنا الكلمة
والامر . لا مفر لى إذن من تنفيذ ما أردت ولو اقتنى أثرى مائة امرأة
مثلك يعولن خلفي أو يعوين كالكلاب المسعورة . قال هذا وأشار الى
الباب يريد بذلك صرفها من حجرته ، فطفقت ستخم تبكى وتنتحب
حتى إذا بلغت الى الباب وقفت ثم أجمت النظر فى داخلها وكان بما كر
جالسا فى كرسي معتمدا رأسه بيديه فصرخت مرارا باسطة يديها نحوه
وقائلة : لا ينعنى مانع من ان اضمك الى صدرى إذا عدلت عن نياتك
الخيثة ومشاريعك الشيطانية .

هز بما كر رأسه إيماء الى الرفض فتولى الأم من جراء هذا
العقوق يأس شديد وأرخت ذراعها وقبضت كفها ثم قالت منتحبة :
أتذكر يا ولدى ما جاء فى الكتابات المقدسة من الاوامر والنواهي التى
لقنك إياها والدك فى صغرك . . فقد جاء فيها « اعتبر طاعتك لو الدتك
جزاء لها على صنيعتها لك بالقيام على تربيتك ولا تلجئها بسبيك الى
بسط يديها بالدعاء عليك واسلك معها مسلكا يحجب عن السموات
صعود شكواها اليها » (١)

ما طرقت هذه الكلمات أذن بما كر حتى أخذت وينتحب ولكنه
لم يبرح مكانه ولم يتكلم بكلمة . فصاحت ستخم باسمه مرة أخرى وكان
صوتها يدل بنبراته الناعمة على ما يخالج فؤادها من عواطف الحنان
والرفق ، فلبث ساكتا ساكتا كأنه لم يسمع نداءها . وكانت فى خلال

(١) هذه التعاليم تتضمنها الورقة الرابعة من أوراق البردى المحفوظة بالمتحف المصرى

ذلك قد لمحت الكنانة بين اسلحة أخرى فانقبض صدرها وتردد وجهها
وقالت بصوت منهدج : لست ارضى لك المضي مع هوى النفس فيما
تروم من الانتقام .. أسمعت قولي .. أعولت على اتباعه .. لم لا
تجاوبني .. لقد ضقت ذرعا أيها الناس فخلصوني من شر هذه المحنة ؛
وبعد هنية انقضت على الكنانة فاستلت منها سهماً همت
بكسره فوثب بما كر عليها من مكانه واستخلص السهم بعنف من يدها ،
فأصاب نصله ذراعها فسال الدم منه دافقاً على جسمها . وقد أحست
الالم ورأت الدم متقطراً فتولاهما خوف شديد ، لأنها كانت تكره سفك
الدماء ، ثم قالت بصوت خافت : ان هذه اليد التي سفكت دمها عليها
عهد الآلهة وميثاقها الا تلامس يدك ما لم تقسم بالايمان المحرجة
لتعدلن عن نية الانتقام وتنبذن ظهرياً هو اجس القتل والاعدام
وتطهرن ضميرك من كل ما يدعو الى تلويت شرف والدك والخط من
مقام أسرتك .

ما سمع بما كر هذه الكلمات حتى جثا على ركبتيه متأثر الوجدان
واخذ لوخز الضمير وعقاب السريرة يتلوى كالثعبان ، فأجهدت والدته
نحو الباب اذ وقفت قليلاً دون أن تنبس شفتها بكلمة الا أن توجه
نظرها نحو ابنا ونزوع نفسها اليه جعلها في وضع يخالفها الرأى فيه
أنها تنادى ولدها وهو لا يجاوبها وترجو منه وتبتهل اليه . ولا بد أن قد
أعيتهم معه الحيل فخرجت من الباب الذي انفلق فجأة خلفها بقوة
الرياح التي دفعته .

وكان بعاكر قد فطن لانصراف والدته فأخذ يبكي وينتحب
قائلاً: والدتي! والدتي! .. لأستطيع العدول .. لا يمكنني الرجوع ..
وهنا كف عن الكلام لانه سمع من قصف العواصف ما كاد يصرخ
أذنيه وما لم يمهده نظيراً من قبل وأحس الدار كأنها تنتفض كالصفيرو
بلله القطر، وخيل له أن صخوراً صلبة تساقط من الجو في فناء الدار
فتحدث تلك الرجة التي ارتاع لها قلبه وقام نحو النافذة ونادى بالخدم
يسألهم عن الحادث الجلل فتقدموا اليه فوجأ بعد فوج. وكان في طليعتهم
قيم الدار فقال لمولاه: لقد اقتلعت العاصفة كل الادقال المغروسة امام
الباب الكبير. قال بعاكر: أو ممكن هذا؟ قال القيم: ولاي، هذا
ما حصل، ولا شك عندي في أن الخواص الذي كسرت برقوته قطع
تلك الادقال عند مغارسها في الارض. وإذا حصرت الشبهة فيه فإهو
إلا لاني بحثت عنه في أركان الدار فلم أجده ولعله أركن الى الفرار. قال
بعاكر: أطلق الكلاب في أثره وليطارده من يحسن الركض منكم
ليأخذ الآفاق عليه، ولمن يرجع به فك رقبتة وملء يدي خمس مرات
ذهباً.

كان ضيوف هيكل سيني يلتمسون الراحة بالنوم وقتما ورد على
أميني خبر قدوم الساحرة مع الاعوان الذين انفضهم في طلبها. فقصد
في الحال الى الغرفة التي كان آني ينتظر بها ساعة اللقاء بالمعجوز. وكان
هذا الوالى نهياً للهواجس آنئذ، فلما سمع وقع أقدام أميني وهو مقبل
عليه هب من غفلته وقال فجأة: أوصلت المعجوز؟ أجاب الكاهن

الاعظم : نعم . فأخذ الوالى يسوى شعره المرسل على كتفيه ونظم عقده
الكبير ثم قال : فى قدرة تلك الساحرة أن تلحق بي أذى ، أفلا تمنحني
البركة اتقى بها شر سحرها . . نعم ان معي الطلسمات الواقية من الشرور
كمين هوروس وفتنة ايزيس ، وإنما يحسن من باب النظر فى العواقب
أن . . قال أميني : فى وجودى هنا وقاية لك من شر السحر ، بيد أنى
أعلم من جهة أخرى أنك راغب فى مكاشفة المعجوز بشؤون ليس لى أن
أطلع عليها . والأمثل عندى أن تدخلها الغرفة المنقوشة الجدران بالامثال
المقدسة حتى لا يتسلط سحرها عليك وأبرح هذا المكان طلباً للراحة .
ثم ودعه وأمر كاهناً كان يسير وراءه : جىء بالساحرة الى الغرفة
المقدسة ورش عتبها بالماء قبل أن يتخطاها الوالى .

قصد أميني الى خزانة صغيرة لصيقة بالقاعة المقدسة التى أمر
الكاهن باستقدام الساحرة والوالى اليها ليتمكن وهو جالس بها سماع
ما يدور من الحديث بينهما بواسطة أنابيب وضعت بالجدار فى أوضاع
مديرة بحيث توصل الصوت مفخماً الى أذن المتسمع وإن يكن فى
الحقيقة خافتاً . وما هى إلا فترة قصيرة حتى دخلت الساحرة فتفرغ
آتى لرؤيتها واستطير لبه روعاً من هيئتها . وزاد فى تفرغه أن المرأة
لبست ثياباً رثة بالية وفكت شعورها البيضاء المرسلة الى ما يوازي
منتصف الجبهة واتخذت لها عكازاً تتوكأ عليه . فلما أن وقفت شخصت
فى الوالى بعينها الحمراء بتأثير ما كانت الرياح تسفيه عليهما من الرمال
حتى صارتا كجذوتى النار . وكان الناظر اليها فى هذا الشكل الرهيب لا

يفرق بينها والضعف الذي يتربص بالفريسة فلم يلبث أني حين رآها وسمع قولها وهي تسلم وتعاتب لانه استقدمها في وقت لا يلائمها أن ارتعدت فرائصه فرقا وتوجس منها خيفة واستطردت هي الكلام فانتقلت من العتاب إلى الثناء والشكر تلقاء عدته إياها تجديد الاذن لها ، الى أن قالت ممترفة أنها هي التي وافت بماكر بالماء السحري . ثم أزاحت الشعر عن وجهها فعلم أني آتئذ ان الواقفة أمامه امرأة وكان قبلا في ريبة من أمرها .

كان الوالي جالسا في كرسي والمعجوز واقفة تبدو عليها أمارات التعب والضعف فرجت منه أن يأذن لها بالجلوس قائلة ، إن عندها من جم الاخبار ما يمهده له اتخاذ بما كرا آلة في يده ، فأشار أني الى زاوية من زوايا الغرفة فأنحدرت المعجوز اليها وجلست فيها ولم تنتظر أن يأذن لها بالكلام ، لأنها ما كادت تستقر في مكانها حتى أخذت تناجي نفسها : نعم لا بد لي أن اذيع له ما كان كائنا من أمراري كي يرتاح بذلك ضميري وتهدأ نفسي وأخلص من اعباء المسؤولية ، فليست أحب أن احرم تحنيط جثتي بل أود الاطلاع على حوادث الحياة الاخرى . . أعزني سمعك ا يجب عليك قبل أن أثير لك ما هو كامن في صدري أن تقسم بالآلهة لتدعني وشأني أعيش في سلام وأمان وتباشرن في تحنيط جثتي بعد موتي . . أقسم باليمين والافلست أبوح بشيء .

اقتصر أني في جوابه على ايماءة الرضى بهذا الشرط فاعترضت المعجوز : الايماء في هذا المقام لا يكفي لتوكيد القسم . بل لا بد

أن تجهر في صراحة بصيغة اليمين التي املها الآن عليك وهي : « اذا لم أف لنيخت بوعدى إياها قضاء مرادها في مقابل عملها على أن تجعل الوهار في حوزتى وتلقي بزمامه في قبضتى فللشياطين الخاضعة لمطلق إرادتها والمنفذة لجازم مشيئتها أن تسلبنى نعمة الحياة قبل الصعود الى عرش الملك» .. لا تحفظ على يا مولاي اذا شرطت هذا الشرط فانما بقولك «نعم» تؤكد لهذا اليمين تستغزنى الى سرد حوادث على مسامعك هي لغرابتها أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة، مع أنها الواقع الذي لا اختلاق ولا مین فيه .

قال آنى وقد عيل صبره : أقسم بذلك القسم وأقول «نعم» غير حانت ولا ناكث . عندئذ تمتت المعجوز بكلمات لا تفيد معنى ولا تؤدى الى مراد وظلت ساعة في تأمل واستجماع فكر، ثم اشراأت عنقها فبدأ جيدها ضئيلا يكاد يظنه الرأى اشددة نحوه فقررات عظم مكسوة بالجلد، ثم شخصت فيه بعينها المتقدمين نارا قائلة : أسمعت في شبابك أن عادة تدعى (بيكى) فتنت الشبان بجمالها الباسر وخلبت مسامعهم بصوتها الرخيم . . . إذا كنت لم ترها ولم تسمع عنها فانظر أمامك جيدا نجدها بين يديك . قالت هذا وضحكت بطنًا لظهر ثم استجمعت يديها اطراف ثيابها الرثة البالية لتستر بها ما بدا من سواتها وقبح صورتها . وبعد هنيهة استأنفت الحديث قائلة : نعم ان الرجل يتناول قطف العنب فيمتص عصير حباته بلذة وهناءة ثم يطرحها على الارض ويدوسها بقدميه . فما أشبهنى اليوم بحبة منها أهينت ودبست

بالاقدام بعد أن استنزف خيرها وامتص كل حسن ولذيد فيها . لا
ترمقني بعين الرأفة . . لانني وإن قوست الشيخوخة ظهري والتصقت
بالتراب ذلاً ومهانة وفقراً واستكانه لم يستطع احد هم ان ينكر على أنني
كنت ذلك القطف اللذيذ الطعم الذي طالما جد الكثيرون في طلب
التمتع بلذته . . ولست أجد في ألف امرأة مثلي كانت في حياتها مجمعاً
لتضارب الاضداد من سعادة وشقاء وحب وبغضاء وسرور وآلام
وتسامح وانتقام ونشاط وثبوت وأمل وقنوط . لذلك أراني كلما فكرت
في هذه الحياة جديرة بالصمود الى عرشك المنيع والاستواء في مكانك
الرفيع . ولا توجس مني خيفة أبداً فقد اعتدت من أمد بعيد الزحف
والتسلق والهجوم والتدفق فاسمع إذن كل كلامي ولا تقاطعني وأنا
أوافيك بما تتوق الى الوقوف عليه من الحوادث الجلي والوقائع العظمى .
كنت فيما غير من أهل الطبقة العالية في الامة . وكانت عادة
الاكابر وذوى الحثيات أن يترافقوا الى المرأة الجميلة بأنواع الملق
والمداهنة وتصنع الخشوع ، وابتسم لي ثمر السعادة والعز فأصبحوا
طوع أمري جميعاً . هذا ولقد آن لي ان أقص عليك تاريخ حياتي وان
لم اجراً من قبل على مفاتحة أحد به ولو كان من اولياء الامور .

قبل نحو الحسين عاماً كانت الشيبية تنهافت على سماع صوتي
وتتنافس في التقرب إليّ للأنس بي والحظوة مني بلفتة أو ابتسامة أو
كلمة ، وكنت لا أغني صوتاً الا ويجمىء صحيح الصنعة والتجزئة فتراهم
يتوثبون من أما كنهم الي اهتزازاً بتلاحينه واعجاباً بما كنت عليه من

براعة جمال وحسن محاضرة . وكان والدي ذا أصل وفضل وجاء . عهدت
اليه في زمانه أزمة الحكم على مدينة أيدوس ولجهره بالولاء والاخلاص
للأسرة التي أنت غصن دوحها والحلقة الاخيرة من سلسلة سلالها
اضطهده رعمسيس الاول بعد إذ خلص له الملك اغتصابا وتعدي بالبني
عليه واوصل صنوف الاذى اليه ، فقد أمر بإبعاده هو وأفراد أسرته
الى منجم الذهب ببلاد الحبشة فلقوا حتفهم فيها جميعاً ولم يبق منهم وقد
اتقرضوا سواي . وكنت لم أزل على جمال غض وصوت رخيم ، فلما
عدت الى مصر اندرجت بطيبة في سلك فرقة موسيقية ، فكانت لا
تقام معالم الافراح والحفلات الا وأكون لها غرة جبين ودرة تاج .
وقد جمعت في ممارسة هذه الصناعة مالا كثيراً وجذبت الى دائرتي
عدداً لا بأس به من الشبان وحصلت من مشتهيات الحياة الدنيا ما يتجاوز
المأمول . ولكن الرزايا التي ألمت بأسرتي والمكاره التي حفت بأخوتي
ووالدي ووالدتي افعمت قلبي بهوم جعلتني ذاهلة دائماً التفكير كثيرة
الحواس ، مع اني كنت في سن يحلوفيه مذاق المر ويعذب طعم
الصاب والعلقم .

وكان لا يجرأ أحد من ابناء الامراء والكبراء الذين تدهوا في
عشقي وتسابقوا الى كسب مودتي وتنافسوا في مرضاتي على أن يلمسني
باطراف أنامله إذ كنت أضن عليهم حتى بهذه الخطوة استعلاء
واستكباراً . بيد أنه كان لكل كبرياء حد ينبغي أن تقف عنده ، فقد
قضت الآلهة في حكمتها الأبدية ان تستذلني وتكسر من شكيمتي ،

فساقت لى الشاب آسا الذى لا يد أن تعرفه ، وهو والد الموهار السابق
وجده بنطاور ، وإن تشأ فقل جد بما كر رئيس الطلائع . كان ذلك الشاب
يجمع الى جماله الرائع شرف الاصل وكرم الاخلاق ، فكنت كلما
غيت دوراً عمد الى الجلوس أمامي ووضع عينيه على واصفى سمعه الى
واستقر فى مكانه لا يلتفت يمنة ولا يسرة . وفى هذا القدر كفايه لكي
تعرف ما وقع بعد . . . ولكنك لا تستطيع ان تعرف ما حصل . . . لم
يتفق لمخلوق على وجه الارض ان يتفانى فى عشق آسا كما تفانيت فى
عشقه . . . ما لى أراك لا تهش لسماع هذا الكلام . . . ولكن لعل لك
عذرا فقد يكون من المضحكات أن تسمع الحديث من عجوز مثل لا
سن واحدة فى فيها . . . توفى آسا منذ بعيد ، ولعل لم أزل اضمر له البغضاء
ذلك لان حبه ما برح متأصلا فى فؤادى . . . قضى آسا حولين كاملين
لم يعرف فيها امرأة غيرى ثم سافر مع الملك سبتى فى محاربة الاعداء ،
فكان لا يمر بى يوم الا كما يمر العام مللا من الانتظار . فلما حطت
الحرب الاوزار وعاد الى الوطن متوجا بأكيل النار ومنيت النفس بقرب
لقائه وبعودة المياه الى مجاريها ، فما أشد مصابى حين علمت أنه اقترب
بفتاة جميلة من بيت عظيم ذى محمد كريم وما أسرع ما دبت فى قلبى
عقارب الغيرة حتى كدت اذوب غيظاً وأموت حسرة وكدأ .

وكنت لم أزل على جمال غض وشباب نضير فتحنيت الفرص حتى
التقيت به وجها لوجه عشرين المرة ، غير أنه كان فى كل منها يصدف
عن طريقى ويلتمس الفرار منى كما يفر السليم من الاجرب فكبر الامر

على نفسى وانتابنى من جرائه جزع شديد وتوله لم يلبث أن نالتنى
بسببه حمى شديدة عجز عن علاجها نطس الاطباء حتى كادت تذهب
بجياتى . ولما يئست من شفائى وقنطت من تحقيق رجائى حررت له
الرسالة الآتية : « أشرفت بيكى على الهلاك وتمنى أن لو تزود منك
نظرة قبل وفاتها ففضل بتحقيق أمنيتها » ثم طويت ورقة البردى التى
حررت فيها هذه الكلمات على أول هدية قدمها لى وهى خاتم
وضيع القيمة . . أتعرف ماذا كان جوابه على رسالتى ؟ أرسل لى مالا
وفيراً من التقدين الكريمين ، فما وقع نظرى عليه حتى خيل لى أنه وضع
فى عينى حديدا حمى فى النار حتى احمر ، وما زلت حتى اليوم أحس لسعته
الحامية كلما فكرت فى خيبة أملى وفشل سعى ، ولكنكم أنتم معشر
الرجال والسادة الذين طالما استسهلوا الصعب وانقادت لهم الآمال لا
تقدرون تأثير اليأس فى القلوب الكسيرة والافتدة الكريمة . ولو اجتمع
منكم ثلاثة أو أربعة وقصصت عليهم هذه الحادثة لما وسع أرفعكم مقاماً
أن يقول بصوت جهورى « لقد أصاب فيما فعل » ثم يبنى هذا الحكم
على ان آسا كان متزوجاً وواجباً شرعياً وأنه لا يليق به أن يختلف الى
غانية تطرب الجمهور بصوتها الرخيم ، لانه ان فعل فقد نقض عهد الزواج
ولم يبق بالواجب وجر على نفسه اللوم والتعنيف . . ولكن أنى مثل هذا
التعليل ذرة من الحق والصواب ؟ كلا ! لان صاحبه لا بد ان يكون
ممن يعتقدون فى المرأة البائسة التى فوجئت بالمهجر المتلف انها ليست
من البشر وأن جوفها خال من قلب رحيم يتأثر بالعواطف الشريفة أو

يحفظ عهد الوفاء ، وأن هذا القلب لو وجد فعلا لبقى متمسكا في وهدة
اليأس والقنوط خمسين عاما فلا يحس قلب امرأة أخرى شيئا من
الغيرة بسببه ، فهو اذن وجود عدم . . ان آسا تحرى في سلوكه اجتناب
اللوم من قرينته . . ولكنه جوزى على بنيه بتساقط اللعنات
عليه والتصاقها بذريته من بعده ، فهي ملازمة لهم أبا الأباد . . رأى
أنه كان حريصا على الفضائل متمسكا باهداب العفة في حين أنه قد
أثم إنما ليس له من شافع اذ ألقي في مهواة اليأس قلبا كان مابرح مقبلا
على عهد الولاء له . . ولا ريب في أن اجتنابه الحضور عندي في ذلك
المهد دليل على أنه كان لم يزل مغرما بي ، وإنما خشي أن تذكي رؤيته
إياي بعد طول الثنائي نار هذا الغرام في فؤاده ، وحسبي ذلك باعنا
على التماس العذر له . واذا كان هناك ما يفت في عضدي ولا أعذره
من أجله فانما هو ارساله الى بذلك المال . . انه بهذا الفعل الذميم قد
جنى جنايه لا شفاعة فيها ولا غفران .

فاهت العجوز بهذه الكلمات فكان يخيل للسامع أنها في حلم تهذي
فارتاع الوالى من منظرها وبدرت منه حركات جطلته وهو في كرسية
يتراجع الى الخلف . وتنهت الساحرة اليه فاستجمعت قواها لاستئناف
الحديث وقالت : أنتم معشر القوم الذين تحلقون في سماء السيادة والعز
بأجنحة الكبرياء والعظمة كما تحلق الطيور الجارحة في أجواز الجو ، لا
يقلق بالكم ولا يزعج ضميركم شأن اولئك الذين وضعتهم الاقدار في
الدرك الاسفل . . ولكنى استأنف حديثي فأقول : لما كتب لى الشفاء

مما اعتراني من الادواء شعرت بصوتى الرخيم وقد ذهبت محاسن نعماته
ورصانة نبراته وعطفاته ، وكنت مع هذا في مال كثير وعيش رغيد
فصرفت ما أملكه على سحرة طيبة وشربت مياههم السحرية التي
تجدد في القلوب ما اندثر من معالم الحب وتستأصل جرثومة الشر ،
وصرفت همتي الى استرجاع صوتى الذى كان رسول الغرام بينى وقلب
آسا وبه امتلكت قياده ، فلم تجد الأذوية تفعا بل أصبح صوتى أقرب
ما يكون الى نعيق الناق أو نعيم الناعر . وقد اطلع على خبيثة أمرى
كاهن طرد من هيكله وكان ساحراً ماهراً عرفاً ، فلزمته ملازمة الظل
للشبح حتى تلقيت عنه أسرار السحر ، وإذ رأى أن اصدقاءه في وقت
الصفاء والهناء قد انفضوا جميعاً من حوله فقد التجأ الى المقابر ، فافتنيت
أثره بيد أن الحكومة ساقته الى المحاكمة وانهى أمره بالمشقة فبقيت
وحدى فى إحدى المغائر وشهرت بين الناس حتى الصبية فى الطريق
بممارسة السحر ، فكانوا يعدلون عن طريقى وامتلات صدورهم علىّ
بالاوغار والأحن كما امتلأ صدرى بها على تقسى ، وكان هذا كله
جناية وحيد طيبة فى التقوى والمروءة والصلاح . . آسا ؟

ومع توالى هذه النكبات كنت حذقت مهنتى الممقوتة ومارست
معها نحو مائة مهنة أخرى . فلما كان مساء ذات يوم قدم اليّ (سنت)
مباشر البستان الذى كنت أشتري منه ما أحتاج اليه من الحشائش ،
ومعه غلام وليد أصابع احدى قدميه تبلغ الستة عدداً ، وسألنى أن أصلح
منه ما أفسد الدهر بأن اجعل الستة خمسة وقال إنه جاءها على غير علم

من زوجته وأنها لو كانت وقفت على سر ما أراده لما نعته في تسليم الغلام اليّ ، وكان من المستطاع في الواقع اصلاح ذلك التشويه احياناً .
وفي ضحى اليوم التالى سمعت صدى ضوضاء وهرج في الوادى فما هي الا برهة حتى أقبل فوج من الخدم يسألوننى المبادرة بمصاحبتهم لانقاذ مولاتهم ، وكان أخذها الطلق وهي في زيارة قبور الاجداد ، فأخفيت الغلام السداسي الاصابع طي ثيابي وأمرت خادمي أن يحضر الماء ثم عجلت بالانصراف مع الخدم الى مكان الحادث ، فاذا بي أمام قبر والد آسا . وهناك علمت أن المرأة التي جعلتها آلام الطلق تتلوى كالثعبان إنما هي ستخم قرينة ابن آسا ، وكانت قد وضعت الجنين قبل وصولي اليها بدقائق . غير أني رأيت في حالتها ما ينذر بالخطر فأنفذت الخدم في الحال ومعهم محفة كنت رأيتها بجوار الباب لاستدعاء أحد الاطباء من بيت سيتي .

وفي غيابهم جميعاً قالت لي خادم من غاشية السيدة أن مولاها الموهار والد الغلام في ميدان الحرب وان جده الشريف آسا وعد بالحضور الى المقبرة وهو لا بد واصل اليها بعد فترة من الزمن وان لم ينته اليه بعد نبأ الوضع . وكانت ترمى بهذا القول الى الاستئذان مني في الخروج للقائه ، فأذنت لها ولما ألفت نفسي وحيدة غسلت جسم الطفل وأخذت أقبله بشغف كأنه والدي ، ثم سمعت وقع أقدام على أحجار الوادى فمرت بخاطري ذكرى ساعة النزاع التي رأيت الموت فيها رأي العين . وكنت انتظر أن يقبلني آسا القبلة الاخيرة ولكنه بدلا منها

أرسل اليّ من المال ما كنت عنه في غنى ، فتولاني من ذلك غيظ
وامتلاً صدري حقداً وميلاً الى الانتقام حتى أصبحت كمن مسها
خبل ، ولم أدر كيف استطعت أن أعطي خادمتي المولود حفيد آسا ،
وان أمرها بالذهاب فوراً الى المنارة . ووضعت في حجرى ولد البستاني
الذى كنت أحمله في طيات ثيابي البالية . وقد خيل لي عندئذ أن الدقائق
تمر كالساعات لشغفى باستطلاع محيا آسا ، فلما أقبل رأيت بالرغم من
بياض فوديه أنه ما زال باسم الثغر حلو الشمائل فقدمت اليه ولد البستاني
وأنا أشعر بقلبي وقد سكنته الشياطين والجن والمردة .

أما هو فأطال في الغلام النظر ثم أعاده اليّ دون أن يعرفني أو
يستبطن حقيقة أمرى ، وأبرز لي من جيبيه بعد ذلك ملء كفه ذهباً
فتقبلته منه دون أن أفوه بكلمة واحدة ، ثم انصرفت . وكان كهان
بيت سیتی قد تواردوا منه تبعاً ، فسمعهم ينشدون الاناشيد يضرعون
فيها الى الآلهة أن يكون طالع الوليد الجديد سعيداً ومستقبله في أوج
السماء . فلما عدت الى المنارة اغربت في الضحك حتى اساقطت الدموع
من عيني . ولم يكن ذلك لابتهاج فؤادي الواله الى حدّ أنه من كثرة
ما قد سرني ابتكاني وإنما لاسباب ، لا تخفى على اللبيب الفطن .

وبعد أيام سلمت الى البستاني حفيد آسا قائلة له أنني قد نجحت
في إزالة إصبعه الزائد . وكنت ، لخدعه وذوّر الرماد في عينيه ، قد
عنيت بخدش أصبعه وتضميده . وعلى هذا المثال شب ابن الموهار وحفيد
آسا وترعرع في أسرة البستاني الوضيعة كما تربى ابن هذا الرجل الحقير

في اسرة ذلك . ولقد تلقي بنطاور العلوم في بيت سیتی واشتهر فيها بالفوق
على أقرانه . . وبعد أفلا ترى قرائن الشبه متوافرة بينه وآسا وأن
بمقدارها تجد أسباب التباين واضحة بين بما كر ذی الستة الاصابع وجده
الشريف المزعوم ؟ . .

أصغى آني الى المعجوز وكان على رأسه الطير . واذ كان الانسان
مجبولا بفطرته على اصطناع من يحسن اليه أولا يفشى له سرا أو يساعده
على انجاح مشروع فان آني لم تحدثه نفسه قط بمقاب الساحرة على
هذه الجنابة ، كلا ولا بتويخها على سوء فعلها ، بل طفق يطيل التأمل فيما
كانت عليه من جمال رائع وصوت رخيم ، وفي أنها فتنت بمحبها شبان
ذلك العصر . ثم قارن بين خلاهما في ريعان شبابه وبينها الآن فشبها
بالزهرة الزاهية وقد ذبلت وذوت وبالقناة وقد احدودبت . لهذا قال
لها : يا يسكى الك أن تعيشي في أمان حتى ترحلي من هذا العالم الفاني
واني لأعدك عدة صادقه بتحنيط جنتك اذا مت ، وانما أرى أن قد
اصبح جديرا بك ترك السحر والعيش بما عندك من المال في أرغد حال
وأهنا بال . وإذا كان المال ينقصك فخبيري بما تحتاجين اليه منه وأنا لا
أضن عليك به ، ولست أخشى أن تحفك بشيء من الذهب وان أكن
علمت من كلامك ان الذهب يثير كامن الحقد في صدرك . قالت : ربما
احتجت يوما الى مالك ولكن دعني الآن أذهب الى حال سييلى .
ثم اتجهت مهروله نحو الباب فاستوقفها آني ليسألها اذا كان آسا هو
والد نيمو قزم راتوتي فضحكت ظهرا الى بطن وقالت : ألحمت في هذا

القرم مشية آسا أو ملامح بيكي ؟ . . حقيقة أمره اني ربيته
ككثيرين من أمثاله . قال آني : لقد أنست منه حيلة واسعة
وذكاء مفرطا . قالت : لا عجب فإنه من أقدر الرجال على حسن التدبير
وجودة التفكير . وقد امتاز بشدة اخلاصه لراتوتي ، وهو خير من
يعاونك على نيل مقاصدك لأن له هو أيضا مقاصد يسعى اليها . سأل :
وما هي هذه المقاصد . أجابت : اذا اصبحت راتوتي قوية بعضدك
ومثوية يعاكر فلن يعترض الموهار مانع عن الرحيل للفتك بينما
وترميل زوجته نيفرت . قال : أرى أنك واقفة على أسرار كثيرة تدعوني
الى توجيه سؤال آخر اليك . . أضحج أن هناك ماء سحريا يذكي
في شاربته نار الحب ؟ اجابت : سأفكك على الحقيقة لتني لي بوعدك . .
نادراً ما يؤثر الماء السحري في شاريه بقدر ما يؤثر في النساء الخالية
قلوبهن من الهوى ، فأنت اذا قدمته الى فتاة فانتة تهوى فتى جميلا
وشربته هامت به . سأل : أعندك حيلة للمرء يستطيع الخلاص بها من
غائب ؟ اجابت : كيف لا . . . يكفي لذلك أن يسمى الوضعاء والافناء
بالنميمة في حقهم ويشهروا بسيرتهم . والظاهر لي من أسئلتك أن ما
رويته عليك من الحوادث لم يذب في قلبك عاطفة الرحمة فانتى استخلص
منها شدة كراهيتك لبطاؤور . . لم أراك تضحك . . ان ذكرى هذا
الشاب ما برحت ممتثلة لخاطري لأننى بشطارتى حرمته ميراث ابيه . .
ان جمال صورته وعزة نفسه يصوران لعينى تمثال آسا ، فلا عجب أن
اشعر في نفسى بعاطفة تدفعني الى حبه كما أحبيت جده وهو أمر من

الفرابة بمكان ولكن لا عجب ولا دهش اذا قيس هذا الشعور بما
اشهده من السيدات السيئات الحظ اللأني يفدن زرافات وشقى على
مفارتى لالتماس معونتي . اني أراهن على شغف عظيم بمن تنحوا عن
ودادهن وهجروهن الهجر المتلف . وما اشبهنا معشر النسوة بعضنا
ببعض في أمور كثيرة . ومع هذا فلست راغبة في حب حفيد آسا وليس
لي أن أحبه وانما ينبغي لي أن أعمل على اىصال الأذى اليه ييد خصومه ..
نعم ان آسامات وأصبع من الرفات ، ولكن فاراساءته الي ما برحت
متقدة في جوانحي وهي لا تخمد الا بنجوم حياتي ، فليكن إذن ما قدر في
سابق الازل لبنطاور من الشقاء والتعاسة .. واذا كنت تريد به سوءاً
فما عليك الا الاتفاق مع نيمو الذي يضر له الحق . فاذا استعملته في
هذا الغرض ، فان عمله سيكون بلا ريب اكبر أثراً من سحرى
وطلسمانى ومياهى السحرية .. وبعد فأنتى ارجو منك أن تأذن لي في
الانصراف .

انقضت ساعات على انصراف نيخت من حضرة الوالى فاذا
برسول أميني يمثل بين يديه ليدعوه الى تناول الطعام على مائدته ، فلما
ذهب اليه آنى سأله : أتدرى من هى الساحرة نيخت ؟ أجاب أميني :
كيف لا ، انما هى بيكي فاتنة شبان طيبة بجهاها وساحرة عقولهم برقة
صوتها .. وهل لي أن ألم بما قالته لك ؟ فرأى آنى أن من الاوفق له
الأ يكشف أميني بسر ولادة بنطاور ولهذا ترددت في اجابته الى طلبه .
ولاذ كان أميني داهية دلكته الحوادث وحنكته العبر فقد استأذن

من حليفه ان يوافيه هو بمجمل الاسرار التي أفضت اليه بها ثم اخذ يسرد عليه ما دار بينه والمجوز متعمدا التغيير والتبديل في بعض الحوادث حتى لا يدخل الوالى انه كان في نجبا يتسمع لهما . وما استقرت الرواية في سمته حتى تظاهر بالدهشة ووافق على ما ارتآه الكاهن الاعظم من وجوب كتمان أصل بنطاؤور وانكاره عليه . قال أمينى : ان بنطاؤور ذو قريحة وقادة وفكرة نقاده واخشى أن يدبر لنا المكاييد وينصب المصاييد إذ انحن لم نكاشفه بحقيقة أصله .

وكانت العواصف في خلال هذه المحادثة هذات والسحب انقشعت وصفا أديم السماء وبرد الجوى ، ولكن الحرارة لم تلبث ان انتشرت فيه رويدا رويدا بطلوع الشمس على الافق . وما غادر الناس مراقدم لممارسة اعمالهم حتى رأوا وجه الارض مجللا بما اقتلعته العواصف من الاشجار والاكواخ خاوية على دروشها والنازل متهدمة واخيام المضروبة في حي الاجانب متمزقة ، وطارت مئاث السقوف المتخذة من سعف النخل بفعل تلك العاصفة التي لم تصدها قوة الانسان ولم تنفع فيها حيلته .

عاد الوالى والكاهن الاعظم الى طيبة وكان ثانيهما يود ان لو يقف بنفسه على ما أتلفته العواصف في حديقته فما كاد زورقهما يتوسط النيل حتى اقترب من زورق بما كرفصوتا به ، فلما التفت اليهما طلب الوالى منه في رفق وملاطفه أن لا يرضن عليه بزيارته والتردد عليه لمشاهدته ومحادثته .

وكانت حديقة الكاهن الاعظم لا تقل انفساح جوانب وحسن
تفسيق عن حديقة الموهار ، لانه ورثها عن أبيه فمعي بترتيبها على أجهل
نسق . وكان يحيل للناظر أن الدار القائمة بوسطها بين الاشجار الباسقة
قصر باذخ وبناء شامخ . وكان من عاداته تناول طعام الغداء مع قرينته
وهي امرأة ما زالت في فتاه السن وتوافر الحسن ، ومع بناته الفاتنات
يجمهن . فلما أن وصل الى حديقته وشهد ما لحق بها من أذى العاصفة
جلس معهن تحت أرجوحة متخذة من أغصان الشجر وأنشأ يسلبهن
عن تلك الخسارة الفادحة ويمدهن باصلاح ما سقط على الارض بقوة
الريح من اقصاص الحمام وأن يجعلها امن وأحسن مما كانت ، ثم انتقل
من التسلية والوعد الى المزح والتملح ، لانه كان مع ظهوره بيت سیتی
في مظهر الرئيس الشديد الوطأة لين المريكة في بيته متواضعا فكان
لزوجه القرين الموافق ولبناته الوالد الحنون يشاركون في سرورهن
ويقتدى بهن في محبة ازهارهن وطيورهن .

ولما تناول الطعام وغادر المائدة يحيط به بناته دخل أحد الخدم
يعلن وصول السيدة ستخم والدة بعاكر . فأمره أميني : ارشدها الى
مكان سيدتك . غير أن الخادم الذي كان يخفي في كفه الهدية الثمينة التي
تحفته بها ظل واقفاً في مكانه قائلاً انها إنما تريد مقابلة الكاهن الاعظم
لمحادثته في أمر خطير . قال أميني مفضباً : ألا يتاح لي التمتع بالراحة ولو
ساعة من الزمن ؟ الأحسن ان سيدتك تستقبل ستخم وان تبقى معها
حتى استطيع مقابلتها بنفسی . . ألم يكن المعقول يا أولادي ان اخصكم

بهذه الساعة أنتم والدجاج والبط والحمام ؟

فلم يجاوبه أولاده بغير التعلق برقبته والاستمسك بذيول أمساحه
ثم انصرفوا يتوثبون ويظفرون مبتهجين . وقد مضت وهو بينهم على
هذه الحال ساعة طلب بعدها اليه السيدة فجيء بها الى الحديقة فأنشأت
تقص عليه ما قالت الاحزان والمهموم منها ، وكانت عيناه أثناء الحديث
تترقرقان بالدموع ومما قالته له : أنت المرشد الروحاني لولدى وفلذة
كبدى ، وغير خاف علي مقدار ما يقدمه للآلهة من القرابين اثباتا
لاحترامه ايام ، الا أنه لا يصني لنصائحي ولا يحترمني احترام الولد
البار لو الولديه . وظهر لي أخيراً أنه يضمر النيات الخبيثة والمقاصد السيئة ،
فاذا لم تهدده بنضب الآلهة عليه فلا خلاص لينا من بين يديه وربما . .
وربما . . قال أميني : وربما اعتدى على الملك .. انى عليم بموضوع شكواك
ولسوف أحدثه فيها . قالت وقد تناولت طرف ثوبه لتقبله شكراً
وامتناناً : أشكرلك صنيعتك معى ما دمت على قيد الحياة ولا تنس
أنك على أثر ميلاد هذا الولد قد بشرت والده بحسن طالعه ويمن تقينته
وأنه سيكون زينة أسرته وفخر قومه ، والا فهل قدرت الآلهة علي
أن أخسره فى الدنيا والاخرى بمصيانه أمرى ومروقه عن طاعى ؟
قال أميني : ما بشرت به المرحوم قرينك من حسن طالعه ولدك
ويمن تقينته متحقق لا محالة ، لأن للآلهة فى تحقيق الآمال سبيلا
غير سبيل الرجال . قالت ستختم : فلتكن كلماتك هذه بردا وسلاما على
قلبي المفعم بالحزن مما نابنى من ولدى . ولقد كنت مترددة فى الحضور

اليك لعرض شكواي عليك ولهذا لم أبح لك بكل ما حصل . . فقد سقطت الادقال المالية التي جلبها من جبال لبنان البعيدة لتخفق الاعلام باطرافها أمام داره وألقها المواصف على الارض بعد أن اقتاعتها من مغارسها . قال اميني : صبرا صبرا ياسيدني فلسوف يطمئن قلبك وينشرح صدرك ولا بد لولدك ان يدعن لارادتك كما اذعنت تلك الادقال لقوة المواصف . قالت ستخم : شكرالك ولكن عندي سرا اريد مكاشفتك به . . أعرف انني ضيعت عليك شطراً ليس بالقليل من نفيس وقتك، وهل انفس عندك من الوقت تقضيه بين افراد اسرتك ؟ ولقد سمعتك تقول يوماً لزوجي المرحوم أنك كلما جئت الى طيبة تشعر في نفسك برضاء يسرى عنها الهم ويحلى الكرب وتكون اشبه بالجواد الكريم يخلى من سرجه وجامه ويرخي لبيه ثم يطلق سراحه في المروج الزمردية والسهول المترامية الاطراف فيمرح كما يشاء . ولكنني اسالك أن تصنى الى حديثي فقد رأيت فيما يرى النائم ما يوجب الدهشة ويقضي بالعجب .

ذلك أن بما كرر لما أتي العمل بنصيحتي وولى عني بكتفه عدت الى حجرتي فأخذتني عند طلوع الشمس سنة من النوم رأيت فيها بنطاور خطيب الاعياد الذي خلب العقول بذلاقة لسانه وفصاحة بيانه وانه من توافر الشبه بزوجي المرحوم بما يخيله للناظر قريبا لاغريبا، ثم رأيت بما كرر يتقدم نحوه ويمتنه ويسفه ويفحش في حقه ويستطيل في عرضه . وكان في توبه عليه يحاول إلحاق الاذى به ، فلما تبين بنطاور منه هذه

النية بسط يده للدعاء كما فعل يوم الاحتفال ، ولكنه إنما بسطها ليأخذ بتلايب ولدى وليجره الى منزلته . وقد تم له ما أراد اذ تنازل الاثنان فخيّل لي أن بما كر قد تدخل جسمه بعضه في بعض حتى تبدل من صورته الانسانية الموقومة بكتلة لا وصف لها ولا كيفية ، وأن هذه الكتلة سقطت على قدمي بنطاوور ، وتبين عند فحصها أنها لم تكن الا قطعة صلصال كالذي تتخذ منه الآنية سواء .

قال أميني : غريبة في بابها هذه الرؤيا ا على أنني ما زلت ابشرك انها قال غير وعنوان سعادة ، لان الصلصال بمرورته يتشكل بجميع الاشكال وفي نحوه اليه حكمة خفية اراد الآلهة بها إفهامك انهم يعوضونك من بما كر خيرا منه صورة ونفساً وعقلاً . ولست أدري على وجه التحقيق كيف يتم ذلك كله ، ولهذا أرى أنه لا بأس من مواصلة الدعاء بالدعاء والصلاة بالصلاة واهداء القرابين مع الاتسكال على احكم الحاكمين . وهناك نصيحة أخرى لن أضن عليك بها وهي أن تقابلي بما كر ، كلما لقيك ، بوجه باش وصدور رحب فاذا أقام على عناده القديم فلا تدعيه يدنو منك والفطيه كما تلفظ النواة .

وما ختم السكاهن الاعظم نصحه حتى همت ستخيم بالانصراف مطمئنة القلب مرتاحة الضمير . وكان أميني يناجى نفسه ساعة انصرافه : لست في ريب من أن هذه المرأة ستجزى خيراً على صبرها وآلام نفسها فقد أمرت عيشها وأطال ليلها سلوك ذلك الشاب الحقير . ولكن استنقاذاً منه في المستقبل لن يحول دون امكان جملة آلة لتنفيذ

مقاصدنا ، ولطالما شككت في صحة الاحلام ولكن لم تحدثني نفسى
يوماً بأن المستقبل سيميط عن هذا السر العجيب اللثام . . ولعل قلوب
الامهات تحس ما يقع في المستقبل من الحادثات .

ما بلغت ستخم الى دارها حتى التقت بيماء يسوق عجلته عند بابها
فلم تحفل به ولم يعن هو بها ، ولا يعلم الا الالهة مقدار ما شعر به كلاهما
نحو الآخر حين تلاقيا من انقباض الصدر واكتئاب النفس . . وفي
المساء التقى بماء بالوالى للتفاوض ثم قصد بيت سبتى ليطلب الى
الكاهن الاعظم أن يبارك في مشروعه ويدعو له بالتوفيق ، ثم وضع
القرابين الكثيرة على قبر والده . وعلى اثر عودته أخذ يعد معدات
السفر الى الديار السورية فلما هم بالركوب في مركبته وافاه الخدم نبأ
القبض على الخواص المتهم بقطع الادغال فأمرهم بأن يسملوا عينيه عقاباً
له على فعلته وكان هذا آخر ما أصدره من الاوامر والاحكام قبل رحيله
الى بلاد الشام .

ابتعد بماء رويداً رويداً ، ولم تكن ستخم وجهت اليه كلمة وداع
أو ايماء تدل على رضاها عنه ، الا ان هذا الصدود لم يمنعا من الابتهاج
للآلهة ان يلينوا من قسوة قلبه الجلهودى ويقوه شر الوقوع في الخطايا
والآثام . وما تحرك قلبها بهذه العاطفة الا لأن الامهات فطرن على
الرحمة بالاولاد والمفاخرة بهم في كل محفل وناد .



الفصل السادس

— تدريب الامراء على الاعمال كي يكونوا للغير خير مثال —

مضت أيام ثلاثة على رحيل بعاكر الى الشام كان المصنع الذي انشأته بنت أنات يدوى في خلالها بهمس العاملات كما تدوى الخلية بطنين النحل . وكانت الاميرة ونيفرت قضتا ليلة العاصفة أى الليلة التالية ليوم تنكرهما لشهود الاحتفال دون أن يأخذ الكرى بمعاقد أجفانهما . فلما تنفس الصبح رجعت نيفرت من الاميرة أن تأذن لها بقضاء النهار في التماس الراحة من عناء الحوادث الاخيرة، فرفضت الاميرة طلبها قائلة : الاليق بنا يا صديقتى أن ننفذ عن انفسنا غبار الخوف وأن نوجه افكارنا شطر غاية أخرى . اما سمعت قول العقلاء « لا توجل الى الغد ما يمكنك أن تعمله اليوم » فافتنى اذن اثرى بجلد واطمئنان . . ولكن هاء نذه اشعر برعدة تهز اركان جسمي كما لو كان الوحش بعاكر قد اهوي بيده على كتفى فلوثتها بدنسها .

اذعنت نيفرت لامر صديقتها فقضت معها اليوم الاول وقدعانت فيه تعباً مضا وتولاها يأس مضجر . فلما كان اليوم التالي أنست من نفسها الميل الى ملازمة الاميرة والاعتباط بصحبتها . ولم يسمعها في اليوم الثالث الا ان تعترف بما احرزته من براعة في العمل وأنسته في نفسها من ميل الى مجارة غيرها في اتقانه . وهذا شأن الانسان في

ممارسة الاعمال ، كلما اتجهت عزيمته وخلصت نيته في انجازها ازداد شغفاً بها . وما عليه الا ان يجلد ويصبر بادىء الامر على قمع نزعاته التي تصده عن مزاولتها ، فحتى تتمكن من صدها حلاله العمل وانكب عليه من غير سأم ولا ملل .

ولقد أحسنت بنت اناث اذ فوضت الى صديقتها الرقابة على طائفة من العاملات ، ومنهن فتيات صغيرات مات عنهن آباؤهن وأيامي قتل في مواطن الحرب ازواجهن ولقضاء ولقيطات وبألسون وبأنسات خانهم الدهر ورشقمهم بسهام القدر واوقعهم في مخالب الفقر ، لان هذا العمل كان مما يوافق ميولها ويطابق رغائبها .

وكان عمل تلك العاملات مقتصراً على فرز النباتات الطيبة . وكن يجلسن على الثرى متربعات حلقات بدوا رها متلامسات ، بوسطها تلك النباتات ما بين رطبة ويابسات . وكان يرشدهن الى كيفية فرزها وترتيبها طيب من ذوى الاسنان لا يكف عن التنقل من حلقة الى حلقة حاثا مرشدا ، وكانت نيفرت تحب الازهار حبها للاطفال فوجدت من العمل الذى ناطته بها بنت اناث خير فرصة للبحث في تلك الازهار ودرس خصياتها وحث أولئك الاطفال على مواصلة العمل ، وصرفت نحو هاتين الغائتين هما فتمكنت في الزمن القصير من التمييز بين المجتهد والكسول ، تعد ذلك بالكفاة وتحث هذا على الاقتداء به .

ورأت اثناء هذه المراقبة طفلة عارية البدن نجلاء العينين فاتجهت صوبها وسألتها : ماذا تصنعين أيتها الفتاة ، ألا تدرين أنك بخلط هذه

النباتات بعضها ببعض تسببين الهلاك لمن يعالجون بها؟ أي مصاب
أجل وخطر أفدح من أن يصاب أبوك بجرح في ميدان القتال فإذا
وضع عليه بدلا من النبات النافع التاجع نبات ضار ورد شر الموارد
وساء مصيراً.

فلما سمعت الفتاة هذا العتاب علا وجهها الاحمرار واومأت
برأسها ايماءة الامتثال لامرها والعمل بنصحها واستأنفت عملها بيقظة
والتفات . عندئذ انصرفت نيفرت عنها قاصدة الى فتاة أخرى بدت
عليها علامات التواني والكسل ، فقالت لها : أنت كثيرة الهذرا
أنسيت والدك الذي ينازل الاعداء في ساحة الوغى معرضا جسمه
اطعنات الرماح وقاتل الجراح ! .. ماذا يكون مصيره ان لم يجد الطبيب
على مقربة منه يسعفه بالدواء أو ماذا يقول هذا الوالد التمس ان
رآك في حله مخلدة الى السكون واضعة يديك على ركبتيك ..
ألا يقول ان ابنتي لاتحبنى ولا تحترمني لأنني أراها قاعدة لاتزاول عملا
في حين يجب عليها الاجتهاد في اعداد الدواء الذي يترتب عليه خلاص
والدها المريض من مخالب الموت .

ثم تراجعت الى مكان حلقة كبيرة من الفتيات فقالت لهن ..
أتدرين أيها الفتيات اين تنمو هذه النباتات؟ .. لعلكن تجاوبنني
بلا ، اذن انبثكن بأصلها .. خرج هوروس الطيب يوما لمحاربة سبت
الخبث فلما احتدمت بينهما نار القتال تمكن هذا الشيطان المريد من

إيدائه اذ فقأه احدى عينيه (١)، ولكن الظفر كان في النهاية لهوروس
لانه لا بد من انتصار الخير على الشر وان طال الامد . ولما رأته ايزيس
أن الدائرة دارت على ابنها العزيز تلقته بين ذراعيها واسندت رأسه
الى صدرها (٢) وشعرت بما يشعر عامة البشر به من الحزن واققباض الرجاء .
وقد تأكد لها انه يتعذر بل يستحيل تعويض تلك الخسارة فتماطرت
الدموع من عينيها وكانت تنحدر على الارض فينبت في مسقط كل قطرة
منها نبات من النباتات التي بأيديكن (٣) .

فقال احدى الفتيات : ان ايزيس تحب الخير ، وقد ذكرت لي
والدتي أنها تحب الاطفال الطائمين . قالت نيفرت : ما ذكرته لك
والدتك حق لامراء فيه فان لأيزيس ولدا شغفت به حباً وهو هوروس
الصغير . وغير خاف ان الانسان اذا تحلى في حياته بالفضائل عاد بمد
وفاته طفلاً صغيراً ففتبناه ايزيس وتمزه وتكرمه وتمده بمساعدتها
وتشمله برعايتها حتى يشب ويترعرع ويصبح قادراً على القتال انتقاماً
لأبيه .

ورأت اثناء كلامها امرأة أثرت في نفسها هذه الرواية بما حملها على

(١) هذه الحقيفة التاريخية مستخرجة من كتاب الاموات
(٢) يؤخذ مما جاء في مقدمة اوراق البردى المنزوعة الى الدكتور ايبيرس مؤلف هذه الرواية
ومما ورد في كتاب الاموات أن ايزيس عالجت عين ابنها هوروس فاعادتها كما كانت
(٣) بسند المصريين الى دم آلههم ودموعها مزاجاً الحصب . وقد استقصى هذا البحث المسيو
(لوفيبورد) في كتابه تحت عنوان « عينا هوروس » ونشر (ناغيل) كتاباً في مدائح را أو
رع سمي اياه فيه (رمي) ومعناه الباكى . ويوجد في الكتابات المنقوشة على قبر سيتي الاول
مع الصور المثلة للذريات الاربع التي يتفرع منها افراد الجنس البشري ما ترجمته « انتم دموع
عيني » الخ

البكاء فدنّت منها وسألتها عن أمور أجابت عليها بما يفيد أنها فقدت زوجها ثم ابناها الأول في حرب الشام فالثاني عقب عودته الى مصر . قالت نيفرت : ما أسوأ حظك أيها المرأة . . . ولكن الواجب عليك التسلي عن فقدهما بالعمل لعلاج الجنود الجرحى . . . أتدرين ما فعلت ايزيس ؟ كانت ايزيس تحب زوجها أوزيريس كما كنت تحبين زوجك الذي رماك الزمان بفقده وكما أحب قريني مينا وأتفاني في الاخلاص له والمحافظة على عهده ، فلما وقع أوزيريس في الشرك الذي نصبه له سيت اللعين حارت ايزيس في أمرها وضاعت عليها المذاهب ، لأنها كانت تجهل المكان الذي احتوى جثة قرينها العزيز . فهي قد ذاقّت اذن من العذاب أضغاف ما تذوقينه ، ذلك لان قبر زوجها موجود تستطيعين زيارته متى اردت . أما هي فلا ، لأنها لم تهتد الى مكانه فأخذت تخرق البلاد وتجوّب الآفاق باكية نادبة حتى خشى على مصر أن يصيبها الجذب المهلك . ولما كان أوزيريس المودع لعناصر الخصوبة بين ذرات تربتها ، فقد كاد النيل يجف وتذوى الاشجار واشتد اليأس وعزت الحيلة ، غير أن دموع ايزيس سقطت في مجرى النهر فارتفعت فيه المياه حتى بلغت ضفتيه . ومن ذلك العهد الى الآن صارت النقطة الواحدة من دموعها تكفي لأفاضة النيل في كل عام بالبركة الوفيرة والخير العام وكانت المسكينة تصفى الى حديث نيفرت ، فلما جاءت هذه على آخره قالت : لقد ترك ولدي بموته أربعة اطفال فكفلتهم ، لأن أهمهم وهي تحترف بغسل الثياب للناس التهمها التمساح وهي تمارس حرقها على

شاطيء النيل وكان لا ينبغي لمثلى ان ينسى بشان الفير وهو عاجز عن
العناية بشان نفسه ولا أن أرثي لمصاب غيري اذا كانت المصائب محدقة
بي . . وهل تظنين اننا في هذا البيت كنا نشتغل ونقضى معظم الوقت
في العمل لفائدة الجرحي ، لو لم تندق علينا الاميرة بنت أنات جزيل
الاحسان ووافر الصدقات . . انه لما يضاعف الاحزان ويشير الاشجان
ان يتولاني الضعف والاضمحلال فلا أعود قادرة على تربية اربعة من
الاطفال .

ارتاعت نيفرت لسماع هذا القول الذي ما طرق مثله سمعها الامند
ثلاثة ايام فلم يسمعها ، وهي عاجزة عن مؤاساة تلك المرأة المسكينة
بمبارات العطف والرفق ، الا ان قصدت بنت أنات ورجت منها أن
تزيد مرتبها من فيض مكارمها . فلما شهدت الاميرة جزعها هذأت
روعها قائلة : هل لي ان ارفض رجاك ولا اقدر مسعاك وأنت الوزر
والعون لي على عملي ؟ . . تعالى معي الآن لتفقد أحوال الطاهيات فقد
أمرتهن بانضاج بعض الثمار والفاكهة وحفظها في العلب ليتذوقها والذي
واخوتي ، وسأرسل الي قرينك مينا حصته منها . فراققتها نيفرت الى
المطبخ حيث رأت الطاهيات يرتبن الثمار الذهبية اللون المحلوبة من
واحة آمون (١) في علب يحكمن اقفالها ويضمن الثمار المستوردة
من النوبة في أوعية أخر برسم الملك رعمسيس ، لتفضيله إياها على غيرها .
قالت : دعيني أضع هذه الثمار في الأوعية الخاصة بها . ثم أخذت ترتبها

(١) هي واحة سيوة

فيها ، يتخللها فواكه اخرى مختلفة الوانها ، فكانت كل طبقة منسقة على شكل جميل يروق العين مرآه . وكانت بنت أنات ترمق الطبقات على مختلف نسقها بعين السرور والارتياح . فلما أتمت نيفرت عملها صاحبها الاميرة قائلة : مالمست هذه الاصابع شيئاً الا وجعلته جميلاً ومحبوباً مثلها . ثم تناولت الورقة التي تلصق على الوعاء للدلالة على ما فيه وكتبت عليها « رتبته ونمقته قرينة مينا العريقة في الحسب ورفيقة بنت انات »

وبعد الغداء وصل الى القصر ليف من الناس سألوا عن الاميرة فبرزت لمقابلتهم ، ولزمت نيفرت العائلات الى أن آذنت الشمس بالمغيب ، وهمت هذه النسوة بالانصراف فاستوقفتهن نيفرت وقالت لهن : أن زورق الشمس يغيب وراء حجب الجبال الشرقية فلنبتهل الى الآلهة أن يحفظوا حياة الملك ويوقوا الغائبين عناشر العناء والهموم ، ولنفكر كل منكن في أقربائها وذويها المحارين في مواطن القتال . وأنتم أيها الاطفال اذكروا آباءكم بالخير وادعوا لهم بالنجاح والفوز . وأنن جماعة النسوة اذكرن ازواجكن ، ولنسأل آمون أن يعيدهم الينا سالمين كما تعود الشمس بعد غروبها الى الشروق ، ثم جثت على ركبتها فاقنصت بها الاطفال والنسوة . ولما نهض الجميع تقدمت اليها فتاة فجذبتها من أطراف ثوبها وقالت : بالامس قد أجلسنتني على ركبتى وشهدت اليوم أن صحة والدتي قد تحسنت فهل سبب هذا التحسن اني دعوت لها بالشفاء ؟ فربت نيفرت بيدها شعرها الاسود وقالت :

أجل ، أن سبب شفائها دعاؤك لها . ثم انصرفت للبحث عن بنت
أناث فرأتها متكئة على حاجز الشرفة ناظرة الى طيبة الاموات التي كان
الظلام ينسدل عليها شيئاً فشيئاً ، وماشمرت بوقع اقدام نيفرت حتى
انتفض جسمها لانها كانت سابحة في تيار الافكار . فلما رأت نيفرت
ذلك تراجعت الى الوراء قائلة : لعلى كدرت صفوك واقلقت راحتك .
اجابت بنت اناث : كلا يا عزيزتي انى اشكر الآلهة أن ساقوك الى
هذا المكان لا نس بك وأسرى عن نفسي الهموم والاحزان بمخالطتك .
قالت نيفرت بصوت خافت : تبينت الآن بواعث اشجانك واحزانك ،
انك مازلت تذكرين بنطاؤور . قالت : حقاً انى دأمة التفكير فيه
ولذا أصبح فؤادى ملتهقى هواجس وميول وعواطف لو انتزعت منه
لكف عن الخفقان وكان نصيبى من هذه الحياة الحرمان . يروون عنى
اننى انتهكت حرمة العادات وخرقت سياج الآداب وتهددوننى بعقوبة
ربما صرفتك عن مصاحبتي ، إذ لا أشق منها على مثلى فتكون النتيجة
حرمانى لطف معاشرتك والانس بك . قالت نيفرت : انى قسيمتك
فى الضراء كما انا شريكتك فى السراء . وما الذى يتهددونك به
 ويفرضونه عليك وانت كريمة مليك هذه البلاد والمتصرف فى رقاب
العباد ؟ اجابت : برزت للانظار كأحدى بنات الشعب وكان هذا من
فساد الرأى ولا بد من الرضاء بماقبتة .. دار بينى وكبير كهنة هيكل
آمون حديث تأكلى منه فضله وثبت عندى علمه ونبله ، واطلعت من
خلاله على أنه من ذوى البر ، فعقدت النية على العمل بنصائحهم ، لاسباب وان

والذى كان قبل رحيله الى مواطن القتال قد وصاني بالخضوع لامره
والعمل باشارته . ومما شرحة لى وايقت معه عظيم ذنبى اتى دخلت
أحد هياكل طيبة الاموات ملوثة بالدنس ثم عدت فدخلت بيت بينم
المحنط رغم تعزير الكاهن الاعظم لىباي لدخولى فيه المرة الاولى .
وقد اخبرنى أن جماعة الكهان قد اتهمت اليهم تفاصيل ما وقع لنا من
الحوادث يوم الاحتفال وما كان من تنكرنا واخفائنا على الناس حقيقة
امرنا . . . ابعمد هذا كله استطيع الامتناع عن التطهر ؟ ألا ترين أنه لم
يبق أمامى سوى إحدى سبيلين ، اما التماس الصفح من أمينى بعمد الاقرار
بالذنب امامه فى محفل حافل من الكهان والاعيان واما الحج الى هيكل
هاتور الزمردية ^(١) الهة المعادن المطهرة ، فمدها هو الفاصل بين الحق
والباطل وسرها وسيلة الطهر من الدنس . وهيكل هذه الالهة الذى
يقوم كهانه بتطهير الادناس على مسيرة يوم من المناجم ، والى جانبه
مسيل ينحدر الماء اليه من جبل سيناء المقدس كما يقول المانتو ^(٢) وهي
شقة بعيدة يقاسى المسافر فيها العناء ويتكبد احوال الصحارى والقفار .
وقد شرح لى كاهن آمون ضرورة الرضاء باحتمال المشاق وأوصانى بالغنى
عن استشارة أمينى فى امر ما حتى اتقى أذاه وهاء نده أرانى مضطرة الآن
الى العمل بنصيحته لاسيما بعد أن افتضح امرى وخيف أن يقتدى بي فيه

(١) كانت هاتور الهة المعادن والاحجار الكريمة وكانت تلعب بهاتور المفكات والمنكات نوع
من حجر اخضر ولعله يحرف من مسكات الذى معناه بالسان المصرى القديم الزمرد أو الزجاج
الملون بالاخضر . ويوجد فى القصر اليابانى بمدينة درسدن فى المانيا صورة الاله بتاح مصنوعا من
هذا الحجر

(٢) سكان جبال سيناء

غيري . . ان السكهان لسان حال الآلهة ، وقد قضى هؤلاء على
المدنسين بالتماس الطهر من الذنوب ، لافرق في ذلك بين كبير وصغير .
ومع علمي الآن بصواب هذه الاحكام أرى من الصعب علي نفسي
الخنسوخ لاوامر السكهان . . الست في الحقيقة ابنة رمسيس ؟ قالت
نيفرت : نعم أنت كريمة وهو من الآلهة .. فقاطعتها بنت أنات : علمني
والدي احترام القوانين ولذا ترينني حفيظة عليها محترمة لاحكامها عاملة
بنصوصها . . وقد دار بيني وبين الكاهن الاعظم حديث ثان في
موضوع آخر هو الزواج بالوالي آني . فانه غير خاف عليك أنه
طلب الاقتران بي فرفضت رفضاً الا ارتاب في انه من أجله سيدغضني ،
غير انني اصبعت في حيرة شديدة لان والدي اختاره وصياً علي ومشيراً
لي ، وليس في وسعي الآن الاستمداد بمعوثته ولا الاسترشاد بمشورته .
وكيف يليق بمثلي الركون اليه في امر وأنا أميرة ابنة أمير ؟ انني
أفضل ان أجوب الصحراء الف مرة علي ان اصم والدي الملك بوصمة
العار . . علي انني سأنتظر الي غد لاعتزام أمر ، ولكن لم هذا التردد
وهذا الارتياب . . لقد عقدت النية علي الرحيل وان تكن الشقة طويلة
والمصاعب جلية . فلا تجزعي إذن يا صديقتي ، لا تجزعي فقد عرفتك من
رقة الحاشية ونعومة الاعضاء بما لا تستطيعين معه اقتحام الاخطار
وتجشم مشاق الاسفار . وقد رغبت . . فقاطعتها نيفرت : ابدأ ابدأ !
لامناس لي من مرافقتك ولو كان السفر الي اعمدة السماء الاربعة (١)

(١) توجد علي تمثال تحوتمس الثالث الموجود بالدخف المصري هذه الكلمات « أنا آرون

أو أطراف البقاع المسكونة من العالم . وكيف لا أرافقك واليك يرجع
فضل وقوفى على أمور كثيرة كان زهدى فى معاشره الناس سبب جهلى
بها وتطورى الآن بطور حياة لم يسبق لى عهد بها . ألت أست أخاف إن
أنا عدت الى والدتى ان تذوى أغصان الافكار التى وضعت فراسها
فى قلبى وتمهدت نبتها بمواد النماء من فضل رعايتك وغزير علمك . .
ولا يذهبن عليك أن بيت مينا لا ينبغى أن يقبض على دفته سوى
واحدة منا نحن الاثنتين ، واذا كانت والدتى تريد أن تكون فيه صاحبة
الكلمة النافذة والامر المطاع على كل حال فجدير بى الا أعود اليه
الامع أليف حياتى وشقيق روحى مينا .

قالت الاميرة : يبدو لى من قولك انك مصرة على الرحيل ، ولكننى
أسفة لغياب والدى فانه لو كان مقيما بين ظهر ايننا الآن لفزعت اليه
لاستشارته وفضلت العمل بارادته . فتهدت نيفرت وقالت : اننى
لا أسفة كذلك ، ولكن هى الحرب لا تعرف أسفا ولا تفتح صيوان
أذنها لشكوى ولا يخفق قلبها لرثاء . ولست أدرى لماذا لا يقنع الرجال
بما قسم لهم من الخيرات ولماذا يطمحون دواما الى المزيد منها ويضعون
السلام لذلك على مذبح الحرب . قالت بنت انات : لو كانوا على غير ما
نلوم منهم لما اجبناهم الى مطالبهم بل لما ملنا اليهم . وهل رأيت منظرآ
أجل فى النفس اثرآ من بنطاور وقد حمل على قوم طاشت احلامهم

انتشر امامك الخوف حتى يبلغ الى اعمدة السماء الاربية » . وكانوا يريدون بهذه الاعمدة
النقط الاصلية الاربع أو حدود العالم كما يؤخذ من بعض النصوص

وضاع صوابهم وخاطر بحياته لينقذ روح طفلة بريئة من الذنوب منزهة
عن العيوب . قالت نيفرت : لم التفت الى ما وقع أمام بيت المحنط لما
تولاني من شديد الجزع ، ولكن لا يزال صدى صوته حينما كان يحمل
على أعدائه يرن في أذني . قالت بنت انات : هكذا يدوي صراخ
الشجعان حينما يتقهقر أمامهم الأعداء ويولون الأدبار . ودخل الأمير
راميري اثناء الحديث فسمع بعضه فقال : صدقت فهكذا يدوي صراخ
الابطال في الآفاق . فارتعدت فرائص بنت انات لأنها لم تكن رآته
اذ كان الليل ارخى سدوله ثم قالت : لقد أزعجتني والقيت الهلع في قلبي .
قال الأمير : كيف يبروك خوف ويملاً قلبك جزع ؟ قالت : كنت فيما
سبق لا أخشى امرأ ولا أهاب خطراً ولكنني منذ ليلة الاحتفال عراني
من الدهول ما صرت معه اخاف من لا شيء . ولعله أصابني مس من
شيطان أو عدائي بعدوى خلقه جبان . قال راميري : ما دمت صاحبة
الامر والنهي في كل مكان فليس من بطالك بالطاعة له . هذا وما
زلت أراك متأثرة بمحوادث ليلة الاحتفال . وانا أيضاً كلما فكرت فيما
كان من أمري مع السكمان وطردهم إياي من المدرسة وتذكرت جرأة
بعاكر حينما حرش بنا الكلب نالني من الفيظ ما حرك في نفسي
حب الانتقام ، ولكن حمداً للالهة فقد نصرونا عليه في الختام .
سألت بنت انات : وماذا كنت تفعل مذمنك عمنا آني من مبارحة
القصر ؟ اجاب : لا حاجة بي الى وصي يتولى شؤوني ويهيمن علي في
تصرفاتي ، ففي الشهر المقبل اناهي الثامنة عشرة من عمري . قالت : ولكن

أنسيت والدك وأنه .. أجاب مقاطعا : ان والدي يجمل دخيلة نفس
الوالى فهو غير ملم بما يدبره له من الدسائس وينصبه من الشرك ..
أما علمت ان أنصاره عاهدوه على الطاعة وحلفوا بالايمان التى لا فسحة
فيها ان يكونوا له عوناً على تحقيق مراده ، وما مراده فى الحقيقة الا ما
يتهامس به بعض مقريه من طموحه الى عرش الملك ، فهو إذأعامل على
ابرام التدابير المؤدية الى اسقاط والدنا الملك من عرشه . ولعلك
تتكبرين عليه هذا السمي وتستبعدين ان يفكر مثله فيه ما لم يكن طاف
به طائف من الجنون ، ولكن لا تنسى معنى المثل السائر « لادخان
بلا نار »

ما سمعت نفرت هذا الخبر حتى اصفر وجهها جزعا وسألت الاميرة
أخاها ان يوافقها بما عنده من تفاصيله فسردها كل ما انتهى اليه من اقوال
الناس وآرائهم وما تأكد له فى اثناء تنكره . ثم قال مبتسما : اذا حاول
آتى ان يسقط والدى مع علوة عرشه فيكون اشبه بنا فيما لو حاولنا
ان نستنزل من كبد السماء كوكب ايزيس لنوقد به ما نحن الان فى
حاجة الى الاستضاءة به من المصاييح . قالت نفرت : أرى فى الظلام
الذى نشر جناحيه علينا ما استحسنه . قالت بنت انات : كلا بل لا بد
لنا من الضوء اذ لا يستقيم الحديث معى الا اذا استجليت وجهه من
اخاطبه . ومع انى لست ممن يحفلون بما يدور من الاقاويل على السنة
العامة فلا بد لى من مكاشفة والدى بها . قال راميري : واغرب هذه
الاقاويل ما التقطته من أفواه الناس بمدينة الاموات . قالت الاميرة :

يؤخذ من كلامك أنك أعدت ثانياً إليها بعد مفادرتنا إياها . . ان كنت فعلت فقد أخطأت ولم تأخذ بالروية في عملك . قال راميرى : نعم فعلت متكرراً وقد وقفت بتكرري على أخبار يسرك سماعها ، فان وردة الزاهية قد تماثلت للشفاء وهي تقيم الآن في بيت خاص بها بفضل رعايتك وما اغدقت عليها من نعمتك . وهذا البيت كان خربة مهجورة على مقربة من كوخ جدتها الذي أحرقه المتظاهرون . فاستعان والدها ببعض الناس على اقامة جدرانها وتدعيم اركانها . وقد أخافى منظر هذا الرجل لانه جندي جاف كثيف اللحية بدين الجسم هائل الخلقه ، ليس بين وردة وبينه قرينة شبهه . فإذا كانت تشبه الأيكة البيضاء في رقها ولطف شمائلها فإنه كالفنغذ في خشونته وقبح سحنته . ولقد عرضت عليها ان تجيء الى قصرك الرفيع العماد لتزاول عملا مما تجزين عليه البنات الفقيرات خير المطايا واجزل الهبات فرفضت معتذرة بحاجتها الى مؤاساة جدتها والقيام على خدمتها ، ولكنني أعلل هذا الرفض بأنه مظهر من مظاهر الأباء وعزة النفس .

فحدثت الاميرة فيه وقالت : أحس أنك لبثت طويلا بين المدنسين ولم تتمتع بما وقع لي . قال راميرى : لست أرى بعد الكمال الذي بلغت الى أوجه باستقلال فكرك وقوة ارادتك مجالا تنزع اليه همتي وتسمو نحوه نفسي . ان المهنط الذين يقولون انه سبب البلاء وأصل الشقاء قد انتقل من دار الفناء الى دار البقاء ، ولم يبق غير والد وردة ، وهو رجل طاهر من الدنس وعاره . فأى بأس من الاختلاف اليه

واستجلاء اسراره؟ أما العجوز الشمطاء فقد بذلت في اجتنابها الجهد
وبهذا التحرز لا أرى ما يمنع من القصد الى بيته في القدر . ولقد عاهدت
على ذلك ولا بد لي من الوفاء بالمهد . سألت الاميرة : ولمن أعطيت
هذا المهد؟ اجاب : أو تعطى اليهود وتضرب الوعود لغير وردة ذات
الجمال الرائع لقد عهدتها شغوفة بالازهار وفهمت أنها لم تشم لها عرفا
منذ الوردة التي تكرمت فأهديتها اليها في زيارتك الاولى لها . ومن ثم
امرت مباشرة الحديقة بتنسيق باقة أنيقة سأحملها اليها بنفسى . قالت :
أحجم عن هذا الفعل أحجم وعليه لا تقدم، فأنت فتى لا تحسن النظر في
المواقب . وان كنت ممن يحبون لها الخير والنفع فلا تجعل لك بها صلة
والا كان لعاقبتها سيء الوقع .

فترى وجه راميرى وقال : انا الآن في معزل عن الوشاة والرقباء
ولهذا أكاشفك بدخيلة نفسى دون ان اهاب أحداً . . ان كنت تريد
منى الطاعة لك فهاء ندا مقرباً لك بها ، بدليل انى اترك عندك باقة الازهار .
بيد أن هذا لن يحول دون زيارتى لوردة وتفقدى حالتها . . ان وردة
غادة فتاة للعقول بروعة جمالها ورشاقة قدها وورد خدها ، جذابة
للقلوب بمحاسنها التي لا يحصيها العمد . . ولم تقع قط عيني على امرأة
تضارعها في محاسنها ، الا ان يدي نيفرت اللتين تضرب بدقتهما وانفالت
اصابعهما الامثال تشبهان قدميها . ولقد دار بيني وبينها الحديث على
شؤون كثيرة وتناول حديثنا الشاعر بنطاور فخبرتنى أنها تعرف
والده مباشرة البستان وتلم من أموره بما لا يعلمه انسان . ومما اقله عنها

انها لا تعتقد أن هذا الشاعر ولد البستاني ، وانما هو ملك هبط من سماء
الخير والاحسان ، وقد يكون إلها جاء بالبركة والفيض العميم . ولقد
كانت في بدء حديثها يقظة شديدة الحذر والاحتياط في حياء واحتشام ،
ثم انطلقت في الحديث فما نطقت باسم بنطاؤور حتى انطلق لسانها بتقريره
بما استخلصت منه أنها تحترم هذا الشاعر أو تكاد تعبده . ولقد غاظني
منها ميلها اليه وعطفها عليه . قالت بنت أنات باسمه : إذن ترى نفسك
أولى من بنطاؤور باحترامها واعجابها . قال : كلا وانما آس في نفسي
سروراً لا يوصف كلما جلست الى وردة ، ثم انى انظر اليها بوصف انى
انقذتها من الهلاك كما أنقذها بنطاؤور . ولقد اعترفت ان انضد الازهار
في شعرها الذى يشبه شعرك غزارة واسترسالا وان اختلف عنه لونا ،
فهو اشقر ذهبي اذامسه الانسان بيده من أصوله الى فروع احسن
حالا بالنبطة والهناء .

فتبادلت بنت انات ونيفرت عندئذ نظرات لم يفهم معناها سواهما
ثم التفتت الاولى الى أخيها قائلة : بني العزيز ! نصحتك ألا تذهب الى
طيبة الاموات فلم فعلت ؟ . قال راميرى : سأنظر غداً فيما ينبغى أن
يكون من اقدام على الزيارة أو احجام عنها . ثم اعقب هذا المزح بالجد
فقال : اعلمي يا شقيقتى انى حدثت أنا انا أحد رفقتى السابقين بمدرسة سيقى
فيما يقع بها من الظلم والحيف ، فقلت له ان بنطاؤور ملقى في السجن وأنه
حوكم بالامس في حضرة عمنا الوالى الذى كان يريد به الاذى والشر ، لولا
معارضة الكاهن الاعظم الذى جهر لا ميني بأنه يشمل بنطاؤور برعايته

ويسبغ عليه درع حمايته . ومع أن هذه الاخبار بلغت الى علم الطلاب
فانهم ما زالوا يجهلون ما تم في أمر الشاعر . وكل ما اتصل بهم انهم سمعوا
أميني يقول لجابو : انه يستحق شديد العقاب ، ولكني لا أسمع لاحد
باعدامه . . فالرجح عندي ان يكون بنطاؤور هو المقصود بهذا القول .
واذا كنت عقدت النية على الذهاب غداً الى المقبرة فها هو في الواقع الا
لاستطلاع الحقيقه إذ هل يبعد أن يكون حكم الاعدام أبداً بمقوبة
السجن عدة أعوام ؟ ..

ما سمعت بنت انات هذا الكلام حتى امتنع لونها وصاحت : انا
سبب ما نزل بهذا للمسكين من المحن والمصائب ، فيا أيها الآلهة اسمفوني
واظفروني بحاجتي . ثم اعتمدت رأسها وخرجت مهرولة . فقال راميري
لنيفرت : ماذا حصل بشقيقتي ولم تغير لونها . . وأنت لم تبدل من
حالك ؟ أجابت : تختلف أحوال الانسان باختلاف ظروف الزمان . قال :
وما تعنين بهذا الكلام ؟ أجابت : لا تطلب مزيداً من البيان وكل ما
اقوله أنك ستري مغبة تلك الظروف اذا بقيت مصراً على زيارة بيت
المحنطين والمدول عن نصائح المخلصين .



الفصل السابع

﴿ تأمر العواطف على الحب وتأثيرها في القلب ﴾

في بكرة اليوم التالي جاز القزم نيمو مع رجل عليه رداء قاتم اللون بالخربة التي اتخذتها وردة مسكناً لها مع أهلها . وكانا يقصدان سيراً على الاقدام الى مغارة الساحرة ، فلما وصلا اليها قال القزم : ليتفضل مولاي بالانتظار هنا ريثما اخبر بوصوله والدتي العجوز . قال الرجل : اخبرها ألا تصوت باسمي فاني أحب ألا يخيلني الناس الا قوماً كثيرين غيري ، ومع هذا فانا في غنى عن هذا التحرز اذ لا يستطيع أحد ان يقف من امري على شيء مادمت متكرراً بهذا الزي . فهرول نيمو الى المغارة ، وقبل ان يلتقي بالعجوز وجهاً لوجه صاحت به قائلة : لا تترك سيدك الشريف وحده خارج المغارة فليس هذا من الادب اللائق في شيء ، ولست مجاهلة اسمه وان أخفى عليّ رسمه . فرفع نيمو سبابته الى شفته اشارة الأمر بالسكوت وقال بصوت خافت : ان مولاي لا يجب التعريف بنفسه وهو يرغب في تسميته بالقيم . قالت العجوز : هب أنه كذلك فما هو الا كالنعامة تخفي رأسها تحت جناحها واهمة ان احدا لا يراها . سألتها القزم : وهل طالت زيارة الامير لوردة ؟ أجابت ضاحكة : وهل هناك بأس اذا اجتمعا وهما طفلان يمرحان . . ألا يشبه راميري الحمل الصغير الذي لم ينبت قرناه بعد، وانما يشعر بالمسكان الذي

سيذرن منه ويودّ ان لو يستطيع الانتفاع بهما؟ فالاولى بك الالتفات
الى من هم أشد بأساً وأصعب مراساً من راميري كالشاعر بنطاؤور
خصمك اللدود، ولكن دعنا الآن من هذا الحديث فانه مما لا يليق
ابقاء القيم على جمر الانتظار .

قالت هذا ودفعت القزم بقوة ساعدها فانطلق مهرولا نحو الباب
حيث كان الوالى واقفاً بزى المتنكر، ثم أخذت الطفل شرعو المسكين
الذى كان مثبتاً فى آلة تقصير القامة فألقته بداخل المغارة وغطته بكيس
قماش قائم اللون اخفاء له عن النظر . وبعد هنيهة دخل الوالى فلما رآته
المجوز حنت رأسها اجلالاً ودعته الى الجلوس على الكرسى الوحيد
الذى تملكه فلم يجيبها الى هذا الرجاء فألحت عليه أن يجلس قائلة : اجلس
من فضلك ولا تخف أن يراك من بطن الوادى أحد ، ثم اخبرنى
ماسبب زيارتك اياي فى هذه الساعة ؟ أجاب : أمر جلل أنا منه فى
حاجة الى استشارتك والنزود بنصيحتك . ولقد كان فى قدرة الاحراس ،
وقدمد الليل رواقه ، ان يقبضوا على لولا أنى بهذا الزى تنكرت فلم
يبدأوا نى . على انى لبست تحت ثياب التنكر ثيابى العادية كي أتمكن
بعد مفادرة هذا المكان من التوجه الى المقبرة ظلم ذلك الزى والتعجيل
بالأوبة . وسأعتذر للامة بأنى خرجت لزيارة قبر والدى فى أحقر زى
وسائر على القدمين وفاء بنذر نذرته من قبل . قالت : صنيع حسن
وفعل مستحسن . قال : كيف لا وتلميذك نيمو هو الذى دبر تلك
الحيل فاصاب فيما فعل ؟

لما قصت العجوز على آنى روايتها التى كشفت له بها عن سر مولد بنطاور وسردت له ماسبق هذه الرواية وماتلاها من عجيب الحوادث لم ينظر اليها بوصف كونها تلك العجوز الفقيرة الحقيرة التى قوس الهرم ظهرها ، بل باعتبار ما كانت عليه سالفاً من غض الشباب والجمال الفاتن الالباب ، وشعرت هي بهذا العطف فبالغت فى احترامه ، حتى ان رأسها حينما انحنت امامه كاد يلامس قدميها . وكان بجوارها غراب استألفته ففزع من منظرها الرهيب ونعق نعيماً لبث بعده فانغراً فاه ، فألقت العجوز اليه بقطعة من الجبن فتوثب الى مكانها لالتقاطها ، ساجباً على الارض جناحيه اللذين اثقلهما الضعف اذ لم تكن فيه قدرة على رفعهما والاستعانة بهما فى الحركة والطيران .

أما آنى فقد قال لها : أريد الحديث معك فى شأن بنطاور . قالت : ولم ؟ أجاب : لآنى ارى فى وجوده خطراً يهددنى بل حائلاً دون اصابة الاغراض التى اليها أرمى . ثم انه ارتكب جريمة القتل بالاعتداء على الابرياء ، بيد أن كهان هيكل سبتى يبغون اعفائه من العقاب لمنزلته من نفوسهم . ولا يذهب عليك أنهم ينتحلون لانفسهم حق محاكمة بعضهم البعض ويدعون بأنه ليس لمثل أن اجرح حكمهم الذى اصدروه عليه بانفى الى محاجر رحنو^(١) غير مكترئين بأمرى . ثم نظر الى نيمو وقال : اذهب يا نيمو لتنتظرنى عند قبر امينوفيس

(١) محاجر رحنو هى جبل السلسلة الآن وهى التى استخرج قداماء المصريين منها الاحجار التى بنى بها أغلب المعابد والصعيد

فانى اريد الحديث مع والدتك فى امر خطير .

قال : سمعا وطاعة يا مولاي . ثم سار واثقا بأنه لسوف يحيط علما بكل ماسيفضى الوالى به الى الساحرة . وما اختفى عن الانظار حتى وجه الى المعجوز فجأة السؤال الآتى : أما زلت مقيمة على عهد الولاء للاسرة الملكية السابقة التى شهرت عشيرتك بالاخلاص لها ؟ أشارت بالايجاب . قال : اذن فأنت لاتضمنين بمساعدتى على المطالبة بسرير الملك وهذا ما اغتبط به . ثم انك تعلمين بلاريب أنه لاغنى لى عن الكهان وانهم أخذوا على عهدك بان لاأوصل الى بنطاور أذى : ومع هذا فمازلت أشعر بقلق فى نفسى وانزعاج فى ضميرى من هذا الشاب ، لا سيما وقد أبلغتتى العميون التى بثتها فى بيت سبتى أن الكهان اذ حكموا عليه بالنفى الى محاجر رحنو كانوا يقصدون الى جعل عقوبته مقتصرة على نحت الاحجار مدة قصيرة من الزمن ، فى حين ان هذه العقوبة ليست بالشئ المذكور لرجل مثله شديد القوى وثيق الاركان ، بل ربما كان النحت رياضة له وتمرينا فتزداد اساطينه قوة وفصوصه اندماجا . ثم ان فى رحنو كما تعلمين مدرسة للكهان تابعة لبيت سبتى . ومن العادات المرعية أنه اذا فاض النيل وارتفعت مياهه الى الحافتين اقيمت لذلك اعياد^(١) يجتمع فيها الكهان لانتخاب ثلاثة من المجرمين

(١) ينحصر النيل فى جهات رحنو للشار إليها وقد اقيمت بها فى عهد رعمسيس الثانى وخلفه متفتح اثار اسطوانية الشكل نقشت على سطحها الاناشيد القدسة التى كانوا ينشدونها ويبتغى القرايين التى كانوا يقدمونها لمناسبة تلك الاعياد . وقد استخرج الدكتور ابريس وصديقه استرن معانى هذه النصوص وقابلوها على الملوم من غيرها . وربما كان الاحتفال الآن بزور النقطة أو وفاة النيل أثر تلك الاحتفالات التى برجم فضل اقامتها الى رعمسيس الاكبر .

المحكوم عليهم بالنفي مع الاشغال الشاقة في المحاجر لاتخاذهم خدمة لهم في الهيكل . ومما لامراء فيه أنهم في الاعياد المقبلة سينتخبون بنطاؤور ويطلقون سراحه فتنطلي بذلك حيلهم ويتم مبكرهم . قالت العجوز : يبدو لي أنهم يبغون الاستخفاف بك والافتئات على حقوقك ، قال الوالى : لقد راجعت نفسى وضربت اخماساً لاسداس واستشرت راتوتى ونيمو فرأيت أن العمل بمشورتهما وبما تنصرف اليه نفسى ربما جرّ الى مشكلة تدعو الحكمة الى اتقائها ، فما رأيك أنت ؟ قالت وقد بدت على وجهها علامات الاكتئاب : لامفرّ لك من ابادة ذرية آسا عن آخرها . ثم اطرقت رأسها هنيهة وقالت : ورأى الحكيم ان تجعل ثقباً فى السفينة التى سيرسل المجرمون عليها الى رحنو ، فاذا ما توسطت النيل هوت الى قاعه فيلقى بنطاؤور حتفه مع من يفرقون ، قال : قد خطرت هذه الحيلة ببالى و اشار بها القزم ولكنها حيلة عتيقة عملت بها اكثر من مائة المرة فشاع امرها وافتضح سرها ، دعي أن أمينى لابد أن يتهمنى وقتئذ بنقض العهد والحث فى المين التى اقسمت بها ألا اوصل الى بنطاؤور أي أذى . قالت : قلت حقاً وليس بمستغرب ان ارى الرجال يوفون بالعهد بينهم ثم لا يحافظون عليه مع غيرهم . واذا لم ترق لك تلك الحيلة فاليك حيلة اخرى احق بالاتباع منها وأخرى ، وهى أن تأمر ربان السفينة التى سيركبها المحكوم عليهم باجتياز محاجر رحنو فى ظلام الليل ، والاستمرار على الصعود فى النهر الى مدينة أسوان ، فيبعث بالمجرمين الى معادن الذهب فيما بلى الصحراء

وربما اقتضت اربعة اسابيع او ثمانية قبل أن يطرق الاسماع في طيبة
هذا الخبر وتداوله الالسنه . فاذا رأيت من اميني التذمر والغضب
فتظاهر بالحنق على الربان وبالغ في تعنيفه لما تمعد ارتكابه من الغلط
بأيعازك ، فإن أميني لا يستطيع وقتئذ أن يحتج عليك بأنك أردت
ينطاؤر شرآ . وفي غضون ذلك يسهل عليك بما توافر فيك من لباقة
وحدق ، وبما عرف بما كر به من عسف وتجبهر أن تحقق أملك في
الاستواء على عرش الملك . أما الايمان والمهود فأنها تصبح أوهي من
بيت العنكبوت ، وومتئذ يمكنك أن تترك بنطاؤر بمعادن الذهب لان
الذاهب اليها لا يعود منها . . ألم يمت والدى وشقيقي فيها ويضت
الشمس عظامهما .

قال آني : ان أميني لا يسلم بوقوع الغلط . قالت العجوز : اذا لم
يصدقك فاكشف له عن وجه الحقيقة وزد عليها أنك لما تبينت الحيلة
التي دبرت لا تقاذ بنطاؤر من العقوبة في رحنو ، أبت نفسك أن يبقى
هذا المذنب جامعاً في غوايته وأن تهان حرمة القانون بمثل تلك التدابير .
ومتى علم منك بوجود الشاعر في معادن الذهب استفسر عن أحواله ،
فاذا أيقن انه على قيد الحياة صوتب الكهان رأيك واستحسنوا فعملك ..
هذه نصيحتي اليك فاعمل بها ولا تحمد عنها اذ لا يسع القيم الذكي القصي
مرامي النظر في العواقب مثلك الا أن يجعلها نصب عينيه ما دام طامحاً
الى الاستئثار بالدار التي وكلت شؤونها اليه . قال آني : عندي اعتراض
على هذا الاقتراح وهو اني لست في إغنى عن مساعدة أميني ، ولست

احب ان أصبح العوبة في يديه فيغلبني على أمرى وبشاركنى في سلطاني
فهزت المعجوز كنفها استنكافاً ثم دخلت المغارة حيث غابت هنبهة
ثم خرجت ويدها قنينة وقالت : خذ هذه القنينة فان أربع نقط منها
تكفي اذا وضعت في قليل من النبيذ لاصاعة الصواب . وما عليك الا
ان تجربه في أحد العبيد لتعلم صدق قولى وتؤكد سرعة تأثيره . قال
آنى : وماذا أستفيد منه ؟ قالت ضاحكة : تستفيد منه اقناع أمنيى بأنك
لم تهتك للقانون حرمة ولم تجر عن قصد السبيل ، وكيفية ذلك ان تبادر
بلقاء الربان عند عودته من اسوان وتقدم له قدح نبيذ فيه أربع قطرات
من هذا السائل ثم تبعث به الى أمنيى فاذا تأكد له أمره وعلم أن به
خبلا فانه لا تبقى عنده ريبه في تجاوزه موردة رحنو وابتعاده عنها الى
الجنوب . قال آنى : عجباً لك يا بيكى ما أعظم قدرتك على جعل المستحيل
ممكناً . ولكن لا محل للعجب ، وقد فتنت الناس بمحاسنك الباهرة
وصرت أمهر امرأة وأحذق ساحره . قالت المعجوز : لست أسمى بيكى
فان بيكى قد انقضت أيامها ودالت دولتها . وانما اسمى نىخت فادعنى
بهذا الاسم . قال آنى : لا بأس ، الا اننى أفضل صوت بيكى الرخيم على
نعيب نىخت المعجوز .. على أنه لا يحمل بي ان أفارقك ، وأنت أرضن
نساء طيبة عقلا وأحذق تدبيراً وأوسع حيلة ، قبل أن أوجه اليك سؤالاً
وهو . هل لك فى اخبارى بمحوادث المستقبل وأسراره ؟ واذا استطعت
ذلك فهل ترين أن سعيى سيكلل بالنجاح ؟ لا أخالك الا عارفة بما أرمى
اليه من المقاصد .

أطرقت نىخت رأسها برهة ثم قالت : لأستطيع أن اخبرك الآن
بنجاح سعيك أو فشله . صوب نظرك الى هذين البازيين المقيدين
بمخليهما ، ان الذى سقط ريشه وهبطت جفون عينيه هو رعمسيس .
أما الثانى المنحلى بريشه الزاهى اللون وعينه البراقتين فهو أنت ، إلا اننى
لا أدرى أيهما يموت قبل صاحبه . فالتقى آنى على الاول نظرة احتقار
واشمزاز بيننا كانت العجوز تقول : اننى اعامل البازيين بالسواء ، لا
افرق بينهما ولا انخيز لاحدهما ، وللقضاء المبرم حق الاختيار . فجزع آنى
ولم يتمالك أن أخرج كيس نقوده والتقى به الى العجوز قائلاً : ارجو
منك العناية بأمرهما ليتيسر لك اخبارى بعاقبة أمرهما . ثم تحفز
للانصراف قائلاً : اذا طرأ حادث على أحد البازيين فابمئى نيمو ليخبرنى
به : وبيننا كان آنى يتوارى عن العيان ملتمساً الطريق الموصل الى قبر
والده تمتت العجوز بهذه الكلمات : انك لأحمق معتوه ، تجملنى فى
عهدك وتحت رعايتك لاجل بازيين لا تأثير لهما فى الحظوظ ، ثم تطمح
بعد ذلك الى الجلوس على أريكة الديار المصرية . . لقد كان رعمسيس
فاقد الرشده حائر الصواب حين أنابك عنه فى الحكم على هذه البلاد .
ولعله تعمد اختيارك من بين الاغبياء ليتقى شرك . فاذا كان هذا هو
ما ارتاه فقد سقط آنى فى مهواة الغرور ، وعادة الحمقى والاغبياء اذا
عجزوا عن العمل بالحكمة والرؤية ان يقتحموا المصاعب دون ان
يتدبروا فى العواقب .

الفصل الثامن

— ما حدث اثناء الوداع من مظاهر الوجد والالتىاع —

خرج آنى من مقبرة والده بعد ساعة . متشعاً بأفخر الثياب واستوى في مركبته فر بمغارة الساحرة وكوخ والد وردة . وكان نيمو جالساً يحدد اليها النظر ويتوثب في مكانه غيظاً وحنقا ، لانه كان يرى من خلال الحاجز شبح إنسان جالساً الى جانب وردة .

وما كان هذا الدخيل سوى الامير راميرى متشكراً بزى كاتب من كتاب الخزينة ، جاء ليسأل عن بنطاؤور ويستقصي أحواله . وقد رصع شعر وردة الجميلة بوردة زاهية ، وجعل همه عند وصوله المبادرة بترصيع شعرها بهذه الوردة مسوغاً هذه المسارعة بأن الوردة كانت مخفية في طيات ثيابه وأنها اذا بقيت فيها طويلاً غشيها الذبول . وقال أيضاً في تسويغ فعله أنه لو بدأ بزيارة بنطاؤور لطلال مقامه عنده واضطر الى الأوبة الى طيبة قبل أن يتمكن من استجلاء محيا تلك الغادة الفاتنة ولأزعج غيابه اخته بنت انات فترسل بعض أعوانها في طلبه . أما الآن وقد تحققت أمنيته وتأكدت بعفته ، فهو يحسب نفسه من أهل السعادة والتوفيق .

وكان قلب راميرى فى جلوسه الى جانب وردة يخفق سروراً وابتهاجاً برويتها . ولولا أن المموم أخذت تساوره لمخالفته القوانين

بالدخول في بيوت المدنسين واخفائه حقيقة أمره عن العالمين ، لشيب سروره بالكدر . ثم أنه لم يكتف بذلك بل تعمد البهتان والكذب ، إذ قال لوردة انه من حاشية بنت أنات . ولما كان الكذب يجر الى الكذب فقد اضطر ، في جوابه على أسئلتها الى حشو كلامه بالاخبار الملفة ليتوافر الطباق بين مقدمات الكذب ونتائجها . وبالجملة فقد كان الشرف في هذه المعاهد المدنسة متفاقاً اكثر منه في بيت سیتی أو قصر فرعون . ثم حلق راميرى بفكره في جوّ هذه الخيالات ، غير أنه كان يرغم نفسه على انكار صحتها . لأن سیت الذي يسلط المواصف على الارض ويحرك القلوب الساكنة ، كان قد نفخ فيه من روحه ففدا لا يرى في مرامي نظره سوى غرض واحد يعني اصابته ، وهو أن تكون وردة في عيشة راضية ومرتبة سامية . وعال هذا الانمطاف بأنه لا يليق بها ، وهي في ذلك الجمال الباهر والحسن الزاهر أن يكون مهبطها بين اقوام ضربت عليهم الذلة والمسكنة ووصموا بالعار والدنس وباعوا بغضب من الآلهة .

وكان وقت وصوله الى فناء الكوخ لم يقع نظره عليها وانما سمع صوتها وقما هبت من مكانها لتزجر الكلب الذي هرّ عند رؤيته هريراً شديداً ، فلما ابصرت به تراجعت الى الخلف فزعة وقالت : لم عدت الى ما وانا المدنس وقد أنذرتك بأن جدتي ارملة أحد المحنطين المدنسين ؟ قال راميرى . لست بمجيشي هنا أقصد جدتك وانما أقصدك أنت لاستجلاء محياك السني والتلذذ بمحدثك الشهي . . وأرى أنه لا مانع

قاطع يعنى عنك اذ لا علاقة بينك والقوم المدنسين . وهل من عجب
اذا تفتحت أكام الورود في وسط الرمال أو بين الجمود ؟ قالت وردة
في ثبات واطمئنان : اننى ابنة والدي الجندي وحفيدة جدى المحنط
الذى ذهب فريسة الفدر والحقد والظلم . ولست أعرف معنى العقوق حتى
أجدهما أو اتبرا منهما . . انى لهما مادمت على قيد الحياة ، وكل الصلات
تربطنى بهما ولا صلة بينى ومن يترفع عنهما ، لان من يقدم على هذا
الفعل ثم يود أن أفارقهما يكون كمن يبغى ان يترع قلبى من بين جنبي
قالت هذه الكلمات ثم نظرت نحو الباب ، فجذبها راميرى اليه
وقال : لو قيس الصخر بقلبك لكان ألين منه وأعطف . . أنت تعلمين
أننى بذلت فوق المستطاع من الجهد لا تقاذك وجئت اليك دون أن
يحدثنى وسواسى بأنك . . آه . . من الحقائق الثابتة عندى أن ليس
بينك ومن تدعين أنهم أقاربك جامعة شبه . . ولا يسؤك منى هذا
الكلام وإنما ينبغى لك تدبر معانيه وادراك مراميه لتوقنى أن كل مشتهاي
أن لا تهبط عواهنك أعباء الدنس . ومن ذا الذى ان إراك لا يشعر فى
نفسه بالحنين اليك والعطف عليك ومحبة الخير لك ؟ . . ان سيدتى بنت
انات نفسها قد . . كلا ! من المستحيل أن تكونى . . قاطعته وردة :
أن أكون من زمرة المدنسين ! ثم أطرقت رأسها قليلا وقالت بصوت
جهورى : ان وصمة الدنس التى ألصقت بنا ليست الا ظلماً فادحا والا
لما كان جدى على ما عرف به من الفضائل والكمالات .
قالت هذا وانغرورت عيناها بالدموع فابتدرها راميرى بقوله :

اني مشايخ لرأيك ، ولكن يتعذر على المرء أن يبقي محافظاً على الفضائل
والكمالات اذا ظلت الفضايح محدقة به ونظر الناس اليه بعين الاحتقار
والمقت. وقد أيدت التجارب ما أقوله ، فانه ان لامني احد على أمر فانه
يشير في صدرى عواصف الفيض منه والحقد عليه بخلافه لو مدحني ، فاني
أشعر في نفسي بدافع على إيتاء المعروف . ومع هذا فان خلطاني وأودائي
ملزموه باحترامي واجلال عشيرتي في معاملاتهم معي ومعهم . فقاطعته
وردة : أما نحن فلا نصيب منهم غير الازدرامو التحقير . هذا ما يستخلص
من قولك ، وإنما يجدر بك علم أنه لا ينبغي لامرئ ان يأبه للناس
أصابوا في حكمهم عليه أم أخطأوا مادام واثقاً بأنه لم ينحرف عن
جادة الفضيلة . وإذا كنا في حالة تستدعي الاهتضام والاستدلال كما
تقول ، فلدينا من الاسباب ما يدعونا الى الرضى بها وإيثارها على سواها .
لانكم معشر العطاء الطاهرين من الارجاس المبرئين من العيوب يخالجمكم
الشك أحياناً في حقيقة مراكزكم فتتوهمون انكم أقل خطراً مما أنتم في
الحقيقة ، بخلافنا نحن فانا لو ائقون الوثوق كله بأننا اشرف قدرا وانه
ذكر مما تظنون وأننا نحن المألون فوق ما شاء ظلمكم واضطهادكم أن
نكون في حضيضه متنكسين .

قال راميري : ان ما ذكرته هو مجمل رأي فيك وإنما لا ينب عنك
أن في هذا الوجود انساناً يقدرك تقديراً خاصاً ويضعك في أسمى المراتب
وأسناها ويقر لك بالرفعة التي لا تطاول والمجد الذي تطمح اليه العيون
وهي يا وردة أنك غير خليفة بالاحترام والاعجاب ، فثلي من لا يسمعه أبداً

إغفال أمرك . قالت وردة : ان ما مرّ بخاطرك من هذا قد مر مثله
بخاطري . اذ بينا كنت نهبالهوا جس وأنا على مقربة من مرقد جدتي
خيل لي أنه لو كان لي أخ مثلك لعشت في الهناء والنعيم المقيم . ثم أتعلم
ماذا كنت اصنع لو انك كنت لي شقيقاً ؟ قال : ماذا كنت تصنعين ؟
اجابت : كنت اشترى لك جوادين كريمين ومركبة فتذهب الى ميدان
القتال لتجارب الاعداء وتذيقهم مع فرعون النكال . سأل : أو عندك
مالٌ يكفي لاشترائها ؟ اجابت : نعم عندي ، وهو ما تسلمته منذ ساعة
فقط . . . أو تعرف القراءة ؟ اجاب : نعم أعرفها . قالت : لما أصابني
الجرح في صدري عاذني طيب من بيت سبتي ، وهو رجل حاذق في
فنه عارف بمهنته الا أنه غريب الاطوار شاذّ العادات ، فانه مثلاً كان
يكفّ عن تصويب النظر اليّ والتحديق بعينه في وجهي كما يحدث
السكران في الناس مستثبناً . وكان يتعاجم متلعماً بلسانه ، سأل : أليس
اسمه نبسشت ؟ اجابت : نعم هو بعينه ، وكان يحدث جدى في أمور
غريبة . ولقد عمل لنا خيراً كثيراً بعد حادثة الاعتداء التي دافعت أنت
وينطاؤور فيها عنا ثم توارى عن أنظارنا فلم نعد نراه الا اليوم منذ ساعة ،
فقد عوى الكلب عواء طويلاً فخرجت من الكوخ فوقع بصري
على شيخ قال لي انه اخو نبسشت وأن هذا الطيب أودعه مالا طائلاً
برسمى وعهد اليه أن يسلمني خاتماً ذكر عند تقديمه اليّ أنه يكفي أن
أبرزه له ليسلمني الوديمة على الفور ، ثم تلا هذا على سمعي ، فتناوله
رامبرى من يدها وقرأه بصوت عال فاذا فيه ما يأتي :

« من نبسشت الى وردة الجميلة — ان نبسشت يهدى سلامه الى وردة ويخبرها بأنه كان مدينا لجدها ينم الذي توفي وأخذ المخطون يحنطون جثته الآن بمثل العناية التي تحنط بها جثث العظماء ، بمبلغ الف حلقة ذهباً فمهد الى اخيه يتألف هذا المبلغ عنده ليكون تحت طلبها في أى وقت تريده . ولها أن تثق بتيتا وأن تأخذ المبلغ منه ، وانما الافضل والامثل ان ثمره أو تشتري به بيتا للسكنى أو ارضاً للزرع . فاذا فعلت ذلك فانها ستميش مع جدتها في أمن وورغد وهناء . وكل ما يسأله نبسشت منها ان لا تزوج أحداً قبل مضي عام واحد من تاريخ هذا اليوم لانه يحبها حباً جماً . فاذا انقضى الثلاثة عشر شهرا ولم يعقد عليها كان الخيار لها في الاقتران بغيره ، وانما عليها في هذه الحالة تكليف مترجم الملك بالبحث في الخاتم الذي تركته والدتها وحل رموزه »

ما كاد راميرى يأتي على ختام هذا الكتاب حتى صار كالمزول به ، فقال : ان هذا الامر لمن الغرابة بمكان . ومن ذا الذي يصدق أن ذلك الطيب الشاذ الخلق الرث الثياب يبلغ به الكرم الى حد البذل بكل ماله ، ثم ما هو الخاتم الذي أشار في رسالته اليه ؟ وقد نشرت وردة ثوبها فأبرزت منه الخاتم الذي كان لآلاء احجاره الكريمة يحنط البصر . قال راميرى : ان فصوصه من حجر اللاس الثمين فلا بد أن يكون رفيع القيمة نادر المثال وهاء نذا أرى وسط هذه الظفرة^(١) البيضية الشكل حروفاً منقوشة لا استطيع حل رموزها . . سأطلع مترجم الملك على هذا الخاتم . أكانت

(١) الظفرة حجر العقيق اليماني

والدتك تتختم به؟ أجابت : لقد عثر والدى عليه في ثيابها عقب مماتها ،
وكانت خرساء من سببايا الحرب فلم يهتد أحد الى معرفة موطنها ولا الى
حقيقة أمرها . قال : لا ريب عندي في أنها من أسرة شريفة لان الابناء
سر الوالدين . . فأنت أميرة صغيرة اذاً يا وردة . . ما أسعد طالعي بك
وما أكبر حبي لك ! قالت باسمة : لعل الخوف الذي امتلأ به فؤادك
فجعلك تملو علي علواً كبيراً قد زال الآن . قال : لست أرضى منك
اساءة الظن بي الى حد تتوهمين معه اني أرفع من قدر نفسي بمقدار ما
اضع من منزلتك ، فلقد قضيت يوم أمس وليته ممثلاً بحبك الزاهر
لخاطري . والافذا سبب سهادي وقادني الى هنا اليوم؟ قالت : تكلم
لا أدري السبب .

فاستخرج راميري من طيات ثوبه الوردة البيضاء وقدمها الى
وردة فأخذتها منه بيد مرتجفة ، وقد علت وجهها حمرة الخجل واعتراها
الدهش ، ثم قال : أنا أعلم أن هديتي هذه من عبث الصبيان ، ولكن
لا يسعني قبل تقديمها اليك الاستئذان منك في ترصيع شعرك الناعم
بها . أفتعدين علي نعمة هذه الخطوة وتحقيق أمنية طالما عللت النفس
بقضائها؟ أجابت : ما أجل هذه الوردة والطف شذاها العبق . .
ما رأيت في حياتي وردة تشبهها في لونها اليقظ وشذاها العطر . قال :
إنما هذا الجمال مستمد منك واليك يسند ، فدعيني أزين بالوردة شعرك
بل أزينها بهذا الشعر الذي يفوق حرير (صور) نعومة ملمس وأشعة الكواكب
الدرية امتداداً واسترسالاً . . ها قد رشقتها والحمد للآلهة ان ثبتت في

مكانها . . لا تضحى يدك عليها . . لو رأيتك الهوا تير^(١) السبع لا صفرت
وجوههن حسداً وكداً . . ألسنت في الحقيقة أبرع منهن جمالا ؟
فتنفست وردة الصمداء وتوارت خجلا ثم عادت فقالت : ما أبرعك في
المداهنة والملق ، ثم حددت في الامير النظر وكانت عيناه تقدحان
كالشرر لتأثر وجدانه بحب وردة التي لم يتالك أن أخذ بيدها فوضعهما
على قلبه لتحس قوة ضربانه وسرعة خفقانه ويتأكد لها هيامه بها ،
وسألها بعد هنيهة ، أشعرت بخفقان قلبي وعلمت مقدار حبي ؟ أنا لأهنا
براحة يا وردة إلا إذا أجبتي الى أمية أخرى هي في نظري أهم من
تلك ، وأرجو أن يكون اغتباطي بها أعظم منه بها . . أفتسمحين لي
بقبلة يا وردة . . بقبلة واحدة ليس إلا ؟ فتراجعت الفتاة الى الخلف
فزعة وقالت : كلا . . لقد فهمت الآن سر أمينتك . . ولم يبق عندي
ريب في أن المعجوز نىخت قد وقفت على أسرار الرجال وان نصيحتها
لي كانت في محلها من الصواب . . سأل : ومن هي هذه المعجوز ومن
أين لها الوقوف على أمرى والاطلاع على سرى ؟ أجابت : أنباتني بأنه
قد حان الوقت الذى سيدنو منى فيه رجل يجاذبني أطراف الحديث في
الغرام ويمعن النظر فى وجهى ، فاذا نظرت اليه كما ينظرني هم بلثم شفنى
وأوصتنى بأن أدعه وشأنه لا أنظر اليه ولا أحدثه قائلة لانتى ان مكنته
من تقبيلى فقد خولته القدرة على انتزاع روحي من بين جنبي . ومتى
أصبحت بلا روح تسلطت عليّ أرواح الشياطين فلا يهدأ لى بال ولا

يستقر حال بل أكون كالريشة في مهب الرياح تدفعها المهاوى وتلقظها
البحار وتطردها السموات ، فأليك عنى أيها الصديق واعلم انه يشق
على أن أضن عليك بقبلة ، ولكن أبروق لك أن أصبح بلا روح فأهيم
فى الأودية والبيداء وأقضى حياتى فى التمس والشقاء ؟

سأل راميرى : وهل المعجوز تحب الخير وتصطنع المعروف ؟
فأومات وردة بأيماء تفيد السلب ، فقال الامير : ليست هى بلا ريب
من ربات الخير والمعروف لكذبها عليك . وجديرى أيها العزيزة أن
أمزج روحي بروحك لا أن انزعها من بين جنيدك كما تدعى تلك
المرأة منبع الضلالة والكذب فتندمج الروحان وتصيران روحاً واحدة .
وهل من سبيل الى ما دون ذلك لمن هو على شاكلتنا رقة قلب ولين
عطف ؟ قالت : أحب الى أن يتحقق قولك ، فقد سبق لى ان شعرت
بأثر من مدلوله فى نفسى . ألم أكن ، قبل أن ألزم الفراش ، كلما
قصدت الى ضفة النيل لجلب الماء أطيل المقام على مقربة من الساقية لما
كان يستوقفنى من منظر مياهها دافقة وقطراتها متناثرة ، وما كان
ياخذ بلبى من انطباع ضوء القمر بسفائه الباهر على كل قطرة منها فتبدو
كمرآة صغيرة للناظر ينبعث منها نور يخطف سناؤه الابصار ، فيرى
الرائى من الاقار قدر عدد القطرات وماهى فى الحقيقة الا قرأ واحداً
يسبح فى كبد السموات . . شهدت هذا المنظر الانيق فجال بخاطرى
تعدد القمر وهو واحد فقلت أن ما وقع عليه منه لما يجوز أن يقع مثله
على القلب . . حقاً . . ليس للمرء الا قلب واحد ، ولكن يظهر أن من

الحبة والعطف تنبعث قلوب كثيرة لا تسلب القلب الاصلي قوته ولا
تخفف من حرارته ولا تهدي من خفقانه . واذ كان القلب قابلا للتجزؤ
والتعدد فلسوف اخصك بنصيب منه بعد ان اوزع الانصبه الاخرى
على من اوليتهم حي واخلصى وهم جدى وجدتى ووالدى وشراعو
الصغير والآلهة . . وبنظاؤور . قال راميرى : أويكفي نصيب واحد من
انصبه عديده ؟ قالت : أرايت هذا النصيب الذى تستخف به ايضا لته ؟
فانه لسوف ينطبع فى نفسك قلبا كاملا كما ينطبع القمر فى كل قطرة من
رشاش ماء الساقية ؟ فيبدو كأنه اقمار بقدر عددها . قال : صدقت فى
تشبيهاك . نعم ذراعيه لعناقها وكانت تضطرب استحياء . فلما اطرقت
رأسها قبلها قبله سجلت بين روجيهما عهدا وثيقا وربطتهما برباط متين ،
فلم تمالك وردة بعد ذلك أن قالت : اليك عنى ا عجل بالانصراف من
هذا المكان . قال : ان تأذنى لى بالبقاء هنيهة بين يديك فانك تولينى
نعمة وسعادة لن انساها أبد الدهر . . هلمى بنا نجلس على ذلك الكرسي
ولنا من هذا الخايز ستار يصد عنا عين الرقيب . . ثم لم نخشى الرقيب
وما أماننا الا الصحراء مترامية الاطراف الى أبعد مدى ، وما حولنا
ديار ولا نافع نار ؟ قالت وردة وقد علتها علامات القلق : لم تتوارى
عن الانظار اذا لم يكن فى دنوك منى ما يستدعى وخز الضمائر ولا
مؤاخذه السرائر . قال راميرى : أظنين ان ما يعمله الكاهن الاعظم فى
قدس الاقداس شر وباطل ؟ كلا ! انا نربأ به عن فعل الشر ، ولكنه
رغم ذلك يتوارى فيه عن الانظار . قالت وردة مبتسمة : ما أقوى حججتك

وأوثق قدرتك ولكن لا عجب ان يكون عارف القراءة والكتابة مقنعا ومتلقى العلوم عن أميني هماما قديرا . قال راميرى : لست تلميذ الكاهن الاعظم وانما أنا تلميذ بنطاور وهو استاذى المحبوب ومع حبي له واجلالى لمقامه فان قلبى يكاد يتمزق غيظاً منه وكراهة له ، كلما ورد اسمه على لسانك ، انت تفضلينه على وعلى كثيرين غيرى . . . نعم ان ذلك الشاعر قطرة يتلألأ بالانعكاس فيها سناقر محبتك ولكنى لا أحب منك ان توزعى قلبك على الكثيرين من الناس لهذا الحد !

قالت وردة : لم تحدثنى بهذا الكلام ؟ ألا تحترم نفسك ووالدك والآلهة معا ، وهم مع ذلك أنفاس متعددة ؟ على أن نصيبك من حبي أعظم من نصيب الآخرين ، لاننى لم أحب احدا منهم بقدر ما احببتك . ألم تر أن التأثير العجيب الذى أشعر به الآن ، وقد وضعت ثغرك على ثغرى يشبه الشعاع منبعثاً من القمر ؟ وهذا الشعاع ألم يكن شبيهاً بالاشعة الشمسية فى حرارتها وشدة نفوذها ؟ وهذه القبلة التى طبعها بطابع شفيتك ألم تكن كجذوة نار سرت حرارتها الشديدة فى جسمى . . . اننى كلما أفكر فيك وأمثلك لخاطرى لأناجيك أفقد أسباب الراحة ولايهناً لى بال . ولطالما مددت نظرى الى الباب أسائل نفسى أيتنازل منقذى ومخلصى من مخالب الموت ، ذلك الفتى ذو الشعر المرسل الى الكنفين . . . أيتنازل بالحضور الى هنا ليرمق بعينه أسيرة فضله وصنيعه مروءته أم يأنف من زيارة فتاة فقيرة حقيرة مثلى ؟ فلما جئت محققاً بمجيئك ماهو مظنون بمثلك ومقدر فيك قلت فى نفسى لقد سألتنى الايام وهادتنى

صروف الزمان ووافقتي بما كنت أطمح اليه من العز والسعادة . فمليك
إذا بالصدق في حبك والاستقامة في سيرك والا جذبتك من شرك
المرسل هذا . .

قال راميرى : اجذيتني منه ماشئت فإنه لا يلحقني ضرر من جذبك
مهما يبلغ من قوة ، ولكنى سمعت من كلامك ما ينفذ الى الفؤاد ويعزق
الاكباد . . انك تؤثرين بنطاؤر علي ، ولا عجب ، فبنطاؤر أوسع
علماً وأكثر فضلاً وأرفع مقاماً وأسرع نجدة . قالت وردة بمجد : كل
ما استطيع ان اقوله في هذا الموضوع انه رجل لا نظير له بين الرجال ،
ولو أنه حاول تقبيلي مثلك لذهبت أمامه هباء كالر ماد ، تعطيه حرارة
الشمس في رأي العين صلابه وقسوة فاذا لمس بطرف البنان استحال
ترايا تسفيه الريح . ولو انه أقدم على ذلك الفعل لتراجعت خوفاً من ان
يلامس ثغره ثغرى وملئت رعباً وفررت امامه فرارك من الاسد . ولك
أن تسخر مني وتضحك على ما تجذني عليه من سذاجة الطبع وما رما تعده
حقاً وبلاهة ، ولكن هذا كله لا يمنعني من الاعتقاد بأنه اله هبط من
السموات . ولقد خبرني والده يوماً أن معجزة ظهرت في اليوم التالي
لميلاده ، وكانت كثيراً ما تكلفني المعجوز بالذهاب للسؤال عنه . وهو
مع أنه من العامة حسن السيرة طيب السريرة . وكان كثيراً ما يطنب
في مدح ولده ، ومن كلامه لي فيه انه كان يقول الشعر صغيراً وانه تعلم
القراءة والكتابة بلا معلم وأن أمي رأه يوماً فأدخله بيت ستي بعد إذ
تأكدت له براعته وعمق ريته . وكنت يوماً مع ابيه فإشار الى شجيرة

عريضة الاوراق كثيرة الازهار وقال لي : ان ولدي يضارع هذه
الشجيرة التي نمت أمامي وامتدت أفنانها دون أن أعرف سر نموها ولا
كيفيته ، وكل ما في الامر انني كنت اشترت بذوراً من طيبة وجدت
بينها بذرة واحدة أجنبية الأصل فأنبئت هذه الشجرة التي لا يعرفها
الزارعون في بلادنا ، ولم يستطع أحد ان يوقفني على أصلها ، وهي مع
ذلك ملكي وغرس يدي . وهكذا شأن بنطاور ، فانه لا يشبه والدته
ولا اخوته ولا أحدا منا ، فجسومنا صغيرة ناتئة العظام في حين أن
جسمه واف وقوامه لدن ولون بشرتنا أسمر ولون بشرته كالورد ولهجتنا
خشنة وعبارته مهذبة عذبة . وهذه الفروق تحملني على الحكم بأنه أحد
ابناء السماء وضعته الآلهة في مسكني الحقير . ولقد أبصرت بنطاور في
الاعياد فتساءلت أبين الكهان من يدانيه جمالا وكالا وعلما وفضلا ..
أما أنا فتبينت فيه بعض أمارات الالهية ، كيف لا وقد شهدته يضارع
جموع الناس فيصرعهم لوقايتي من شر عدوانهم . أفلا أحترمه بعد هذا ،
وأنا كلما وقع عليه بصرى تجمد الدم في عروقي لتأثر وجداني ولا أحير
قولا لحصر لساني اكل ما أستطيع ان أوضحه لك يا صديقي من الفرق
بينكما ان فؤادي يخفق خلفان فؤادك متى التقى شعاع بصرى بشعاع
بصرى . أما بنطاور فاني اذا رمت استجلاء طلعتة عز علي هذا اللرام
ما لم أحلق في جو الخيال واصعد الى السماء بأجنحة الوجدان . ولا تنس
انك لي كأكليل غض ناضر نطق بالورود الزاهية الطيبة ورضع بالأزهار
التي تفر العين بمرآها ، كما أنه لي كالشجرة المقدسة الثابتة الأصل الملتفة

الافنان التي تمنو لها الجياه اجلالا واحتراما .

كان راميرى يسمع هذه المقارنات اللطيفة ساكنا ساكنا . فلما انتهت وردة منها قال : انا ما زلت في غضاضة الشباب ومقتبل العمر ولم آت من جلائل الاعمال ما استحق من أجله وصفك إياي بتلك النعوت الجليلة الجميلة : غير اني اطلب اليك ان تصبرى صبرا قليلا جميلا فانك لا تلبثين ان ترفعي بصرك اليّ بعده لا كما ترفعينه لرؤية شجرة مقدسة بل الى شجرة حمير يجب ظلها الوارف ابن السبيل التماس الراحة تحتمها بالتفيؤ بها واعلمي يا وردة ان سرورى قد انمحت آيته كما تنمحي آية النهار وانى اعتزمت مزايلة هذا المكان ومفارتك لكي اقتدى بينظاؤور في فضله وحكمته وسمو أدبه وكرم خلقه حتى اذا تم لي هذه القدوة ما أطمع اليه من تنقيف عقلى وتهذيب نفسى صرت اكليلًا جميلا من الورد اسرح الطرف في حسنه الشائق وامتع النفس بشميم عطره الطيب الأرج . ولقد سمعتك الآن تشبهينى بذلك الاكليل وهو تشبيه لا ينطبق على الرجال اذ هو بالفتيات الفاتنات مثلك أليق وعليهن أطبق . وليس في الرجال من هو أبغض الى نفسى ممن يشبه الورد الناضر والزهر الزاهر ا ثم قام من فورهِ وصافح وردة فقالت له : أرى في يدك قوة وصلابة فلعلك تستعين بها على عمل الخير واصطناع المعروف . وقد كان من شدة فعلها في يدى أن تركت بها هذا الاثر الاحمر كما ترى . . ولكن لا تظنن أن هذه اليد الصغيرة لا تقيد أحداً ، فان من أقل مزايها تخفيف الآلام عن توكل اليها العناية بامرهم من البائسين والمنكوبين . ولقد كان

جدى يقول على الدوام ان يدي تجلب السعادة وتبشر بالشفاء . أتري في ذلك المكان أشجار الزنبق والرمان وقد تفتحت ازهارها ؟ جاءني جدى يوماً بشيء من طمي النيل وأعطاني والدبنتاؤور بذوراً غرستها فيه فلم استطع استنباتها الا بتمهدها بالري في الوقت المناسب . فخذ زهرة الرمان هذه فانها أول زهرة تفتحت اكمامها من هذه الشجرة . وقد قالت لى جدتى يوماً لما رأتها آخذة بالتكون والتطور والاكتساء بالاكمام وأنها تحمر بتأثير قبلات الشمس لها في كل يوم « ان قلبك سينفتح قريباً ياورده كما انفتحت هذه الزهرة الجميلة وبرزت من ثوبها السنديسي » . وقد ادركت الآن مغزى كلامها فخذ هاتين الزهرتين فهما لك :

تناولها راميرى منها فوضع الحمراء وهي زهرة الرمان على ثغره كأنه ياشمها ، ثم مد يمينه لمصافحة وردة فتراجعت الى الخلف بفتة ، لانها رأت من خلال الحاجز شبح إنسان ماراً . ولكن لم يلبث خاطرها ان اطمأن حينما علمت أنه شراعو الصغير الذي كانت العجوز الساحرة تعمل على تقصير قامته لتجعله من الاقزام ، وقد اكتسى بالاحمرار وجهه الجميل لاسرعه في المشي . ولم تستطع وردة أن تقف منه على خبره ، لما اعتراه من التعب الذي أعجزه عن الكلام . وكل ما بدا منه أنه كان يرمق راميرى بعين الحذر والريبة ، فأدركت وردة أن وراء الاكمة ما وراءها واستدرجته بعد الملاحظة والمواساة والاخذ باللين الى التحدث ، فهمس في أذنها انه يبغى الحديث معها في خلوه ، فقالت :

ان هذا الواقع بجوارنا صديق لي حميم فلا تخش بأساً . قال : ان ما
عندي من القول لا يتعلق به بل بينطاؤور المقدس الطيب الذي أظهر
من دلائل الرحمة بي والحنان علي ما يقصر عن وصفه اللسان ، وأقام
الدليل على نجده وشهامته بانقاذه إياك من المعاطب . قال رامبري : اعلم يا
هذا اني أريد الخير كله لبنطاؤور . ثم التفت الى وردة وقال : ألا ترين
ياوردة ان بإمكان هذا الغلام التحدث اليك أمامي بما في نفسه دون أن
يخشى فضحا لاسراره . قال شراعو : سأحدث دون خوف ولاوجل ..
انتهزت غفلة العجوز نيخت فعمدت الى الفرار من وكرها قاصداً الى
هذا المكان . ومؤكد أنها لو وقفت على الحقيقة لبادرت بالحضور الى
هنا وعاقبتني بحرمانى الغذاء الذي أقيم به أودى . فلما سمع الامير كلامه
عبس وجهه غضباً وقال : ومن تكن تلك العجوز الغادرة ؟ قال شراعو :
عند وردة خبرها .. واسمع الآن قبيح فعلها معي .. طرحتنى
أرضاً بداخل وكرها في اللوح الذي اخترعته لتقصير القامة ثم ألقى
عليّ قطعة قماش لتسترني بها . ولم ألبث على هذه الحال هنيهة حتى أقبل
نيمو ومعه رجل كانت تدعوه « حضرة القيم » فأنشأت تحدثه في
شؤون لم أفهم المراد منها ، ولكنني سمعت مع ذلك اسم بنطاؤور فابرزت
رأسي من تحت الغطاء فسمعت كل ما دار من الحديث بعد ذلك .
وخلاصة ما فهمته ان حضرة القيم كان يقول عن بنطاؤور أنه شقي عنيد
يعوقه عن بلوغ مراده وتحقيق أمنيته ، وان الكاهن الاعظم كان عازماً
على نفيه الى محاجر رحنو فاعترض عليه بخفة هذه العقوبة وانها لا

تناسب الجرم الذي ارتكبه . فلما سمعت المعجوز ذلك أشارت عليه بأن
يأمر ربان السفينة التي تقله الى المنفى باجتياز موردة رحنو والذهاب به
الى معادن الذهب التي كانت كثيرا ما تروعي بها قائلة ان والدها
واخوتها ماتوا جميعاً فيها . قال الامير : والواقع ان من ذهب اليها لا
يعود منها . قال شراعو : ولم أفهم ما قيل بعد ذلك سوى أنها ذكرت
شرايا اذا تعاطاه أحد جعله مجنوناً . وليس هذا كل ما سمعته ورأيت في
وكر المعجوز التي تمذني كل يوم بوضعي في لوح لتقصير القامة ، فان ما
يقع تحت حواسي من حوادثها المزعجة يجملني أوثر الموت على الحياة .
ثم أخذ شراعو يبكي ويئن فلاطفته وردة حتى هدأته ، فقال
راميري : تلك حوادث غريبة ومزعجة معاً . ثم التفت الى شراعو وسأله :
ومن هو القيم الذي كان عندها . . ألم تسمع باسمه . . طب نفساً وقرعينا
يا صديقي الصغير وكف عن البكاء ، واعلم أن حياة بنطاؤور قد أهدقت
بها الاخطار ويجب علينا ان ندفعها عنه . ولكن لا بد لذلك من معرفة
اسم القيم الشرير . أفلاتذكره ؟ فمض شراعو على شفقيه ليسكن نائرة
نفسه ثم أخذ يفتش في ثيابه البالية فلم يلبث ان صاح قائلاً : اصبر قليلا
فربما تعرفه من الصورة التي صنعتها على مثاله . قال الامير ، وقد دهشه
هذا القول : كيف ! . . ومن ذا الذي صورته ؟ قال شراعو : هو . .
القيم . . ثم اخرج من طيات ثوبه البالي تمثالا ملفوفا في خرقة واستأنف
حديثه فقال : بينا كان القيم يتكلم ظهر لي احد شقي وجهه فصنعت له
مثالا من الطين الذي كان عندي ، واظنه جاء طبق الاصل . قال هذا

وازال اللفائف عن التمثال بيد مرتجفة ثم قدمه الى وردة . فلما وقع نظر
راميرى عليه لم يتمالك ان صاح : هذا آتِي بعينه . . من كان يدور
بخلده انه يريد بينطاور سوءا وبم أساء هذا اليه حتى يستحق منه الخيانة
والعذر . ثم أطرق رأسه مفكراً وقال بعد هنيهة : لقد أدركت السر
الآن ، إن آتِي طامع الى الاقتران بينت انات ، وحيث لمي يا وردة
اصبحت عاشقاً لك ومتفانياً في حبك وعالماً بما للمشق من الصولة على
القلب ، فقد تبينت من أحوال الاميرة اموراً أشير الى ما يتلجج في
نفسها نحوه من النفور أو الميل . . لست أستطيع يا وردة البقاء على انكار
الحقيقة التي يؤلم اخفاؤها قلبي ويخز ضميري . لم أك غلاماً من حاشية
بنت انات بل انا شقيقها وابن الملك رعمسيس . . ولقد رأيت الخاتم الذي
تركته لك والدتك واستوضحت حقيقة أصلك . ألا تدرين أني لو كنت
في مرتبة اسمي من مرتبة الامارة بل لو كنت هوروس ابن الآلهة ايزيس
لما حدثت عنك فتيلاً ولا انخذت منك بديلاً . واني لهذا اعاهدك على
الوفاء والصدق مع الرعاية المتواصلة لك ما دمت حياً . . لقد حان
الرحيل وجاء وقت ينبنى فيه لمثلي ان يعمل بعقله الراجح ورأيه الرصين
لا تقاذ بنطاور من محالب الموت ، فسلاماً عليك ووداعاً لك يا وردة عند
من لا تضيع الودائع عنده .

هم الامير بالرحيل فجذبه شراعو من أطراف ثيابه سائلاً إياه :
أنت ابن رعمسيس ؟ قالت المعجوز في كلامها عن أبيك الملك انه كالنسر
الذي تعرى من ريشه لهرمه وعجزه . قال الامير : اذا كان هذا كلامها

في حق ابي فلسوف يحس آني نفوذ مخالب النسر الملكي في جسمه .
ثم التفت الى وردة قائلا : استودعك الله ثانياً ، ثم مد اليها يده فلمتمها
بشفتين كانتا كجذوتي النار حرارة ولونا ، فجذب راميري يده بلطف
وجذب معها وردة فلما دنت منه قبلها بين عينيها ثم انصرف .

وبينا كان ينطلق مهرولا كافت وردة تشيعه بنظرات تشف عما
عراها من التأثير . وقد مر برجل عرفت هي بزيه وسجنته انه ابوها ،
وكان مقبلا عليها لوداعها قبل سفره ؛ اذ صدر اليه الامر بمرافقة الاسرى
والسير معهم في الصحراء . سأله وردة : والى أين توافقهم . إلى رحنو ؟
أجاب : كلا بل الى الشمال . فروت وردة عليه ما اتصل بها من خبر
بنطاؤور ورجت منه أن يساعده على النجاة . قال : لو ان معي شيئا من
المال . . . فابتدرته وردة قائلة . عندنا ما يكفي وزيادة . ثم قصت عليه
هبة نبسشت وقالت : عليك يا أبت أن تساعدني على عبور النيل ، فما
هي إلا ساعة حتى يكون في قبضة يدك ما يكفي لجعل الفقير غنيا
والمعدم مثرى^(١) ، ولكن كلا ، فجذتي طريحة الفراش وليس لديها من
يعنى بأمرها ويتوجع لمصائبها فعذ انت هذا الخاتم واعلم أن بنطاؤور قد
جر العقوبة على نفسه بسببنا ، لانه دافع عنا دفاع الابطال وعاملنا بشهامة
الرجال . قال : ما برح خيال هذا الشهم مرسوما في ذاكرتي واني
لأبذل حياتي بل ايعمها رخيصة في التحيل لنجاته . غير أني اتمنى التوفيق

(١) كان للنساء في مصر حق التصرف في أموالهن . وفي الورقة السابعة من أوراق البردي
المخطوطة بباريس صورة مخالصة بين ارسيزيس بن احد عنطى طيبة واسكيباس زوجة أحد
دافني اناوني أو خادمه وكان ابوها مدينا لزوجها أو مخدوما

لانجاح ماخطر بخاطري الآن من التدبير الذي ارمى به الى الحيلولة
دون ذهابه الى معادن الذهب . وقد عاهدت نفسي على ان لا أتعاطي
نبيداً وان استعويض عنه الماء ليخلص دماغى من شوائب الخبل
والاضطراب ، فلا يطيش سهمى أو يذهب سمي أدراج الرياح . قالت
وردة : هاك يا أبت قليلا من النبذ المزوج بالماء . . اجرعه بالصحة
والعافية ثم اذهب فى قضاء مهمتك وعد عاجلا لتبشرنى بخير ما فعلت .
قال : تمعذر على اجابة سؤلك لاني راحل فى انتصاف الليل ، ولكن
اذا جاءك رسول بانخاتم من عندى كان ذلك آية توفيقى للنجاح فيما
اردت . فلما سمعت وردة هذا القول دخلت العش فدخله ابوها على
أثرها ليستأذن من أمه فى الرحيل ليودعها ، ثم قال لفتاته : ان ما تحمفتك
الاميرة به من الهدايا السنية كاف لقضاء مطالبك حتى اعود . اما أنا
فيكفينى نصف المبلغ الذى تبرع لك به الطيب . . ولكن لم لا أرى
زهرة الرمان التى اقتطفها الآن ؟ اجابت وردة : وضعتها فى مكان
حريز لصيانتها . قال : عجبا للنساء فى طباعهن وميولهن . ثم قبل جبين
ابنته وسار سيراً حثيثاً فى الطريق الموصل الى صفة النيل .

وكان راميرى فى هذه الاثناء يحدد فى السير جاغلا وجهته موردة
المقابر التى تبرحها السفن المخصصة لنقل الاسرى ليلا ، ليستجمع البيانات
الدقيقة عن السفينة التى تقرر سفرها الى محاجر رحنو . فلما وصل اليها
عبر النهر ودخل القصر الملكى حيث اجتمع بأخته ونيفرت فألفاهما
فى وجد وقلق اذ ابلفهما رئيس التشريعات نقلا عن بعض حاشية آنى

المخلصين لفرعون أنه أمر بوقف تصدير المراسلات الى الجيش المصرى فى الشام، ولو كانت من ابناه رعمسيس اليه . وأيد الخبر عند بنت انات أن أحد الحجاب المقيمين على الولاء لرعمسيس وافاها بنياً اعترام آنى تنفيذ تدبير يقصد به اغتصاب الملك وطلب منها أن لا تأمن جانب نيفرت بالنظر لما بين والدتها وآنى من الصداقة الوثيقة المرى .

ولما بدا لبنت انات انه لم يبق ريب فى طموح آنى الى الاستيلاء على صولجان الملك بدلا من والدها نبأته بزمها على الرحيل الى هاتور الزمردية لتلمس الطهر فى معبدها المقدس . ولكنها كانت تريد فى الحقيقة موافاة والدها منه، وهو قريب من الشام، بما يدسه له الوالى من الدسيسات ويدبره من المكائد ولاستثذانه فى التوجه الى المعسكر الملكى . ولقد فأنحت صديقتها نيفرت فى هذه النية فكادت تطير فرحا وابتهاجا لأنها كانت ترجوان يهد لها الرحيل مع بنت انات طريق اللقاء بزوجها المحبوب فلم يسمعها الا أن تحضها على إنفاذ عزمها وإعداد المعدات اللازمة له .

ولما سألهما راميرى عن أحوالهما أخبرتاها بما جد من الحوادث . فقص الامير عليهما ما اتصل به من الاخبار وألمع الى شقيقته أنه وقف على حقيقة ما اعزمته، وكان يتوخى فى لهجته الظهور على خلاف عادته بمظهر الجد والرزانة . ولهذا أيقنت بنت انات ان هناك أخطارا تهدد العرش من جراء الدسائس التى يدسها الوالى لاغتصابه .

وقد استحسننت الاميرة ما اتخذته راميرى من الحيلة للذهاب

بعد غروب الشمس الى جهة (قطبوس) مصحوباً بثقة خبير بحوب
الصحراء والوصول معه را كيين متون الجياد الى سواحل البحر الاحمر،
وان يستأجرا من هناك سفينة فينيقية تنقلهما الى آيلا (العقبة)
ويجتازا بمدئذ الجبال الصخرية الممتدة في شبه جزيرة سيناء ويلحقا
بالجيش المصرى لايقاف رعمسيس على ما يدبره آتى له من الدسائس
ويحيكه من الحيل لنزع زمام الملك من يده . وأخذت بنت انات على
عهديها انقاذ بنطاور، مستعينة في أداء هذه المهمة برئيس التشريفات .
وكانت ترجو تحقيق الآمال لا سيما والخزينة عامرة بالأموال ، ينفق
منها الخازن ذات اليمين وذات الشمال ، وهو من المخلصين للأسرة
المالكة . وانما الصعوبة الوحيدة كانت في التغلب على ربان السفينة
بجمله على توجيهها صوب رحنو لاصوب الجنوب كما أوعز اليه به . لان
نكية الشاعر بالمقام في رحنو أهون منها به في معادن الذهب . وقد
اتفقت آراء الجميع على انفاذ رسول ثقة الى حاكم رحنو ليسلمه كتابا
فيه أمر ملكي بضبط كل سفينة تمر ليلا بالقرب من أسوار المدينة
وحجز الاسرى المحكوم عليهم بالنفي الى الحبشة لاستخراج الاحجار .
وقام راميرى بعهذا الاتفاق فاستأذن من شقيقته ونيفرت في الرحيل
من طيبة ففادرها دون أن ينتبه أحد .

أما بنت انات فقد سجدت امام التماثيل الاوزيريسية لوالدها
وأمام تماثيل هاتور وصور الآلهة حفظة الأسرة المالكة ، وظلت تدعو
وتبتل الى ان عاد رئيس التشريفات فاخبرها بنجاح مهمته لدى ربان

السفينة اذ استكتبه عهداً بالوقوف تجاه محاجر رحنو وبأن لا يبلغ الى
آنى مخالفته الامر الصادر اليه ، فطابت نفس الاميرة لهذا الخبر .
وكانت قد اعتزمت ، فيالو امتنع الريان عن الامتثال لارادتها ، التوجه
الى موردة المقبرة لمنع السفينة من مزايلة مكانها .

وفي اليوم التالى اقبلت راتوتى على القصر تبغى اللقاء بنيفرت
ومحادثتها فى أمر ما ، فأبت بنت انات مقابلتها وبادرت نيفرت باستقبالها
فما هي الا هنيهة حتى طرق الاسماع صوتها رافضة ما اقترحته واذتها
عليها من العودة الى بيتها والعدول عن السفر مع الاميرة لتأمن عليها
من اخطار الطريق . ولما يئست راتوتى من اقناعها بالامتثال لها قصدت
الى آنى من فورها والتمست منه العون على منع نيفرت من مغادرة
الديار وأغرته بها اذ طلبت منه القبض عليها فى خروجها من أبواب
طيبة ومعاملتها بالقهر والشدة حتى تعدل عن مرافقة الاميرة فى رحلتها
الخطيرة . وكان آنى يود من صميم فؤاده أن تبرح بنت انات مدينة
طيبة كيلا يعونه وجودها عن تحقيق مقاصده الاستقلالية ، فأجاب :
لهبدأ روعك فقد عولت على ان ارسل فى أثرها من يتولى منهما ، اذا
ما دخلتا هيكل هاتور ، من مغادرته فتبقى الاثنتان به حتى يتم لنا الامر
ويتيسر لك تزويج نيفرت من بما كرالفظ اذا كنت مصرة على عزمك .
وفي اليوم التالى ودع الوالى بنت انات وصديقتها نيفرت وشيمعما
بما يليق بهما من مظاهر الاجلال ، ثم انصرف . وأخذ ركب الاميرة
سمته الى مرسى السفن فشيئها اليه كهان هيكل آمون ، وفى طليعتهم

الكاهن بك ان شونسو . وكان المرسي غاصباً بوفود الناس على اختلافهم تقاطروا من كل ناحية لتوديع بنت أنات . فلما أن بلغت اليه صاح هؤلاء الوفود صيحات الهتاف وانطلقت السننهم بالدعوات يستمطرون عليها بها وافر البركات . وقد اندس بين الحاضرين رهط من خصوم رعمسيس فاستطالوا في حق ابنته الراحلة بالسب الفاضح ، إلا أن اصواتهم به لم تبلغ مسمعا بل تلاشت في اصوات الجموع الزاخرة وأدعيتهم تقتواترة . وكانت سفينة حجاج هيكل هاتور تتبعها سفينتان كبيرتان الملان عدداً وافرأ من الجند . وكانت ريح الجنوب شديدة ، فكورت أشعة السفن الثلاث ودفعتها الى الامام صوب مصب النهر ، فصوبت بنت أنات بصرها الى القصر الملكي وما حوله من الحدائق الغناء ، ثم الى ناحية المقابر والهياكل الباذخة ، وظلت شاخصة فيها تارة وفي القصر طورا حتى اختفت تلك المشاهد والمعاهد عنها خلف حجاب الافق ، ولم يبق أمامها وخلفها الا النيل تحف به ضفتاه يمنة ويسرة . عندئذ قاضت عينها الاميرة بالدموع ثم تنفست الصعداء لما رأت من حولها الصحراء مترامية الاطراف الى أبعد مدى وأحست بشعور جعلها تظن بنفسها أنها برحت قصر أبيها ملتزمة الفرار أو مغلوبة على أمرها ، وان قد لحق بها الهوان والصغار . ولكنها لم تلبث أن عاودها الأمل فوطنت النفس على الصبر ولقاء كوارت الزمان بالثبات والجلد . ثم دنت من الخدع الخالص بها في السفينة فاذا بياها فتاة ملتمة ، ما كاد يقع نظرها على الاميرة حتى اماطت اللثام عن وجهها وقالت : أيها

الاميرة تجاوزى عن زلتى واصفحى عنى الصفح الجميل ، أنا وردة التى
دهمتها مر كتبك ثم نلت من احسانك وعطفك ما كان سبب شفائى . .
وانبتك الآن بأن قد توفيت جدتى ، فلما رأيتنى وحيدة تنكرت
واختلطت بنساء حاشيتك لأكون دواماً فى خدمتك ، أفترضين بى
خادمة أمينة؟ . . قالت الاميرة : انه ليسرنى وجودك معى يا وردة . ثم
مرت بكفها على شعرها المرسل فتذكرت وردة ما كان يفعله من ذلك
مما الامير راميرى اعجاباً بشعرها ومن وضعه فى غدائرها وردة
وازهاراً تحكى خدها نضرة واحمراراً .



الفصل التاسع

— قفار موحشة خطيرة وقلوب حزينة كسيرة —

لما مضى شهران على اعتقال بنطاؤور وسفر بنت أنات ، كان جم غفير من الرجال وعدد عظيم من الدواب المحملة بالاثقال يسيران في واد ضيق يدعى وادي (انت بابا) بالجهة الغربية من شبه جزيرة سيناء ^(١) . وكان ذلك في منتصف الصيف ، وكانت الشمس محترمة الحرارة تنعكس أشعتها على الصخور الصلدة فينبعث منها بريق يرتد عنه الطرف حسيراً . وكان في طليعة السائرين ثلة من الجنود الليبيين وفي المؤخره ثلة أخرى منهم مسلحين بالخنجر والدروع والرمح ، على أهبة الدفاع في كل آونة عن نفوسهم . وكان الاسرى الذين نيطت بهؤلاء الجنود حراستهم كثيراً ما يزعون للعصيان بالاغراء والتحرير من الزمراء الناقين . وكانوا مرسلين الى سواحل البحر الاحمر لتسخيرهم في نقل الذخائر والمؤن الواردة من مصر برسم الجيوش بعد طرح ما حملوا به من المعادن برسم الديار المصرية .

وكانوا يمشون الهويناً بادية على وجوههم علامات أنكلل والاعياء من ثقل تلك الاعباء . وكانوا يرسفون فيما كبلوا به من

(١) بحث الدكتور ايرس بالتفصيل في شؤون شبه جزيرة سيناء وتاريخ اماكنها المقدسة في كتاب طبعه باللغة الالمانية عام ١٨٧٢ وقد وصف فيه تلك الارحاء وصفاً دقيقاً

القيود ، ولم يكن عليهم من الاطمار سوى ما يستر عورتهم . وكانوا على الدوام ينظرون الى الارض مطوقين ، فان تواني أحدهم ابتدره أحد الفرسان المحافظين عليهم بضربة سوط يستحثه بها على مواصلة السير بلا وناء فكان لامناس لهم من أحد أمرين ، اما إداب السير بلا توان واما الضرب بالسياط . وكان لا يسمع من الاسرى ولا من الأحراس همس بكلمة ، حتى ولو ضرب الاولون ضرباً مسرفاً مبرحاً ، ذلك لأن عضو الصوت فيهم قد تلاشت قوته كما تلاشت في قلوب الآخرين عواطف الرحمة والحنان أو كما تتلاشى الحشائش الخضراء على الصخور المحرقة الجرداء .

كان الاسرى يمشون بعضهم على رسل بعض فلا يجراً أحدهم ان يخاطب زميله بكلمة ، بل كانوا كالطيف يمرون متعاقبين من جهة واحدة ، وانما كان يطرق الآذان في بعض الاحيان قرعة انحدار الاحجار تحت أقدام السائرين أو نغفات المصدورين من أولئك المظلومين . وكان مما يزيد في كآبة هذا المنظر ، ولا سيما اذا علا النهار ، تمطل الارض مما ترتاح له الانظار من زينة الاشجار والازهار والحيوانات والاطيار .

وكان أولئك التمساء قد برحوا الجون في ظهيرة اليوم الماضي فظلوا ساعتين في سير مفدّ متابعين سواحل البحر الاحمر (١) فاجتازوا

(١) سمي البحر الاحمر اما بسبب الصخور الحديدية التي على سواحلها واما لان الاحباش كانوا يسكنون بعض هذه السواحل . وكانوا معروفين عند الاقدمين بالرجال الجر وسمى البحر الاحمر في احد النصوص القديمة باسم « مياه البلاد الحمراء »

هضبة بلغوا منها الى مدخل مسيل مفض الى المناجم ، فوقفوا عنده
الجماس الراحة في الليل والتجأ الاحراس الى الصخور ليناموا عندها
وأشعلوا النار ورتبوا الحراسة اذ جعلوها مناوبة بينهم . أما الاسرى
فلبثوا في بطن الوادي ، لا نار عندهم يصطلونها ولا أغطية يقون بها
جسومهم التي أنهكها التعب وأضناها العذاب ، فارتعدت فرائصهم
واقشعرت جلودهم لشدة القرّ وتمنوا ان لو تبرغ الشمس لتنقذهم بحرارتها
من شر ما هم فيه ، مع أنهم كانوا في النهار يتقربون اقبال الليل للتخلص
من حرارة الشمس وعذاب النقلة وإدآب السير . وهكذا يتمنى المرء
في الصيف الشتا فاذا جاء الشتا أنكره .

وقبل التأهب للمسير وزعت عليهم الاغذية من مطبوخ العدس
ويابس الخبز وقليل الماء ، فلما تماطوا ذلك وأوغلوا في المسيل الضيق
تحف بهم الجبال الشاهقة عن ايمانهم وشمائلهم لم يلبثوا ان شعروا بالشمس
ولكأنها نار الله الموقدة وبأشعتها ولكأنها سهام محرقة . ولقد أفضى
بهم ذلك الطريق الى مكان ضيق لم يستطيعوا المرور به الا فرادى .
وكان يخيل لهم في بعض الاحيان بسبب اعتراض الصخور أنهم بلغوا
من الطريق الى نهايتها ، ولكنهم كانوا اذا دنوا منها انفتحت المسالك
عن يمينهم أو عن شمالهم فيستقر في اخلادهم أن عذاب السفر لم ينته
بعد ، وان آمالهم في الاستقرار قد ذهبت أدراج الرياح . وكان للصخور
في بعض الجهات اشكال تخيلها للرائي قلاعاً حصينة شيدت بحجارة
منحوتة ، ولم يكن في الاسرى جميعاً سوى رجل واحد كان يجميل

الفكر في ميدان التأملات ويمن النظر في العبر ، وكان ممتازاً على صحبه
بقوة الاساطين ومثانة البنية وعدم التأثر بعيب ما يحمل على عاتقه من
الاثقال التي ينوء بها ذوو العصابة من الرجال ، إذ كان يناجي نفسه بقوله
« في هذه الفلوات التي تنبو عنها العين ولا يطمئن القلب أغفل (الشنيمو)
الذين عهد اليهم تكوين الارضين تمهيد تلك الذرى الشبيهة بنصال الرياح
المصوبة وسد هذه الاخاديد التي يهوى الى قاعها الغافل ، فصارت
للسائرين فيها عذاباً ولا عذاب الجحيم . ولست أدري كيف عزوا الى
الالهة هاتور ربة الحنان والرأفة تلك الفيافي القاحلة التي لا يسمع الانسان
فيها مهما جبل على الشفقة والرحمة الا أن يفلق أبواب قلبه دونهما »
وكان هذا الرجل المناجي نفسه قد انحرف عن الطريق فانقتل اليه أحد
الملاحظين وقال : لا تبعد عن طريقك يا « هوني » .

ما طرق هذا النداء سمعه حتى استقام في طريقه ، إذ دنا من رفيقه
في البؤس والشقاء ، وهو عين رفيقه في السعادة والهناء الطيب
نبسشت . وما كان ذلك الا سير الطويل القامة المتين البناء غير الشاعر
بنطاور ، وقد أدرج اسمه في كشف المحكوم عليهم بالعمل في المناجم
باسم « هوني » . أما الاسرى الباقون فقد أخذ منهم الجهد وأعيام
النصب وأملهم طول الشقة فتثاقلوا في المشي وزادهم تثاقلاً أنهم كانوا
يصعدون في منحدر من الارض مفروش بحصى أحمر واسود ، يبدو من
شكله أنه كان أحجاراً كبيرة ثم كسرتها يد الانسان . وما وصلوا الى
نهاية السبيل حتى انفتح أمامهم سبيل آخر كالشعب بين الجبلين وخيل

لهم أن ينهائته سداً لا منفذ منه إلى ما بعده . فصاح رئيس الاحرام
في أعوانه أن اتزلوا الاحمال عن متون الحمير وضموها فوق ما يحمل
الاسرى من أمثالها . فتدرع هؤلاء بالصبر واستمدوا من همهم قوة
جديدة وقدرة على اجتياز الدرب . وكان الاسير الذي يتقدم بنطاور
شيخاً ضعيفاً نحيفاً كاد يتوسط الشعب حتى هوى إلى الارض وانصب
الملاحظ عليه ليصب على رأسه سوط عذاب ، جزاء على ما أبداه من
وهن . الا أن ضيق الطريق حال دون وصوله اليه ، فما كان منه الا أن
رماه بحجر ليستفرزه به على النهوض ، وحاول المسكين ذلك بما استجمع
من قواه الخائرة وجهوده الفانية ولكنه لم يلبث أن هوى إلى الارض
ثانياً متوجعاً من هول ما أصابه . وما سمع بنطاور توجهه وأينته حتى
تذكر المحنط بينهم وقتما كانت طنمة المتظاهرين يرشقونه بالاحجار ومر
يباله ما كان من حسن بلائه في الدفاع عنه وما حدث بعقب ذلك من
حضور بنت أنات . وما مضت فترة من الزمن قصيرة بعد هذه
الذكري حتى اتجه بنطاور ، بدافع الرفق ولطف الشمور ، نحو الشيخ
الرازح تحت حمله الفادح فأخذ ما كان يحمله من الاثقال ووضعها على
كتفه في الحال ، ثم ساعده على النهوض وأدرك معه القافلة التي
واصلت السير حتى بلغت إلى نهاية ذلك الطريق المتعرج الكثير المتويات
والمنعطفات .

وهناك أخذت بنطاور قشمية الخوف والفرع ، إذ أرسل النظر
فرأى عند قدميه هاوية لا يصيب البصر آخرها ثم أرسله كرة أخرى

الى فوق فرأى جبالا تناطح ذراها السماء مختلف ألوانها فمن أزرق الى
أصفر كالسكبريت الى اسود الى احمر يبدو للرائي كأنه خضب بدماء
سفكت في قتها فاحمدت الى سفوحها . وقد تذكر عندئذ بحيرة
(موت) التي يحيط بها في طيبة مائة تمثال برؤوس الآساد للآلهة هاتور،
فخيل له أن تلك الجبال السامقة ليست الا تلك التماثيل تضخمت حتى
بلغت الى ذلك القدر . واندفع في تيار الخيال فصور له أن هذه الجبال
أو التماثيل الاسدية الرؤوس قد فغرت أفواهها وان الدم يصعد الى رأسه
من شدة الذعر ، وسمع طيننا ظنه زفير تلك الآساد الوهمية وتمادي
في الوهم والتظني حتى وقع في نفسه أن الاثقال التي أقضت ظهره ماهي
الا مخالب هذه الآساد أنشبت في صدره .

وما وصل الاسرى الى نهاية الطريق حتى طرحوا الاثقال عن
متونهم وتراموا على الصغور يلتمسون الراحة فاقتدى بنطاؤور بهم . ولما
نال قسطه منها واطمأنت نفسه زال عنه الاضطراب وتلاشت من أمامه
الخيالات وأتيح له فهم ما يسمعه من القول وادراك ما يراه من المرئيات،
وعاودته قوة الفكر . وكان كل من الشيخ ونبسشت الى جانبه ، فأخذ
الشيخ يمر بيده على أوداج بنطاؤور وقد انتفخت ، واستدر عليه بدعائه
البركات السماوية . وشهدهما رئيس الاحراس فتقدم اليهما وقال
لبنطاؤور : ماذا أصابك ياهوني وفيك من القوة ما يعدل قوى ثلاثة رجال
ويستغزني على اضافة حمل الى ما تحمله من الاثقال . فنظر نبسشت اليه
متغيظاً وقال : ان الآلهة يقابلون دعوات المظلومين بالقبول والاجابة

وعم يثبيون المحسن على احسانه ويعاقبون المسيء على اساءته . فالتفت
بنطاؤور برفق الى الشيخ وقال : ان مكافأتك إيائي بهذه الادعية كفايتي .
ثم نظر الى نبسشت وقال : وأنت أيها الساخر بجوادث الزمان ، مالى
أراك باهت اللون وكيف حالك ؟ أجاب الطيب : حالى كنتك الحمير
التي تراها واقفة هناك ترعد فرائصها من الاعياء والألم . ولست أشتهي
أكثر مما تشبهه هي من العودة الى مقرها الذى اعتادت فيه الراحة
واللف . فتبسم بنطاؤور وقال : أهنتك بما أوتيت من قدرة التفكير
ونحن فيما نقاسيه من الاهوال ، لأن هذا دليل استقامة أحوالك وجودة
صحتك . قال نبسشت : بينما كنت أنظر اليك الآن وأنفك فى الهواء
وعينك شاخصتان فى السماء مرت بخاطري فكرة ساطعة . يقول
السكران أن الذكاء هو القوة المحركة للعالم وأن الروح خميرة القطعة
الطينية المسماة بالانسان . ولقد بحثت عن مقر العقل أفى القلب هو أم فى
المخ ، فذهبت تجاربي وابعثت ادراج الرياح . أما الآن فقد أيقنت أن
مقر العقل فى قوة الساعدين وصلابة الساقين ، ومع انى الآن فى حالة
لا تؤذنى بالتوسع فى هذا الموضوع فقد عولت على أن احترم فى
المستقبل ساقى وساعدى كما كنت احترم فى الماضى عقلى وفكرى .
وبلغ صدى هذه الكلمات الى سمع رئيس الاحراس فصاح بهم قائلاً :
الى متى هذه المناقشات أيها الرجال ؟ هلموا الى المسير واستعدوا لعذاب
السعير .

نهض الاسرى فوضعوا الاثقال على الحمير ثم على أكتافهم

واستأنفوا المسير يتتبعون الوصول الى المناجم قبل غروب الشمس .
وكانت بوسط واد فسيح تحيط به أوعار جبال صخرية عالية كان
المصريون يسمونها (تمسكا) والبرانيون (دوفسكا) . وكانت صخور
الجبل الجنوبي منها من الحجر الأعبل الاسود اللون وصخور الشمالي
متها الذي يلي معادن الفيروز من الجص الاحمر . وعلى مقربة منها معادن
النحاس في مضيق عمودي الاتجاه^(١) على ذلك الجبل . وكان بوسط هذا
الوادي أكمة تحيط بها أسوار عالية ويوت صغيرة مبنية بالاحجار
لسكنى الاحراس والضباط والمفتشين والمراقبين^(٢) . ولم تكن
سقوف تلك المساكن ثابتة في أماكنها ، اذ كانت العادة المرعية وتشد
بسبب ما ينشأ عن البرد الشديد من الامراض ، أن تغطي المباني بعد
الغروب بغطاء متخذ من سعف النخل المجلوب من واحة العمالقة القريبة
من هنا الوادي .

انقضى على بنطاور ونبسشت شهر مع عمال المعادن في وادي
(مفكات) دون أن يقف الشاعر على سبب ارساله اليه وبقائه فيه ،
بل ولا على سبب مقاسمة الطيب له هذا العقاب الجائر ، لا سيما
والمعروف أنه كان سيرسل الى محاجر رحنو . وقد حار في تعليل هذا
الاختلاف ولكنه تذكر أبا وردة ، وهو احد الاحراس ، فلم يستبعد
أن له ضلعاً في تغيير وجهة السفر ، مع أن هذا الجندي الهمام لم يخاطبه

(١) استكتشف هذا المضيق حديثا السائحان بلمر وولسن ووصفاه في كتابهما الموسوم
« صحراء الحروب »
(٢) يسمى الوادي الان وادي المغارة وما زالت ترى فيه آثار المعادن

بكلمة واحدة منذ رافق الاسرى من طيبة . غير أنه ما وصلت القافلة الى الوادى حتى دنا منه الجندي وسارته بقوله : لا تخش ضيراً فأني محافظ على حياتك وستجد هنا الطيب نبشت فتظاهر بخصوصته وليفعل هو كذلك ، والافرق بينكما .

بإدراك الشاعر فأطلع صديقه على نصيحة الجندي فأقسم الطيب ليعملن بها بقدر ما يتفق مع مزاجه وينطبق على علاقته الذاتية بينطاوور، فقد كان يذكره بأفكاره الحكيمة التي خالفها الحقائق المشاهدة ويقول له : أينت القدرة الالهية التي ترسل من أوج السماء بين الناس أشعة رحمتها لتسكين الخواطر الثائرة وتوطيد دعامة العدل . . أين الانصاف المانع لوقوع الشقاق والخلاف بين الناس ؟ . وكان الطيب يسترسل في هذا المزح كلما زادت آلامه وتراكت أشجانه ، ولم يكن ميله اليه بقصد التهكم على صديقه ، بل لقضاء الوقت فيما يدعو الى ارتياح النفس ويمحو من القلب أثر الحزن . وكان كلما لمح حارساً من الاحراس أفاض في المزح بعبارات لا يدرك معناها السامعون ، ويزيد في تعقيدها تماجه ولعنة لسانه حتى يحيل لأولئك الاحراس ان تراعا آثار ثائره بين لائنين فينأوا عنهما بمجانهم وينقلون مراقبتهم . ومن مبهم العبارات التي كان الطيب يكررها على سماع بنطاوور قوله : يا غلاف المعارف الربانية . . يا أيها المشعوذ الذي يحاول اقناع الناس بأن الدنيا دار ملاذ ومقر هناء وسعادة . . يا أيها المعجب بآثار جراحه الزرقاء ، الى غير هذا من العبارات التي كان يدرك الشاعر والطيب معناها ويرد عليها

بنطاؤور بألفاظ عذبة ومعاني دقيقة لا يفهم الاحراس شيئا منها .
وكثيرا ما كان ينقلب المزاج بينهما على هذا النمط الى مناقشة
ليست في شيء من المرح ، وانما هي جد يقتطفان منه ثمر تبادل الافكار
في العلوم والمعارف التي كانا لا يكفان عن الاشتغال بها قبل وقوعهما
في أحبولة الاسر . وكان بنطاؤور ونبسشت يشتغلان النهار كله ، أولهما
في معادن النحاس والثاني في مناجم الفيروز ، فاذا أرختي الليل سدوله
تلاقيا في مكان واحد فتبادلا عبارات الوداد والسلوان وعزى كلاهما
الآخر وآسأه على مصابه . وكانوا قد قرروا الكل منهم عملا يناسب
قوته الجسمية ، فكان الطيب لمزاله وضمفه يشتغل بإزالة الطبقة التراية
المغلقة لأحجار الفيروز . أما بنطاؤور فكان لمتانة قواه وجوده فصوصه
يقطع أحجار المعدن بالماول الكبيرة الثقيلة ويدأب على العمل بما
يوجب رضا رؤسائه وارتياحهم منه . وكان في اثناء قيامه بالعمل
المفروض عليه يتمثل بنت اناث ماثلة أمامه ، يحيط بها الشبان يعالجون
الفوز بالقرب منها فيبالغ في ضرب الاحجار بالمعول ظنا منه انه يضرب
أولئك المزامين له على حب تلك الغادة الفاتنة ، ويقضى على حياتهم
الواحد بعد الآخر . وكان يمسك احيانا عن العمل ويمد ذراعيه كمن
يريد أن يضم الى صدره محبوبا شاقه الوجد اليه ثم يلقيهما الى جنبه
متهندا كاسف البال ، كمن يهب من نومه والاحلام تداعبه فيرفعها
الى جبهته ليمسح ما يقطر منها من العرق الغزير . هذا الشاب الذي جمع
الى كرم الخلق وسلامة الطبع همه الابطال وقسوة الرجال أصبح في نظر

حراسه ونظر نفسه سرا لا نستبطنه الأفهام ، اذ كان يسائل نفسه عما طرأ عليها من التغيير وكيف أنه بعد أن ولد من أب وأم لم يكن لهما هم ولا وكد سوى التماس الهناءة ونعيم البال في شطف العيش ، وبعد أن ربي في بيت سيدي مهد العلوم ومعهد السلام ، اصبح وكأن في نفسه قوة خفية تسوقه الى الجلالد في ميادين القتال . وكان كلما حلق في اجواء هذه التأملات ثارت فيه نحوه الشجعان وهم بالانزول في حومة الوغي ، ولكن أين الميدان ؟ وكان أول شعوره بهذه الميول الحربية ليلة اتخذ من الطنب المنصوبة أمام كوخ المنخط بينم سلاحاً دافع به عن هذا الشيخ المسكين الذي اغتاله الطغام وعن حفيدته وردة .

وكان العمال قد وهنت قواهم بمواصلة العمل والحراس وسثموا استمرار المراقبة فعمدوا الى مضاجعهم وتاموا جميعاً بينما كان ملاحظ المناجم وجماعة الضباط في منزله يصطلون النار جالسين على شكل حلقة واسعة ، فقال كبير الضباط لزملائه : اشربوا ما بقي في أقداحكم من المدام ثم ليدين بعضكم من بعض للمشاورة ، فأن عندى أبناء خطيرة تحتاج الى أعمال الروية وقدح زناد الفكر ، فقد قيل ماخاب من استشار .
 وخلاصة الخبر ان الوالى بعث الى مرسوماً يأمرني فيه بتوجيه نصف رجالنا الى (بيلزيوم) تعزيزاً للجنود المرابطة بها ، ولكن اخشى ان نحن نقص عدونا ان ينتهز الاسرى هذه الفرصة لاثارة غبار الفتنة ونشر لواء العصيان . وهم ان اقتصروا على قذفنا بالاحجار من قم الجبال ابادونا عن آخرنا وسدوا في وجوهنا ابواب الرجاء في الفوز عليهم ، فكيف بهم

وهم يحملون آلات العمل^(١) في النهار وهي سلاح يقوون به علينا . دع
ان العبرانيين العاملين في معادن النحاس اشد خطراً منهم . ومع هذا
فاني لا أخشى اذاهم وان أكن أحس في قلبي خفقاناً شديداً وفي ضميري
قلقا وانزعاجا ، وهو ما يحملني على الحكم بخرج مركزنا هنا . ولا يخفى
أن الغابة المجاورة لنا هي التي تؤخذ الاخشاب منها للوقود ، وقد
أشرفت على التفاد بحيث سنضطر منذ الغد الى التماس الخشب اللازم
لاقران العامل بغيرها أو نرسل شردمة من الجند الى رفيديم^(٢) لجلب
الاخشاب التي حق على جماعة العمال ان يقدموها اليها . فعلينا لدفع
تلك الاخطار أن نحمل الاسرى ما لا يطيقون من النحاس لنوهن قوام
ونتقي شرهم ، ولكن اذا تم لنا هذا التدبير فالوسيلة للمحافظة عليهم ؟
أطرق الحاضرون رؤوسهم مفكرين ثم بسط كل منهم رأيه فقرر
إرسال شردمة من الاسرى يوميا بقيادة بعض الجند للاحتطاب وأن
يكبل العصاة والمشاكسون بالقيود ، فاعترض الملاحظ على هذا القرار
بأنه اذا قرن اثنان في قيد واحد ازدادا قوة بضرورة اتفاقهما على العمل .
قال رئيس كتبة حساب المناجم : الرأي الراجح أن يقرن كل رجل متين
القوة وثيق الاعضاء بآخر ضعيف ، ويحسن ان يكون الاثنان خصمين
كلاهما للآخر ، اذ يستحيل الاتفاق بينهما . قال أحد الضباط : كأن يوضع

(١) كان شكل آلة عمال المعادن المصريين كدبل الحطاف اذا اتخذته حامله سلاحا فاز به على
عدوه . وقد وصف المؤرخ ديدورس الصقلي في الجزء الثالث من تاريخه احوال الاسرى
المحكوم عليهم بالعمل في مناجم الذهب الواقعة بين البحر الاحمر والنيل واهتدى الى تلك المناجم
في عامي ١٨٣٢ و ١٨٣٣ ليناك بك دى بلنون وبونومي

(٢) رفيديم واحة في سفح جبل عريب

هو في القوي مثلاً مع نبسشت الضعيف الذي لا يكف عن مجادلته .
قال رئيس كتبة المناجم : اني بما أدليت من الرأي الآن انما كنت
أقصدهما . وعلى أثر ذلك جعلوا الاسرى فريقين يخالف أحدهما الآخر
قوة وضعفا ويتنافره مزاجاً وطبعاً ، ثم قرنوا كل واحد من فريق بنقيضه
من الفريق الثاني وناطوا بالجندي والورد حراستهم . فلما كان فجر
اليوم التالي سلكت أرجل الاسرى في القيود ، وكان من بينهم
بنطاور ونبسشت فقرن الاثنان في قيد واحد . وما كادت الشمس
تتكبد السماء حتى هم الجميع بالمسير بعد أن رفعوا الى اكتافهم سبائك
النحاس قاصدين الى واحة المعالقة بحرسهم ستة من الجند بقيادة ابن
المخبط بينهم . ولما أن قطعوا من الطريق شطراً كبيراً ثابوا الى الراحة في
نقطة (آوس) فاذا ما أخذوا فسطهم منها استأنفوا السير في شعب
ضيق بين صخرين من حجر السماق . وكانت الشمس في وقت بلوغ
الجند والاسرى الى هيكل هاتور الزمردية جانحة الى الغروب فرأى
بنطاور طيوراً تحلق في الفضاء فانشرح صدره لرؤيتها . وكان قد مر
زمن طويل دون أن يقع نظره على ما سوى الصخور والجمال الجرداء
والصعاري المتناثية الانحاء والفلوات العاطلة من حلية الحياة . لذا قال
لاصحابه : أن مشاهدة الطيور في مكان دلالة على وجود المياه به . وفي
الواقع فانه ما كاد يتم كلامه حتى طالعت السائرين شجرة نخل وارفة
الظلال وطرق آذانهم خرير الماء ساقطاً على الاحجار الصلدة فارتاحت
صدورهم واطمأنت قلوبهم وانبثت الآمال في نفوسهم .

وكان الى غرب الغدير ثلاثة سرادقات كبيرة من قماش معلم بخطوط
زرقاء وحمراء يتخلل نسيجها المتين أسلاك الذهب ويحف بها شردمة
من الجنود المصريين . ولم يكن أحد يعلم من هم المتفيثون بظلال تلك
السرادقات ، فلما مر جند الحرس بقيادة والد وردة أمام أولئك النياذبة
وأدوا التحية العسكرية برزت من السرادق الاكبر غادة تجر مطرفها
الخز واتجهت نحو الاسرى وتصحفتهم جميعا وجها وجها ، فما أن وقف
عليها نظر بنطاؤر حتى مرت بجسمه قشعريرة الدهش والفتاة بما لم
يكن يتوقعه وخيل له أنه انما رأى خيالا لا حقيقة . أما نبسشت فقد
صاح صيحة عالية دلت على تأثره بهذا الحادث الذي لم يكن يخطر بباله .
ولقد رأها أحد الاحراس وهما في هذه الحالة فظن أنهما مختلفان على
أمره فألهب كتفيهما بالسوط وقال : المشائمة جائزة ولكن الملاكمة
ممنوعة ؟ ثم التفت الى حارس وسأله : رأيت الفتاة الفاتنة التي برزت
من الخدر . أجب : لا ريب أنها احدى وصيفات الاميرة التي نزلت
بهذا المكان منذ ثلاثة اسابيع ، لاداء فريضة الحج في هيكل هاتور . قال
الاول : يؤخذ من كلامك ان الاميرة تلوث بلوث الخطيئة فجاءت
تلتمس الطهر . لو كانت من عامة الامة لما أقامت بهذه السرادقات
في أسعد حال وأنعم بال ، بل لاشتغلت بتنظيف رمال المعادن أو بسحق
الالوان . ولكن أين صاحب اللحية الشقراء ؟

وكان المقصود بهذا الوصف والد وردة وكان يتشاكل في مشيته
ويتمهل ، لان وردة وهي تلك الغادة الفاتنة أشارت اليه بالدنو منها فدنا

فتبادلت معه حديثاً قصيراً وهو رول نحو الاسرى والجنود القائمين بالحراسة فلما أدركهم سار معهم فقال له أحدهم ممازحاً : أنت من أعرف الناس بمحاسن النساء . أجاب وقد بدت عليه أمارات الاستحياء : إنما هذه المرأة من وصفات الاميرة ، وقد عهدت اليّ توصيل كتاب الى رئيس كتبة حساب المعادن ، راست أشك في أننا إذا نزلنا هنا على مقربة من هذه السراقات الملكية نحظى بنعمة الالئفات الخاص ونظنيء أوارنا بجرعة من النبيذ العتيق . وقال آخر : ألا ترى هذا السكير يتحرقى بأفقه أجود الشراب كما يتحرقى الثعلب مكان الدجاج ؟ فلنقف هنا قليلا وليطرح كل منكم ما يحمله من الانتقال وليشرب هذا الماء الزلال وليأكل ما يساقط عليه من الرطب الجني . دع أنه لا بد من نزول المنّ علينا^(١) فنقتدى به . ثم التفت الى هوني ونبسشت وقال :

كفى عناداً ونزاعاً أيهما الشقيان والى متى الشحناء والضوضاء ؟

قضت بنت أنات بضعة أسابيع في السفر بطريق النيل حتى وصلت الى بلدة (ريت) ، ثم اجتازت الصحراء على جملة مراحل ، مسيرة كل يوم مرحلة . فلما بلغت الى سواحل البحر الأحمر ظلت تنتظر

(١) المن مادة سكرية تفرزها شجيرة مرروقة في علم النبات باسم تماركس . انيفرا وتنمو بكثرة في الودية الحصية بالصحراء ويكون الافراز عادة في مايو حيث يشبه المن عندئذ الصمغ ويقول العلماء ان المن هو الذي ورد ذكره بهذا الاسم في الكتب المنزلة . وأصلها أن العبرانيين لما عثروا على المن في البرية قال بعضهم لبعض « من هو » اي « ما هو » فسمى بالمن . وهو الآن يطلق على المواد السكرية التي تفرزها أشجار الطرفاء والبلوط والحطمي . ومنه الاسترالى الخارج من الاوكاليس والنارسي وسمى الحاجي ويرف عند العرب « الترحجين » . قال في وصفه ابن البيطار : « ظل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متعجب واكثر ما يقع على شجر الحاج وهو الماقول ينبت بالشام وخراسان » والسيناوي ويخرج من الانل والطرقات والكردستاني وهو عيني القوام

أسبوعا وصول سفينة فينيقية لتقلها الى بلدة (فران) . فلما حضرت الى هذه البلدة صعدت في الجبال الشاهقة التي تلي سفوحها من الناحية الأخرى الواحات الفسيحة المشيد فيها هيكل هاتور الزمردية . وقد استقبلها كهنة هذا الهيكل بما يليق بمقامها الملكي من الاكرام والتعظيم ، الا أنهم تكلفوا الاكثار من الرسوم الدينية حينما كاشفتهم برغبتها في التطهر من الدنس ، اذ عينوا يوما لغمس جسمها في الماء المقدس وآخر لتطهيره بماء الغدير الذي يسقى منه النخل وثالثا لتلاوة النصوص المقدسة واطلاق البخور من المجامر، الى غير ذلك من الطقوس الكثيرة التي جهرت الالهة هاتور من بعدها برضاها عن بنت أنات وصفحها عما ارتكبهت من الفلطات . وكانت الاميرة قدمت اليها ما جلبته برسمها من التحف النادرة والهدايا النفيسة .

لما انتهت مراسم التطهير من الدنس صدرت أوامر الاميرة بالعودة فأنى الامتثال لرئيس الاحراس وهو ضابط حبشي الاصل أنعم الوالى أنى على ابنائه بالرتب العالية ليتخذة آلة في تنفيذ أغراضه ، وقال لرئيس التشريعات ان التعليمات التي تلقاها من الوالى قبل مفادرة طيبة تقضى عليه بحجزها في الواحة حتى يرد اليه أمر جديد بشأنها . فلما أطلعها الرئيس على قول الضابط الحبشى احتدمت غيظا ، ولكنها كظمته وفاءت الى سكونها ، رجاء أن يصل اليها المدد من أبيها فيما لو وفق راميرى لأداء المهمة التي أخذ على نفسه القيام بها .

وكان لا ينقضى على بنت أنات ونيفرت يوم وهما في هذا المكان

الا وينضاف الى همومها هم جديد ، لأنها أصبحتا ملتقى أنظار الميون
التي بنت عليهما بل أسيرتين ذليلتين اتضع قدرهما وسقط جاههما في
نظر الجند الذين أصبحوا ولا هم لهم الا العريضة وارتكاب المنكرات
والعدوان على سكان الواحة بالأذى وسفك الدم على مسمع منها ومرأى
وهي لا تستطيع شيئاً .

ولقد أحست ، بتوالي هذه الحادثات ، أن اليأس أخذ يستولي على
قلبها وانها بعد أن كانت تسمو على العامة بجناحين قويين ، هماعزة المكانة
وسعة الإدراك ، هوت الى مهبط الذل وحضيض الصغار ، فأخذت
من ثم تناجي نفسها بأن الحب الذي استقر في فؤادها لنبطاؤور لا ينتهي
الا بانتهاء الاجل . ثم خيل لها أنها ترى طيفه ماراً فبذت عليها أمارات
التأثر الشديد لفراقه وأكسبها هذا التأثير هيبة وعزة وزاد وجهها
جمالا ونضرة . وكان يتردد بخاطرها أنه قد تكون المنية أدركته او أنه
وقع في فخاخ الغادرين فتظهر عليها علامات الالتياح والجزع . أما
نيفرت فقد جاءها من أمها كتاب تؤيد لها فيه خيانة مينا عهد الأمانة
الزوجية وشغفه بالفتاة الاسيوية ، وان بنطاؤور لم يصل بعد الى جهة
المناجم التي نفي اليها فأجمعت الآراء على أنه مات في الطريق بمحادث
ما . قرأت نيفرت هذه الرسالة فلم يضطرب لها جأش ولم ينبض نبض
ولم يخفق قلب بل لم يظهر بالمرّة على وجهها ما يدل على تحرك عوامل
الغيرة في نفسها ، وذلك لأن ثققتها في اخلاص زوجها مينا وقيامه على
عهد الوفاء لها كانت ثقة لا حد لها . ولم تغير تلك الاقويل شيئاً ما من

أحوالها، بل زادت إيماناً بحب زوجها وبدلت في نفسها من اليأس الرجاء حتى لقد كانت تقول لبنت أنات مساء كل يوم أن الامدادات ستصل اليهما في الغداة لتخلصهما من عناء ما هما فيه من ذل الأسر . وكانت تنساق أحياناً في تيار المزح تلتمس به تسلية الاميرة وتسرية الهموم عن نفسها فتقول لها : لا يبعد أن نرى في هذا المكان بيدنا قرينى مينا بخيله ورجله ، ولكن من يرافقك في هذه الحالة بصيوانك ويساعدك على قضاء الوقت في الاحاديث الطريفة والنوادر المستمحة . وكيف تقسم الصواوين شطرين بيتنا ؟ ثم أفضلين ياترى البقاء ههنا أو نرحل الى جنوب الواحة لتمتيع النظر بالمناظر الجديدة والمشاهد الجميلة ؟

كانت وردة في خلال ذلك تقوم بما عهد اليها من العمل حائزة على رضا الاميرة في كل حال ، وكانت اذا جلست في حضرتها لزمتمت الادب وحرصت على السمات والوقار ، فلا تتكلم الا بأذن ولا تظل جالسة الا بمسوغ ، وكانت اذا حدثت خلبت السامع بعذوبة حديثها وطلاوة لفظها ورقة لهجتها ، واذا ضحككت خيل للسامع أن ضحكها رنين قطع البلور اذا تلاطم بعضها ببعض ، واذا غنت بصوتها الرخيم أطربت الاميرة ونيفرت . ولا عجب إذا برعت وردة في الغناء ، فقد كانت في كل ليلة تنصت الى المعجوز نىخت تغنى بالاناشيد التى برعت فيها أيام صباها وتجتهد في تقليدها حتى اتقنت الغناء ولم يضارعها في اجادته أحد بجميع الانحاء .

وقد سر الاميرة ما لمحته في وردة من مخائل الذكاء والفطنية فأآت

على نفسها ان تربيها على أحسن المبادئ وتعلمها القراءة والكتابة .
ولقد صادفت في هذه السبيل عقبات حائلة وصعوبات مانعة ، بيد انها
بذلت في تحقيق أمانها جهد المستطاع واتخذت من الاجتهاد في العمل
سلاحاً تقطع به جبال الوقت الطويلة ، حتى بلغت ما يتجاوز المأمول من
أمنيتها . وكانت من وقت الى آخر ترمق قبة الجبل الذي ضربت
السراقات على سفوحه بعينين تقرأ فيهما آيات التذلل في الغرام ، فتتظر
اليها وردة من طرف خفي وتدرك مكنون سرها . غير أنها كانت لا
تستطيع أن تفاتها في شأن ما من شؤونها اجلالا لها واحتراما . وكانت
تتربق الفرصة المناسبة للكلام فتقص عليها من ظريف النوادر ماله
علاقة ببنطاور وأسرته فينصرف عنها الهم وتخف اعباء الكدر والحزن .
وكان يتفق أن يمر الاسرى أمام خيام الاميرة وهي جالسة تحت ظلالها
مع نيفرت عند غروب الشمس تتطارحان الاحاديث في أحوال الملك
ومينا وبنطاور ، فلما مروا بعقب وصول كتاب راتوتى الى بنتها صاحت
هذه قائلة : لاشك أن بنطاور لا يزال على قيد الحياة ، وقد أصابت
والدتي فيما كتبت له ، لانها لم تقل أنه مات بل قالت أن أخباره انقطعت
وهو اذا استطاع الفرار فلا بد أنه جعل معسكر الملك وجهته لتحظى
بلقائه في القريب العاجل .

لم تجاوب الاميرة على هذا القول بل أطرقت رأسها حزنا ،
فشخصت فيها نيفرت بعين الرفق والاشفاق وقالت : لعلك تفكرين
فيما بينكما من تفاوت المرتبة ونباين الشرف . قالت بنت أمات : انى

باختيارى إياه قريناً لى أجمعه أميراً على السكك رفيع المقام واجب الاحترام ، وإذا استطعت أن أجمع زمام الارض كلها بيديه وملكته الحكم على العباد كافة أفلا يكون أرفع منى مقاماً وأسمى قدراً وأشرف مرتبة ؟ قالت نيفرت مستحجية : وماذا والدك فاعل إذا رأى منك هذا الميل ؟ قالت الاميرة : يحبني والذى ويكرمنى ويفهم مقاصدى . وقد اتقوت ، إذا ظفرت بمقابلته ، مفاوضته فى جميع شؤونى ومطالعتة بأسرارى كافة . وبعد أن سكمت هنيهة استأنفت الحديث فقالت : ليحضر الخدم السراج والنول لاقضى بعض الوقت فى النسج .

هرولت نيفرت الى باب الصيوان فالتقت عنده بوردة فأمسكت بيدها وجذبتها الى خارجه وسألها : مالى أراك مضطربة ووجلة ؟ أجابت وردة : وصل أبى الى هنا مرافقاً بعض الاسرى المقلين من معادن مفكات ، وقد رأيتهم فاذا باثنين منهم قرنا فى قيد واحد ، ولا شك عندى فى أن أحدهما بنطاور . وقد حدثت أبى فى أمره فوعدنى أن يطلق سراحه . ولست أود أن تطلعى بنت أنات على هذا الخبير إذ الاحسن أن تركها على غير علم به ليكون سرورها عند مفاجأتها بلقاء بنطاور أعظم منه فى حالة علمها بوصوله ، ثم اننى من جهة أخرى أخشى أن تتدخل فى أمره بما يمكن أن يودى الى فشل تدايرنا . سألت نيفرت : أترين اننى أصلح لمساعدتك على إنفاذ مشروعك ؟ أجابت وردة : ولم لا . . . والذى أسألك إياه الآن أن تأمرى القيم بأرسال قربة نبذ جيد الى الاسرى وتأتى لى بالقنينة التى فى متاع

الاميرة وتحتوى الشراب المخدر الذى يلقي شاربها في سبات النوم، وما زالت تأبى الانتفاع به رغم نصائح المتكررة .

فانصرفت نيفرت من فورها الى القيم وأمرته أن يذهب بقربة نبيذ مع وردة الى حيث ترشده وأن يعطيها من تعينه له من الناس، ثم دخلت مخدع الاميرة وفتحت صندوق عقاقيرها^(١) وأخذت تفقش فيه . فسألت بنت أنات : عمّ نبحنين؟ أجابت : عن دواء ضد الخفقان . ولما عثرت على القنينة أخفتها في كمها وهمت بالخروج من الصيوان لتعطيها وردة، وكانت وردة تنتظرها مع القيم خارجه، فلما أخذت القنينة من نيفرت تظاهرت بأنها تريد أن تشرب من قربة النبيذ في حين أنها كانت تسكب فيه السائل المخدر دون أن تنبه القيم الى حقيقة الواقع . ثم قدمت النبيذ الى الاحراس الذين أنهكهم التعب . وقد وقع عليها نظر شاب من شبان العالقة فقال : السلام عليك أيتها الغادة الهيفاء . . أقدم اليك أربع حججال^(٢) ذبحتها ييذى وحجرأ من الفيروز عثر عليه أخى بين الصخور^(٣) وهو فال السعادة وبشرى الخير لحامله وجالب النصر له على الاعداء وطاردا الاحلام المزعجة^(٤) فتناولت

(١) في متحف برلين صندوق مصرى للعقاقير ثبت انه صنع قبل عصر رعمسيس الثانى « سيزوستريس » بزمان طويل

(٢) يوجد بقمة الجبل الذى يسميه رهبان طور سيناء جبل القديسة كاترينه مجرى ماء يدعى بقدير الحججال وبروون بشأنه حكايات غريبة ، منها ان مياهه تنفجر باذن الله من عيون كثيرة تشرب منها الحججال التى رافقت الملائكة الذين حلوا جثة القديسة كاترينه من الاسكندرية الى جبل طور سيناء

(٣) احجار الفيروز التى تستخرج من صخور جربال هى أجل احجار هذا النوع واحفظ لونها من الاحجار التى تستخرج من وادى المغارة

(٤) ما زال العرب يستدون هذه الفضائل الى احجار الفيروز

وردة الحجر ، وكان سنجابي اللون ، جميل الشكل ، وقالت : انى أشكر
لك هديتك . ثم أخذت بيد الشاب وذهبت به الى مكان لا تهتدى اليه
أعين الرقباء ، وقالت له بصوت منخفض : انصت يا ساليش لكلامي
وع قولى . . قد ثبت لى الآن شرف نفسك وطهارة قلبك ولطف
شعورك وعلمت من تابدات الاميرة أنك قلت عنى اننى كوكب سما .
هبطت الارض فى صورة إنسان . ولا ريب أن أحداً لا يقول هذا
القول إلا إذا كان عاشقاً والهأ ، ولهذا لا إخالك الا كذلك لا سيما
وانك ترسل الي فى كل يوم باقات الازهار النضيرة والطيور التى يصطادها
ابوك برسم الاميرة . فان تكن هذه حقيقة حالك معى أفقدر أن تقوم
للاميرة ولى خدمة جليلة نغدها من أجمل المن علينا ونحفظ ذكراها
لك مقرونة بالشكر مدى الدهر ؟ . . لملك مجاوبى بنعم . . فاذا حققت
رجائى فيك فانى مخبرتك بأن لمولاتى الاميرة صديقاً يههما من أمره أن
يكون فى معزل عن الرقباء بضعة أيام ، فهل لك فى إخفائه مع رفيق آخر
له فى بيت أيبك القائم هناك على قمة الجبل المقدس ؟ أجاب الفتى :
فليزلا عندنا على الرحب والسعة فأن عادتنا إكرام المثوى وقضاء
الحاجات . . وأين هما هذان الاجنيان ؟ أجابت وردة : سيحضران
هنا بعد ساعة . . أفتريد أن تبقى فى انتظارهما حتى يطلع القمر ؟ قال
الشاب : بل انتظر حتى يخفى القمر خلف حجاب تلك الجبال السامة .
قالت وردة : اجعل مكانك فيما يلى هذا الغدير فاذا حضرا واقتربا منك
وذكر لك اسمى ثلاثا فارشدهم الى بيتك ، ولست إخالك جاهلا باسمى .

قال الشاب : لقد أسميتك الكوكب الدرّي وأسميت كل امرأة سواك بوردة . قالت وردة : إذا بلغت الاجنبيين الى دارك ورضي ابوك أن يكرم فيها مثواهما فمعدل بالعودة اليّ لتخبرني بهذه النتيجة ، وهاءنذا باقية في انتظار عودتك بباب الصيوان . وانني لآسفة من أنني لا أملك شيئاً معي الآن لا تحفك به جزاء صنيعتك وصدق ولائك ، ولكن لا تيأس فلا بد للاميرة من أن مجزل لا ييك العطاء وتفيض في أسرته الخير فكن حذراً يا ساليس ولا تغفل .

قالت هذا ثم انصرفت قاصدة الى مكان احراس الاسرى وهناك وجهت اليهم عبارات التمني أن يقضوا ليلتهم في هناء وسرور . ولما عادت الى بنت أنات سألتها عن سبب ما تراه من امتقاع لونها وكسوف بالها وقالت : هلمي الى سريرك فأني أرى الحمى قد اعترت جسمك اللطيف . ثم التفتت الى نفرت وقالت : أترين الدم يانفرت وهو مجرى في عروق جبينها ؟

وكان الاحراس في خلال ذلك يجرعون النبيذ الملسكي ويهنيء بعضهم البعض لفوزهم بهذه السعادة التي لم تكن تخطر لهم ببال . وكان والد وردة يرقب حركاتهم وأقوالهم فاقترح عليهم أن ينعموا بشيء مما يشربونه على الاسرى فاستجاب أحد الاحراس هذا الرأي وقال : لقد أصبت إذ الواجب أن يكون لهؤلاء المنكوبين ، ولو مرة واحدة في حياتهم ، نصيب من نعيم الحياة ولذة السعادة . فلم يكذ والد وردة يسمع هذا الاستحسان حتى ملأ الكوب بالنبيذ ثم دنا من بنطاور

وتركه له يمد أن همس في أذنه ألا يشرب قطرة منه وألا ينام ليله .
ولما دنا من نبسشت وأراد أن يقدم إليه الكوب جاء جندي آخر
ومنعه من تقديمه ثم عرض عليه قدحاً كان يمينه فأخذه نبسشت
وأخذ يكرع منه . وكان الحارس ينظر إليه ويمجب من قدرته على تجمرع
بنت انات الدنان وعجزه عن الكلام بحسن البيان وفصيح اللسان .



الفصل العاشر

— أين يلتقى المرء بربه ويتوجه إليه بكل قلبه —

لم تمرّ بالشاربين ساعة أو بضع ساعة في اللهو والمرح والمطايبة حتى أحسوا بثقل رؤوسهم فلم يتالكوا أن ألقوا بمجنوبهم على الثرى ، وما هي الا فترة قصيرة من الزمن حتى دهمهم النوم . وكان القمر آنثذ يلامس الافق ، فقام والد وردة ودنا متمهلا من الاحراس ليستوثق من نومهم ، ثم دنا من بنطاور فحل قيوده وفعل مثل هذا بنبسشت ، غير أنه لم يستطع إيقاظه من نومه فحمله على كتفيه وقال لبنطاور : اقتف أثرى . ثم سار مسرعاً نحو المكان الذى عينته له وردة على مقربة من القدير ، فلما وصل إليه نطق باسمها ثلاثاً فبرز الشاب العملاقى ، فرجا الجندي من بنطاور أن يصاحبه الى حيث يسير به ، فتردد كأنه خشي عاقبة هذا الفرار فقال له : لا خوف عليك كما لا خوف على بنبسشت ، وسأعنى كل العناية بأمره . قال بنطاور : لا قدرة لى على مفارقة صديقي وأرى أن بالامكان إفاقته بالماء البارد . فجرداه من بعض ثيابه ووضعاه فى ماء الندير ، فلما أحس قوة تياره أفاق قليلا وسار مع بنطاور متميلا كالتمل وأمامهما الشاب العملاقى وظلوا سائرين جميعاً حتى بلغوا الى البيت الذى على قمة الجبل .

وكان والد الشاب نائماً فأيقظه من نومه وأخبره بما سارت به وردة

وما عاهدته عليه من اليهود ، فهب الرجل من مكانه واستقبل بنسشت
وبنطاؤر بالاكرام وطرح للأول على الارض حصيراً نام عليه وهياً
للثاني مضجماً من الفرو ، وقدم اليه ثياباً جديدة ليلبسها بدلاً من أطماره
البالية ونادى بابنته أن تغسل قدميه ، فاضطجع بنطاؤر على الفراش الذي
أعدده له والد الشاب العملاقي فاذا به فرائس لين لا تفضل عليه أرائك
الملوك نعومة ونظافة ، بيد أنه لم يستطع النوم لما أنهك جسمه من التعب
وتولاه من الدهش وانزعاج الضمير . ولبت على هذه الحال زمناً نهض
بعده من مكانه فوضع بنسشت على فراشه وخرج من الدار للإيفال
قليلاً في الخلوات تسرية للهيم عن قلبه ، فتأدى به السير الى غدير منحدر
من مكان عال تتكسر مياهه على الصخور فيسمع لها خربير لطيف ،
فغمس فيه رأسه ثم أدلى بجسمه ليتنعم بطراوة مائه النقي ، وقد تخلص
بذلك من الادران التي تراكت عليه كما نجت نفسه من أضرار الحقد
والعار والحزازات الناشئة من مخالطته قوما لا نصيب لهم في الحياة الدنيا
الا التلطح بأدران العار والهوان وفساد الاخلاق . ولقد أحسن كأنه
في صبيحة عيد من أعياد بيت سبتي التي كان ينتبه من نومه فيها مبكراً
فيستحم ويتطهر ويلبس الثياب الكهنوتية الناصعة البياض . لهذا عجل
بالعودة الى دار العملاقي تبدو عليه مظاهر النشاط والخفة والاعتباط ،
فبعد أن جفف جسمه لبس الثياب التي قدمها الرجل اليه فأصبح في
يومه الجديد عكس ما كان عليه امس الدابر .

وكان يرى امامه صخوراً قائمة اللون فيخالها سحياً متراكمة

تندّر بوابل غزير ، الا ان السماء كانت بأديمها الصافي تلوح من خلال
قماتها الشاهقة وقد رصمت بالوف الكواكب المتلألئة . وقد أثر هذا
المنظر العجيب في نفسه تأثيراً سماها الى أوج الحرية . وكان النسيم في
ذلك الوقت عليلاً فسار ، وقد لاحظ عليه علامات السرور والاعتباط ،
في درب يوصل الى قمة الجبل التي اتخذها والد الشاب العملاقى مقراً
له . وكان في صعوده اليها يشعر كأنه يطير بأجنحة او تجذبه نحوها أيدي
خفية ، ورأى وهو صاعد تيسار كن حينما رآه مقبلاً الى الفرار وتسلق
مع أنباء الصخور الصلدة فصاح الشاعر بهما : لا تخافا مني أذى فلست
من جبل على الأذى . وقد جاء قوله هذا دليلاً على ما نحن اليه جوارحه
من العشق وعلى ما يحسه من ضرورة الاعراب عنه للحبيب .

ثم وقف على هضبة ضيقة عند مأخذ القمة الصخرية ، فاذا به يرى
مسرباً تجرى فيه المياه من أعالي الصخور فترتوى به الحشائش الطبيعية
وتعكس فيه صور الكواكب التي أخذ بريقها الساطع يبهت قليلاً
قليلاً تلاشياً وتفانياً امام ضوء الفجر المنبجج ، فنظر اليها نظرة تدل على
تعبه لها بفكره في سيرها السرمدى بأكناف الفضاء اللانهاى . ثم
التفت الى الجبال التي أضاء النور سفوحها وأبان للناظرين ما يليها وما
يتغلل آكامها من المهاوى التي لا قرار لها . وما زال الليل يولى الادبار
حتى سطع النهار وتمثلت للانظار قمات تلك الجبال تتسحب فوقها
السحب كدخان يتصاعد من بؤرة النار . وكان ضباب كثيف يصعد
وقتشذ من الواحة ، فلم تمض هنيهة حتى انجملت دقائقه وانثر بعد التماسك

حينما فعلت فيها أشعة الضوء فعل السهام النافذة في الاجسام .
هذه كانت حالة تلك الاصقاع من الوحشة ساعة طلوع الفجر .
ولم يكن بها من دلائل الحياة سوى نسر كان يحلق بجناحيه العريضين
حول بنطاؤور ، وهو مأخوذ بالتأمل في عجائب الخليقة وأسرار الكائنات
من تلك القمة العالية . وكان السكون قد مدّ أرواقه على الطبيعة فلما
رأى بنطاؤور ذلك النسر منحدرًا الى قاع الوادي وشاهد الضباب تتلاشى
جزئياته هباء وتهبط في تلاشيها الى أسفل المنحدرات ، خطر بباله ان
يوصل الصعود الى تقطة أسمي يكون فيها بمنزل عن مصائب الجنس
البشري بعيداً عن التأثير بالجذبات الدنيئة التي تجذب الى ناحيتها افئدة
العاجزين فتحول دون تأملهم في عجائب الكائنات ، بيد أنه كان في
حالته هذه أشبه به يوم أن اطلعه الكهان على اسرار الكهنوت المقدسة
إذ كان يجمع الى الخشوع الذي امتلأ به قلبه يومئذ عزة النفس التي تسمو
به على الكافة . وغاية ما أحسه من الفرق بين الحالين انه كان في ذلك
اليوم يستنشق أرج الزهور ورائحة البخور وغيرهما مما يشغل على النفس
ولا ينتعش به الفؤاد وهو واقف على ذروة الجبل الشاهق يستنشق
النسيم النقي العليل ويرى من السكون السائد على الخليقة ما يوطئ
سبيل الفوز بالقربي من الالهية أكثر مما تمهد منه أناشيد الكهان .
ثم أوغل في التأمل والادكار فرأى أن الانفاس الخافقة المنبعثة من
صميم الفؤاد تقبلها الآلهة أكثر مما تقبل الاناشيد والاغاني التي
يلحنها الكهان ويصدحون بها في كل آن ، وأن الانسان مدين

للنعم عليه بشكر ما أنعم وبالأفراح بالطاعة له ، ولكنه لم يكن مديناً
بتصوير ذلك الشكر وهذه الطاعة في صور محسوسة مغالاة في إفهام
للراد منهما . وكادلسانه ، مع هذا التصور ، ينطلق بترديد بعض الاناشيد
لولا انه أحسّ بمحصر فجثا في الحال على ركبتيه للصلاة والدعاء وأداء
مفروض الشكر والثناء .

ونهض واقفاً بعد الصلاة فأمن النظر فيما حوله من عجائب
الكائنات ، وكان مستشرقاً الشرق وميامناً الجنوب حيث تمتد أراضي
النيل المقدسة التي تقام فيها الشعائر الدينية لآلهة لا يحصى لها عدد ،
فاعتاص عليه الامر إذ حار في اختيار من يعبده من هذه الآلهة
أ(أوزيريس) أم(هوروس) أم(زيفا) أم(رينوت) صاحبة البركات العميمة
ومفيضة النعم ؟ وبيننا هو في هذا التردد إذ ذهب نسيم لطيف انقشع
بسببه الضباب الذي كان منسدلاً كحجاب يحول دون رؤية الوادي ،
وانبعثت أشعة الشمس من وراء الأفق ، فكللت هام جبل سيناء بتاج
من الذهب وطرحت على الماء طبقة ناصعة البياض من اللجين .

ومرّ بياله آنثذ أن يتهل الى الاله (فيرو) ، ولكنه عدل عن
نيته اذ تذكر تفاهة عبارة الصلوات الدينية الخاصة بمعبودات السهول
والفلوات وخلوتها من المعاني اللاتقة بالزمان والمكان ، ثم سكت برهة
قال بمقبتها : « اني الآن في حضرة الواحد الاحد الذي تقدس عن
الحاجة الى المكان وليس في مكان ولا على مكان ، لان كل ما في العالم
تحت قدرته وتسخيره تراه عيناى بلطفه وقدرته وعجيب صنعه ، لأنه

تعالى منزّه عن الكيف والكمّ وكل ما يخاطر بانحلال والوهم من
التكيف والتمثيل فاليه ضراعتي واليه إنابتي». ثم بسط كفيه وقال: أنت
الواحد الاحد! أنت الواحد الاحد! أنت الواحد الاحد!

وكان شيخ بدين الجسم قوي الاساطين واقفا وراء بنطاؤور وهو
يكرر تلك الكلمات، فلما النفث بنطاؤور اليه قال له الشيخ: بورك
فيك وعليك، ان كنت تبحث عن الاله الحقيقي. فحدق الشاعر في وجه
الشيخ وكان طويل اللحية مهيب المنظر وقال له: لقد عرفتك.. لأنك
ميسو^(١) بعينه. واذا عرفتك فما هو إلا لأنني كنت بيت سيتي
اتلقى فيه المبادئ العلمية وقما نخرجت أنت منه نابقاً في المعارف والعلوم
الدنية. وقد أطلعني أميني، كما أطلعك، على سر الاعتقاد بوجود إله
واحد لا إله الا هو. قال ميسو، وقد حدق بنظره في الافق الذي كانت
تسطع الانوار من ناحيته الشرقية وقال: أما أميني فلا يعرف من
الوحدانية شيئاً.

في خلال هذا الحديث برزت الشمس من وراء حجاب الافق
وأصابت سهام أشعتها الذهبية كبد الفضاء، فكان أول ما بدر من
بنطاؤور أن استقبلها بوجهه وبدأ يصلي. فلما انتهى من الصلاة شهد
ميسو وهو يصلي أيضاً، الا أنه كان مستقبلاً الغرب، فلما أتى على آخر
صلاته سأله: لم استدبرت الاله «الشمس» وقد تعلمنا بالمدرسة وجوب
استقباله عند شروقه. قال ميسو: اني أعبد إلهاً غير ما تعبد.. الشمس

(١) أي موسى عليه السلام

والكواكب مسخرات لأمره . قال بنطاؤور : أرشدني الى طريق
هذا الاله القادر . قال ميسو : ابحت عنه تجده لأنك كابدت الآلام
وقاسيت مشاق المتربة . واعلم أنه نجلى لي في مكان مثل هذا وفي صبيحة
يوم كهذه .

قال هذا ومضى في سبيله ، فوقف بنطاؤور وحده سابحا في بحار
التأملات ، ثم نزل متمهلا نحو دار العملاقي ، وبيننا هو في طريقه طرق
سممه همس أناس على مقربة منه . وكانت تحجبهم الصخور عن نظره ،
فوقف هنيهة حتى ظهروا من خلفها ودنوا منه ، فاذا هم ابن العملاقي
ورجل بتياب مصرية وامرأة ميادة القوام ترافقها فتاة رشيقة الحركات
وعبيد يحملون محفة . فخفق قلبه شديدا حين وقع بصره عليهم ، لأن
تلك المرأة كانت بنت أنات كريمة رعمسبس . ثم وقف مستندا الى
صخرة لا يقدر على الحركة لما غلبه من الدهش ، وغابت عنه الحواس
فصار لا يسمع وقع الاقدام على الصخور الصلدة ، ولا يرى انعكاس
الاشعة الشمسية على حجر السماق ، كلا ولا المرأة الحسناء التي هرولت
نحوه لاستجلاء مجيئه . وما نادته باسمه وطرق صوتها أذنيه حتى صار
كالاعمى الذي يرجع اليه البصر أو الاصم الذي يعاوده السمع ، فقد
عرته رعشة فتنبه فسمع بنت أنات تكبر نداءها له : يا بنطاؤور ا
فأوسع لها الشاعر صدره الرحيب فترامت بين ذراعيه فضمها اليه
وعانقها عناق المشتاق الذي أضناه الفراق .

أما رفيفات الاميرة فكانت جالسات في بيت العملاقي . فقالت

وردة لنيفرت : لقد رأيتها تلقي بنفسها بين ذراعيه . . لست أنسى ، ما بقيت حياً ، هذا المنظر البديع الذي كانا يحكيان فيه البحر المتلألئ عند الافق هناك ، وقد تحركت مياهه لعناق الجبل المقدس . قالت نيفرت : كيف بدعت هذا التشبيه الجميل ومن أين لك مثله أيتها الفتاة ؟ قالت وردة : عثرت عليه في صميم فؤادي وليس عندي ما أكشفك به سوى أنني اشعر الآن في نفسي بسعادة وهناء ، لم أشعر بهما من قبل . قالت نيفرت : لعل سعادتك وهناءتك ناشتتان من اعتقادك أنك وفيت لبنطاور ما عليك له من الدين إذ كنت سبب إنقاذه من الهلاك كما أنقذك منه . قالت وردة : ليس هذا سبب سعادتي بل أن هناك سبباً آخر كان داعية هناءتي وجالبة سروري . وغاية ما أخبرك به أنني كنت يئست من كل شيء فلم ألبث أن تمول اليأس في نفسي رجاء بفضل الآلهة وعدلهم .

فاستحسن نيفرت هذا القول بإشارة ثم قالت وهي تتنفس الصعداء : ما أسعدهما حالاً وأهنأهما بالاً وقد تلاقيا بعد الفراق . قالت وردة : انهما جديران بهذه السعادة لان بنت أنات إلهة الحقيقة ، وليس في الديار المصرية من يجارى بنطاور في علمه وشرف نفسه وعلو همته . فصمتت نيفرت زمناً ثم قالت بصوت اليأس الحزين : أما رأيت مينا ؟ قالت وردة : من أين لي أن أراه . . عليك بالصبر يا نيفرت ودعي عنك الجزع ، فلسوف تجتمعين بمحبوبك . وثقي بقولي هذا ، فأني أعرف من حوادث المستقبل ما يعرفه الانبياء . . ولكن دعينا من

هذا الآن ولتقصد نبسشت لثرى ان كان لا يزال نائماً .. أنا عارفة
بما للشراب المخدر الذى مزجته بالنبيذ من التأثير فى اضاءة الرشد .
قالت نيفرت : أصبت فهيا بنا . ثم سارت مع وردة مقتفية أثرها .

وكان الطبيب ملقى على ظهره فاغراً فاه ، فتقدمت وردة نحوه
وحدقت فيه النظر فقالت : لقد اجهد هذا الرجل نفسه فى درس العلوم
والاطلاع على خفيات الحقائق ، ولكن ما زلت أجده أقرب فى هيئته
الى الحيوانات العجم منه الى الانسان . ثم تناولت عوداً يابساً وعبثت به
فى أنفه فتحرك أولاً ثم عطس وتقلب على احدى جنبيه واستغرق فى
النوم ، فقهرت وردة ضحكا كان يرن رنين الفضة النقية أو الذهب المصنى
ولم تلبث أن احمر وجهها خجلاً اذ وبخها ضميرها على استخفافها بالرجل
الذى أحسن اليها فاعترفت بخطأها وندمت على ما فعلت وتذكرت
ما كان عليها له من ما أثر تدل على كرم محدد وطيب عنصر .

وفى الحال تناولت يد النائم فقبلتها وعمدت الى جبينه فمسحت العرق
الذى كان يتصبب منه . وكان فى هذه الاثناء بين يقظان ونائم فقال : وردة
عزيزتى وردة ! فتراجعت الفتاة الى الخلف هاربة . فاقتفت نيفرت أثرها .
فلما تنبه نبسشت من نومه نهض واقفاً ونظر فيما حوله فوجد أنه فى مكان
لم يره من قبل ولم يعلم سبب وجوده فيه ولذا خرج مهرولاً فالتقى بينت
أنات تحذر أصحابها مما يكنفهم من الاخطار والنكبات .



الفصل الحادى عشر

— الرحلة من سيناء الى لبنان وما وقع فيها من غرائب الحدثان —

مرت قرون عديدة وأحقاب مديدة على سكان الواحة وهم يؤدون الجزية للفراعنة ، مقابلة تعهدهم لهم ان لا يبطأ عسكري مصري ترى بلادهم . وكان هذا هو سر نزول الاجناد الحبشان خارج حدود الواحة واقامتهم صواوين بنت أنات بعيداً عنها ، غير أنه حدثت بالرغم من هذه التدابير معارك كثيرة سالت فيها الدماء بين أولئك الجند الذين أركنوا الى البطالة والكسل وبين العمالة سكان الواحة الذين عرفوا بعزة النفس وسمو الهمة وسرعة النجدة وحب الاستقلال . وكانت تلك الحوادث تنذر بالخطر فى مساء يوم افترط فيه أولئك العساكر من الشراب حتى ترنحت أعطافهم وضلت عقولهم وضاع صوابهم فهاجموا النساء وهن ذاهبات للاستقاء .

وفى فجر ذلك اليوم استيقظ أحد أحراس الاسرى من نومه ، فتنبه الى غيبة بنطاؤور ونبيشت فذهب مع أصحابه من فوره وفيهم والد وردة ، وكان قد عاد الى مكانه مستتراً بالظلام بعد قيامه بما عهد اليه ، ليرفعوا الامر الى ضابط الجنود الحبشان الذى أيقن أن الشاعر والطبيب اختفيا بالواحة عند أحد العمالة . فضايرهم فى تسليمهما له ، ولكنهم لم يبالوا به لاعتقادهم فساد التهمة الموجهة اليهم وسخروا منه فاستشاط

غيظا وأمر بتفتيش الواحة . ولم يكن هذا الأمر متفقا مع نصوص المعاهدات المبرمة بين حكومة مصر وبينهم . ولما لم يعثره البحث عندهم عليهما اقتفى النساء والاطفال أثره يشيعونه بألفاظ التهكم والتبكيك وتمادوا في ذلك حتى ضاقت عليه المذاهب فذهب الى الواحة بنصف قوته العسكرية واحتلها .

لما رأى العاقبة هذا التمدي هبوا الى أسلحتهم فتقلدوها وتظاهروا بالانسحاب الى الورا ليستدرجوا تلك القوة الى متابعتهم ، وما زالوا بها حتى بلغت الى بقعة ممهدة من الوادي حول جبل صخري صغير (١) فاعتصم به سوادهم الاعظم . فلما مرّ الاحباش بجوارهم انقضوا على الطليعة والمؤخرة انقضاض النسورة وفتكوا بهما شرّ فتك . ثم انجلت الواقعة عن قتل عدد عظيم من الجند وإصابة الضابط نفسه بجراح اضطرته الى الارتداد على الاعقاب . وما ترك شرذمة من جنده لحراسة الاميرة الالكي تستنجد بها عند الحاجة لانه سارع بعد الانسحاب بالانضمام اليها واستأنف كرة الهجوم على الواحة بها وبالقوة التي عهدت اليها المحافظة على الاسرى .

لم يكديتوارى شبح آخر جندي وراء غابة النخل عن نظر بنت أنات حتى أصدرت أمرها باعداد العدة للرحيل . وكان رجال حاشيتها متفانين في الاخلاص لها ، فاهي الا ساعة حتى قوضوا الخيام ووضعوا على متون الجياد ما خف حملة وغلائمه من المتاع والزاد ، وانطلقوا في

(١) يسمى هذا الجبل الآن أكمة مهاوت وتوجد بها الى الآن اطلال كنيسة فران

دروب سيناء يفرونها فربا وفي طليعتهم ساليش متجها معهم صوب دار أبيه ، بينما كان الضابط وجنوده في قتال عنيف مع سكان الواحة الابرياء .

وكانت وردة في أثناء المسير تدبر بذكائها وصدق رويتها التدابير لالتقاء بنت أنات وبنطاور . وقد شرحنا كيف تم هذا الالتقاء وسردنا ما وقع فيه من حوادث الهيام ووقائع العشق والغرام . فلنضرب صفحا عنه الآن لنقول إنهما لما استأنفا السير لم يفترقا حتى وصلا الى آخر المرحلة ، في محلة كسيت أرضها بديباج الحشائش الخضراء ، فجلسا على هذا البساط السندسي وشرعا يتطارحان ذكرى ما اعترضهما من الشدائد والصعاب . ولما كان قبيل الظهر أقبلت ابنة العملاقى واخت ساليش تحمل قدراً مملوءة لبناً فتناولتها بنت أنات منها وسكبت بعضاً مما فيها في طاس متخذ من قشر القرع المجفف وقدمته الى بنطاور الذى كان يشمر ساهتد كأن روح العزة والكرامة مقرونة بالتواضع تنبت في كيانه الذاتى حتى تناولته جميعاً . ولقد حذق في بنت أنات النظر فماهد نفسه على أن يبقى ما عاش مخلص الولاء لها مضحياً روحه في سبيلها ومتفانياً في جيبها . وكانت حوادث الماضى الذاهب والحاضر المشاهد لحسن طالعها قد محت من قلبه الخوف من المستقبل ، فأصبح وكأن جناحي السعادة يرفرفان على رأسه . وما انتهى الاثنان من تناول ما هيء لهما من الطعام حتى أحس بنطاور بسُلطان الغرام الذى نحاه عن مواطن التفكير في شؤون الدنيا قد تغلب عليه ، فأخذ يجهد الفكر في

تدير مخلصه من المأزق الذي زج بنفسه فيه حيال بنت أنات وحاشيتها .
وكان الناظر اليهما وهما في حديثهما يأخذه العجب من أمرهما ،
فأنه بينما كان يسمع منهما عبارات الخوف والفزع كان يقرأ في عينيهما
آيات السرور ، وبينما كان يسمع مفاوضتهما في تدير مخرج لهما من هذا
المأزق كان يراها مترجمين نحو دار العملاقي . وماهي الا فترة قصيرة
من الزمن قصيرة حتى شهدا هذا الرجل وابنته مقبلين عليهما ومعهما
شيخ جليل من العمالقة ، فلما دنا الثلاثة من بنت أنات خرّوا سجداً
وقبلوا الارض بين يديها .

كان اسم ذلك الشيخ (ابو شرايوس) وهو عميد الواحة وكبيرها .
وكان قد اتصل به نبأ محاصرة الحراس لبنت انات ووقوعها في شرك
أسرم فحضر ليجمع نفسه في خدمتها ولينفذ ما تأمره به . وقد قال لها
انه موال لايبها الذي صان حرمة المعاهدات المبرمة بين مصر وعرب
العمالقة . وكان الرجل طويل القامة قوي الاساطين أسمر اللون اقنى
الانف ، وفي وجهه ندبة جرح أصيب به في منازلة عدوه له . ثم أخذ يقص
على بنت انات وبنطاؤور ، وكان يظن أنه شقيقها ، مالحق جند الاحباش
من الخذلان وأنهم وقموا جميعاً بين قتيل وجريح واسير ، ثم قال : ان
هؤلاء الجند اشداء على اهالي (روزح) الذين يشبهون السكلاب جنباً
وسفالا . أما نحن فرجال اذا طمع فينا أجنبي وحاول الاغارة على بلادنا
اذقناه من دفاعنا الذي يشبه دفاع الليوث عن عرائنها كأس المنوف .
فليات منهم الالوف تلو الالوف ونحن ننكل بهم ونوردهم موارد الختوف

وما ايقنت بنت انات اخلاص الرجل وصدق استعداده لدفع
المسكاره عنها حتى وعدته بان تذكره بخير عند ابها الملك وتوصيه
برعايته هو وقومه ، ثم اخبرته برغبتها في الذهاب مع بنطاؤور الى المعسكر
المصرى في الشام وذكرت أن هذا الشاب سيكون في المستقبل قرينها .
وكان الشيخ يمد بصره الى بنت انات وهي تفوه بهذه الكلمات حتى اذا
التفت الى بنطاؤور اطرق رأسه احتراماً واجلالاً له ثم قال : أنت يا ابنة
الملك لا زهى من القمر سناء وتألفاً انه لا نظير لرفيقتك في العالمين ، وانما
هو أشبه الناس بـ (دوزاره) اله الشمس . ثم ضرب صدره بكفيه وقال :
لم أر في حياتي زوجين يشبهانكما غير (ابى شرابوس) وزوجته ولهذا
عولت على مرافقتكما بنفسى الى (هبرون) ومعى رجالى الشجعان .
ولكن عجلوا بالرحيل قبل وصول الجند الذى لا بد ان يبعث به ذلك
الخائن الاثيم الحاكم الآن على مصرأثم^(١) لينتقم من العمالقة . هلموا الى
خيامكم لاعداد معداتكم وغداً لا تبرغ الشمس حتى نكون في الطريق .
ثم وقفوا تجاه بيت العملاقي فتقدم رجال حاشية الاميرة صوب
بنطاؤور وأدوا له واجب السلام فلما دنا منه رئيس الحجاب كانت تبدو
على وجهه علامات القلق والتردد ، لان الملك رمسيس وان يكن قد
أمره بالطاعة المطلقة لكنيمته المحبوبة لم يرق في نظره أن تهوى من
أوج كرامتها العالية الى حضيض الرضاء بأن يكون أحد رجال العامة
قريناً لها . أما نيفرت فكان مما يشرح فؤادها أن تمدق في بنطاؤور

(١) اسم مصر عند المصريين

النظر وتمعجب بما رزق من جمال صورة واعتدال . قوام وكانت تناجي
نفسها بان هذه الصفات العالية تمثل لخاطرها صورة آسا زوج خالتها .
وكان هذا شأن وردة مع بنطاؤ و بنت انات ، فانها كانت لا تمل النظر
اليهما والدعاء بتحقيق أمانيهما ، وأن تكون هذه السعادة مقدمة خير
لتحقيق أمنية نيفرت بلقاء قرينها مينسا وتحقيق أمنيتهما أيضا . وكان
بنسشت في أثناء هذا بمزمل عن الجميع تواضعا منه أو حياء ، وقد ذهب
صفاء الجو وطراوة النسيم بصداع رأسه . فلما انتهت مراسم السلام
على بنت انات وبنطاؤور على الوجه المتقدم دنا الشاعر فأخذ بيده ثم قال :
اني أكف منذ الآن عن تمزيكك لأن مبدع هذا الكون الذي تستمد
به في صلواتك قد محما من نفسك العيوب التي لأجلها عزرتك . قال
بنطاؤور : لا مدعاة لأسف أيها الصديق ، ولسوف يجيء دورك فنكون
على وفاق تام ونعيش في صفاء وسلام . قال بنسشت معترضاً : أرى بلوغ
هذا المرام وعياً ، لان بني الانسان آلات ركبت في مصنع واحد لا
تدرکه الابصار . وكل الفرق بين آلة وغيرها ان تكون احدهما من
الخشب الجيد والاخرى من الرديء وان تكون الاولى صحيحة الصنعة
محكمة تعاشق الاجزاء والثانية عكس ذلك . أما أنت فمن الطراز الاول
لانك تشبه الآلة الموسيقية التي يسمع اهتزاز أوتارها كلما هبت عليها
رياح القدر وأما أنا فكالآلة التي تبين اتجاه هذه الرياح وتعين مهاجها ،
ولسكني كلما تحركت يمنة أو يسرة سمع مني صرير يمل السامع . واذا
اتخذني ربان السفينة دليلاً للسلوك بفلذكه الى الوجهة المرومة فليس هذا

ما يهمنى شأنه ، ولذلك تراني أدور كلما حركتني الرياح وسواء عندي
التفت الربان الي أم لم يلتفت .

غادر بنطاؤور وبت انات بيت العملاقي بعد ان افاضت عليه النعم .
وكانت الشمس في التطفيل وقة جبل سيناء تتوهج كعلم على رأسه نار
أو كاحجار ياقوت تسطع في اكليل ذهب . وكان قرص الشمس
كجذوة نار شديدة الاحمرار ، الا انها كانت مغطاة بسحاب خفيف
كالقبس تنشاه طبقة رقيقة من الرماد . ولما اقترب ثمر الفجر وبداء عمود
الصبح تحرك ركب الاميرة جاعلا وجهته معسكر رعمسيس ، وكان
(ابو شرايوس) اماما لها يهدبها سواء السبيل في المنعرجات ، وكان
ابن المحنط ينم سائرا خلف ابنته وردة . فلما قطع الركب المرحلة الاولى
والتمس الراحة بالوقوف عندها دعته الاميرة اليها وسألته أن يقص عليها
ما استنبطه من التدابير لتخليص بنطاؤور ، وكيف استطاع الذهاب به
الى شبه جزيرة سيناء ، في حين كانت النية معقودة على نفيه الى محاجر
رحنو فقال :

« انبأني وردة بالمكان الذي تقرر ان ينفي اليه هذا البطل الذي
تطوع للذود عنا وبسطت لي ضرورة العمل لانقاذه حتى لا يرسل الى
ذلك المنفى ، ولكننا لم نوفق حيلة تقضى بها هذا الوطر . ولم يكن لمثلي
أن يستنبط حيلة أو مخترع وسيلة ، فرب أمر استحسنه فيكون بذاته
قييحا فانساق به الى فعل الشر وأنا لا أريد الا الخير . وحدث قبل ان
تفاوضني وردة في هذا الشأن اني كنت اقوم على حراسة بعض المحكوم

عليهم بالعمل في معادن مفكات وجرت العادة بانزالهم في السفن من
مرسى مدينة الاموات فرأيهم قبل نزولهم ، وقد علت وجوههم غبرة
الحزن والاشمى . وكان منهم من يلزمون السكوت والسكون الا أن
امتقاع الوانهم واصطكاك أسنانهم رعبا وفرقا وانصراف انظارهم الى
الفضاء أوحى الى ضميري الاعتقاد بأن اولئك الساكتين الساكنين
أولى بالشفقة وأحق بالرعاية من الذين ارتفع صياحهم الى عنان السماء
ورددت جلبتهم اركان الفضاء . وكنت كلما تأملت الفارق بين الفريقين
انتابت جسمي قشعريرة التأسي لهؤلاء والحقد على أولئك .

« وكان في الفريق المتمسك بأهداب الصبر والسكينة رجل تبينت
حقيقته لأني كثيرا ما رأيته حين كان أسرى الاجانب الذين نبطت
بي حراسهم يشتغلون ببناء القاعة الكبرى ذات الاعمدة . تأكد لي
منه انه مفتش حراس حمل آمون المقدس ، وكنت أعهد فيه الحرص
على أداء الواجب ، وكان لجأ ليلة الى الراحة فدخلت الذئاب الهيكل
واقطعت الحمل الذي وجد قلبه بعد في صدر النبي روني . واذا كان لا
غنى عن ارضاء الامة وتسكين ثأرتها بماقبة ذلك الحارس المسمى هوني
فقد صدر عليه الحكم بالنفي الى معادن الذهب وعين بدلا منه رجل
اشد يقظة واكثر حرصا على الحمل المقدس .

« شهدت هوني في معزل عن بقية المحكوم عليهم فدهشت
لعزلة لا اعتقادي ان له زوجة وأولادا كان يجب عليهم الحضور لوداعه
وتشديمه بمبارات العطف التي تخفف عن القلوب أعباء الحزن فسألته

عن سبب اهمال اهله أمره وعدم عنايتهم به ، فاجاب بأنه ودعهم عند الباب حتى لا يروه مع باقى المحكوم عليهم من المزرورين والقاتلين . وكان قد حدث منذ أيام حريق هائل فى بيته فالتهم ما به من أثاث ومتاع حتى لم يبق عنده ما يسدون به الرمق ، فزاده ذلك كدرأ على كدر . وكان فى روايته لى حوادث هذه الفاجعة لا يستطيع متابعة الكلام ، بل كانت تخنقه العبرات فيصمت . وحينما أنس منى العطف عليه والرفق به قال بصوت جهورى : اننى ارضى بالنفى الى معادن الذهب بل ارضى ان يقطع جسمى ارباباً ، ولكن لا ارضى ان تحتمل زوجتى ذل الفقر ويقع أولادى فى مخالب الجوع .

« وعلى أثر ذلك خرجت لتوديع ابنتى وردة ممثلاً لخاطرى حالة ذلك الرجل وما استولى من اليأس على فؤاده فقالت فى نفسى لو كنت غنياً لما توانيت عن اسعافه بما يجعل زوجته وأولاده بعيدين عن الحاجة وذل السؤال ، ولكنى سأبذل قصارى الجهد لتعزيتة بما يسرى الهم عن قلبه . ولما التقيت بوردة البلفتى تبرع الطيب نبسشت لها بماله وحادثتى فى امر بنطاؤور ووجوب انقاذه ، فاصبحت تجاه أمور ثلاثة تتنازعنى : اسعاف المنكوبين والشكر لبسشت وانقاذ بنطاؤور . غير ان هذه الثلاثة الامور اندمجت فصارت امرأ واحداً اتخذته رائدى ودليلى فيما استخرت الله على اتباعه ، فمجلت الاوبة الى الميناء حيث سلمت هونى مبلغاً كبيراً من المال ليحل محل شخص محكوم عليه بالنفى الى محاجر رحنو . واطلعت على انه سيرسل فى الحقيقة الى معادن الذهب

لا الى هذه الحاجر ، لانه اذا جازت الحيلة على من حنكتهم التجارب
ودلكتهم المحن فانه لا يجوز على الاطفال والمرضى ، أعنى المنكوبين في
عقولهم وابداهم ، غير الحقيقة الواضحة . عرضت عليه المبلغ وأصدقته
القول فتلقى طليبي منه بالرضاء والقبول قائلاً إنه يفضل عذاب السمير على
أن يرى أولاده في ذل الحاجة والسؤال . وبناء على هذه الحيلة التي لم
اعالج عنها في استنباطها ، اذ جاءني عفوا ، حضر بنطاؤور الى السفينة
منتحلا اسم هوني ، بينما كان هوني الحقيقي يواصل السير صوب الجنوب
منتحلا اسم بنطاؤور ، ولم يظهر قط سر هذه المعاوضة الاسمية حتى
الآن . أما ما وقع بعد من الحوادث فعندكم علمه ، وها أنتم اولاء
تتصدون الى الشام التي خبرت أحوالها مذ كنت أذهب بالإسرى
منها الى مصر وأقت بها خمس سنوات في حراسة الموهار الاكبر أبي
بعاكر رئيس الطلائع»

شكرت له بنت انات هذه الصنيعة واثنت عليه بأجمل الثناء ، فقال
نبسشت : لقد كنت في اثناء السفر شديد القلق على بنطاؤور اذ كانت
تبدو عليه علامات الالم ، ولكن قلبي عاد فاطمأن عليه لما وصلنا الى
الصحراء اذ أخذت تلك العلامات تتبدد شيئاً فشيئاً . وكان كلما نزلنا
بمكان او وقفنا عند مرحلة يشنف سمي بما ينظمه من شعر وافر الحظ
من بديع المعنى وشريف اللفظ ، فقالت بنت انات : يالها من مصادفة
حسنة فاني ما بلغت من رحلتي الى الصحراء حتى فارقتني الهموم ونشط
جسمي من عقاب المتاعب . قال نبسشت لبنتاؤور : أي رحمك الله .

شئف مسامعنا بالقصيدة الغراء التي نظمتمها في وصف نبات البعيران ،
سأل بنطاؤور الاميره : أوتعرفين هذا النبات ؟ . انه ينمو في الصحارى
والقلوات وها نحن اولاء نراه حولنا وبعيدا عنا . ان عركه الانسان
بين اصابعه سطع منه شذا عطري يملأ انخياشيم . وقد نظمت فيه
اياتا كما نظمت في غيره على ما تعلم . فتبسم نبسشت قائلا . نعم اهي
الايات التي تمجد فيها الهة واحدة ملكت عنان الجمال وقبضت على
صولجان الحسن والدلال . قالت بنت انات : هات ما عندك هات
وتحفنا بما نظمته من الايات . قال الشاعر : « عثرت بالصحراء ، على
النبات ذى الاوراق الخضراء ، التي اذا عركت بالاصابع ، انتشر شذاها
الساطع ، مع أنها نبتت من الصخر ، في بلد قفر ، ان قلبي قد ادمته
الكلوم ، وساورته الهموم ، فلما سرحت النظر في الصحراء ، انجلي
عن قلبي البؤس والعناء ، وأدركت كيف يكون نظم الاشعار ، حينما
انسدل عليها من السكون ستار »

سألت نيفرت : ماذا تقول ؟ الصحراء علمتك قرص الشعر ا وهل
نسيت ما للعشق في تعليمك اياه من الاثر الظاهر ؟ اجاب بنطاؤور :
هدأ وشكراً للآتين معاً . ولكن لا يسعني ان انكر ما للصحارى ومد
النظر في الآفاق من حسن التأثير في نفوس المشاق . ألا يضطرنا السأم
من تجانس ظروف الحياة وتمائل احوالها في كل وقت الى مراجعة
النفس في استطلاع أسرارها وكشف مضمورها ؟ ألا نحس آتئذ بمشاعرنا
وقد امتد عليها رواق السكون وخفقت عليها أعلام الهدوء لا يساورها

شيء من العوامل المحيطة بها؟ ألم يكن هذا الاطمئنان مستغزاً للذهن على الاجتاد والابتكار حائناً للروح المنطوية في ذاتها على الانفعال بأقل المؤثرات؟ ان الانسان في مدائننا الكبرى كالهبة الصغيرة بل كالجزم الذي لا يتجزأ اذا قيس بالمجموع، وهو متصل به اتصال اندماج وتلاحم وخاضع لما هو له خاضع، ولكنه متى انفصل عنه ملتجئاً الى الصحراء أصبحت علاقته به منحلة العرى مفكوكة الروابط، اذ يكون وقتئذ خاليًا من قيود التضامن بينه وذاته، فيها يتعسس أسباب الفرح وكل ما تصبو اليه نفسه من خير.. ان العقل ليرى في البعد عن المجموعات البشرية مجالاً للفكر لا تحده عقبة ولا يقوم دونه مانع قاطع، لانه لا ينصرف الا الى المستقبل، أما الماضي فيتلاشى تجاه ما تترامى اليه الآمال في آفاق الاستقبال.

قال نبسشت . أصبت ! فان الصحراء خير مجال لتوارد الخواطر والافكار وأحسن مستغل لثمرات الابتكار ، بدليل اني وأنا بمصر كنت انظر الى الكثير من الاشياء فيخيل لي ان بيني وبينها حجاباً مسدولاً أو ضباباً كثيفاً ، فلما ان جئت الى الصحراء انحسر الحجاب واتشع الضباب . سأل بنطاور : أجبنى ما هي تلك الاشياء ؟ اجاب نبسشت : ثلاثة أولها اننا لانعلم بالحقائق علماً أكيداً وثانيهما انه اذا كانت النفس تميل الى الورد مثلاً ، فليس معنى هذا أن الورد يميل الى النفس وأما الثالث فسر غامض أحب استبطانه . واذا ارتبط هذا السر باحوال الكون فمن ذا الذي يكلف نفسه مؤنة الاهتمام به ؟ ثم التفت الى الحاجب وقال :

فلتبين هذا السر معا أيها الحاجب . . أنت أعلم الناس بصروب التحية
وما تقتضيه من الطقوس والمراسيم . . علمت ذلك ممن يتشرفون بلقاء
الاميرة ، ولكن أخطر بيالك يوماً البحث في تركيب العمود الفقري
للإنسان ؟ اجاب الحاجب سائلاً : كيف تطالبنى بالوقوف على سر
تركيب الفقرات وإنما انا منوط بتحديد وتنسيق ما ينبغي أن يديه
المتشرفون بلقاء الاميرة من ظاهر الاشارات والحركات ؟ ان مثلك
من يجدر به الوقوف على سر تركيب العمود الفقري لانك تواصل
ليلك بنهارك في استطلاع أسرار الجسم البشري ، ولو أنك هوتت
على نفسك ولم تمكف عكوفك هذا على الدرس والمذاكرة والبحث
والناظرة لاستطعت أن تنسق شعرك وترتب ثوبك .

وصل ركب الاميرة الى هبرون ، عاصمة أمة الخيتاس ، دون أن
يلقى بالطريق عائقاً ولا حادثاً مكدرأ . فلما استقرت بها الاميرة
وأمنت على نفسها استأذن منها ابو شرابوس ورجاله في الانصراف
فأذنت لهم بعد أن غمرتهم بمجزيل انعامها ، ثم نحر الكعب الى الشمال
تحف به كوكبة من الفرسان المصريين . وكان بنطاؤر قد تخلف عنه في
ذلك المكان مع أبي وردة العارف بأسرار طرق الشام ومنافذها ،
ولكنه ما غاب عن الانظار واتقضى الليل وطلع النهار حتى نهطت
الامطار وأصبح متمذراً اجتياز جبل السامرية . ومع هذا فقد جدت
الركب في المسير فوصل الى مدينة ماجدو^(١) فاستقبلته الحامية المصرية

(١) تسمى باللغة المصرية مارطه وهي احدى مدائن فلسطين وما زال اسمها منقوشاً في

بمظاهر الاجلال اكبارا لمقام الاميرة التي أقامت بها أياما نالت نيفرت فيها الشفاء من مرض ألم بها . أما وردة فكانت تزداد كل يوم نحولا وضعفا لما غشيها من الهموم ، وشهدت ذلك منها بنت أنات فسألتها عن السبب فلم تجاب بما يشفي القليل مواربة عنها مضمون سرها ، لأنها لم تكن فاهت قط باسم راميرى على مسمع من اخته الاميرة كما لم تكن حديثها بمسئلة الخاتم الذى تركته والذتها استحياء وخوفا من أنها اذا أطلعها على دخيلة أمرها وأبانت ما هو مبهم من سرها ازدردت بما يربطها وراميرى من عواطف المشق وأنحت باللائمة عليه فيعرض عن حبها وينقض ما توثق بينهما من عهوده ويلقى بها فى مهواة من المحن والاحزان لا قرار لها .

ولما صار الركب على مقربة من الحدود أنفذت الاميرة الى المعسكر الملكى رسولا للاستفهام عن الطرق المأمونة والمسالك التى تؤدى بالسائر فيها الى قصده فى سلام وطمأنينة ، فاهى الافتره من الزمن حتى عاد ذلك الرسول ويبيده رسالة موجزة من الملك رعمسيس الى بنت أنات يأمرها فيها الا تبرح ماجدو لتوافر أسباب الامن فيها على الارواح ، بما يحيط بها من الحصون المنيعه ويقوم على حفظها من القوى العسكرية المدربة على القتال . وهذا فضلا عن أنها قاعدة الاجراءات العسكرية للجيش المحارب ومستودع لوازمه من مؤن وذخيرة والحاكمة بموقعها

الانار المصرية . وكانت مشهورة بمناعة موقعها الحرن قبل ان يبيد بناءها النبي سليمان . وقد أغار عليها ملوك الاسرة الثالثة عشرة المصرية فى القرن السادس عشر قبل الميلاد

الحربي قرب البحر على شمال فلسطين ووسطها . ثم زاد أمره تعليلًا بأنه أصبح على وشك محاربة العدو في معركة فاصلة تقضى العادات والتقاليد ألا تحضرها حتى لا يصيبها فيها مكروه .

وبينا كانت بنت أنات في ماجدو تنتظر توارد الرسائل من أبيها تطعمان قلبها بتلاوة ما تحتويه من أنباء الظفر ، كان بنطاور والجندي والد وردة وكوكبة من الفرسان نصب حاكم هبرون على قيادتها ذلك الشاعر يسرون حيثما نحو الشمال . وكانت هذه أول مرة امتطى بنطاور فيها صهوة جواد ولكنه استوى على متنه بما خيل للرائي معه انه من الفرسان المدربين الذين قضوا شطرا كبيرا من حياتهم في ركوب الخيل ، مع أنه لم يكن تلقى هذا الفن ولا برع فيه الا منذ يومين فقط على والد وردة . وبلغ من مهارته وبراعته أنه كان يفضل امتطاء الفرس الشموس على السهولة القياد ، فما هي الا دقائق معدودة حتى يكبح جماحها ويكسر من حدتها ويخضعها لأرادته . وكان قد تجرد من امساحه الكهنوتية ولبس الزرد وتقلد السيف وأرسل اللحية الى أن مست منه الصدر . وكان والد وردة لا يكف عن النظر اليه والاعجاب بشكله بل كان كثيرا ما يناجي نفسه بقوله : يخيل لي أن الموهار الاوزريسي الذي كثيرا ما جبت معه الامصار وسلكت القفار قد بعث من بين الموتى متقمصا شخص بنطاور . اني لأراه يضارعه نضرة وجه ونبرة صوت اذا أمر الجند بأمر ، ويشبهه في لفتته ومشيته والقبض على زمام جواده وفي العدول عن ركوب المركبات الى متون الجياد ، كلما حالت

وعورة الطريق دون سهولة السير فيه .

ولم يكن بين رفاق بنطاؤور من يسكن اليه ويرتاح لمحادثته الا والد
وردة . ولهذا كان يسير في الغالب خلفهم بمفرده ناظرا الى كل ما يقع
تحت بصره ممعنا البحث فيه حتى لا تقوته الاستفادة بعلم ما لم يعلم .
وما زالوا مجدين في السير حتى بلغوا الى جبال لبنان فشهد الوادي الذي
كثيرا ما قرأ عنه في الكتب وسمع من الناس وصف محاسنه ، فسره
منظره وأعجبه على الاخص خرير الماء المنحدر على صخوره ، وانما ساءه
أن يرى القرى وقد عبثت بها يد الخراب والتمتها النار من جراء
الحرب وأن تصبح ضواحيها موحشة معطلة من الانيس لانتظام سكانها
الفلاحين في سلك الجيش المخارب . وقد علم ان الاعداء مروا بهذه
الجهة واغتصبوا من الحراثين بقرم ومن الرعاة أغنامهم . وكان رجل
يعالج في هذه الساعة بعض الكروم ، فلما سمع وقع حوافر الخيل وثب
وثبة اختفى بها عن الانظار دون ان يلتفت الى المقلبين عليه . وكانت
الارض محروثة ومحضرة للزرع وآلات الحراثة ملقاة على حواشيتها ،
وليس فيها للسبب المذكور من يتم الحراثة بالبذار ، فانشأ يقارن بين
هذه الاودية النضيرة ذات الخيرات الوفيرة وبين رمال ليبية وصخور
سيناء وسهول مصر ثم فلم ينالك ان صاح : ما أجل هذه البقاع . . .
ان الآلهة فيها أرأف بالانسان منهم به في بلادنا . ولقد أصاب اساتيدنا
حين بثوا فينا بغض الاجنبي ومقت الكافرين وخشية الايفال فيما يلي
النيل ، حتى لا يتجاوز شعب بلاده التي نشأ فيها الى بلاد غيره فيطرح الى

منازعة على الاختصاص بخيراتها .

وكان الشاعر في اثناء ذلك يدنو من معسكر الملك ، فلما صار على مقربة منه تنازعه عاملان ، ذكرى بنت اناث ورهبة رعمسيس فيما سيدور بينهما من المحادثات . الا انه كان يطمئن خاطره بقوة الاعتماد على النفس وحسن الظن في العاقبة فيتغلب بهذا الاطمئنان على ما عراه من الاحزان ولكنه كان يعود فيتهم نفسه بالتطرف في حسن الظن والتهور في الاعتماد على النفس فيغشى قلبه الحزن ويعتري خاطره الاضطراب ويستسلم لهذه العوامل حتى اذا اوشك ان ييأس وفي نفسه شر اليأس بالجلد وعدم المبالاة وازاح بهما عن قلبه غشاء الحزن ووطن نفسه على الثبات والاقدام .

وتذكر بنظائر ؛ وهو في متنازع بين هذه العوامل ، ما كان من حكم أميني عليه وهو واقف وراء اقرانه في تواضع واستحياء وانصراف عن الناس ، فتبسم وأخذ يسائل نفسه أهو الآن كما كان يصفه استاذه أميني في مصر ، واذا كان هناك تباين فهل سببه اختلاف المكان وهل تؤثر الامكنة في النفوس والطباع ؟ وأخذ بعد ذلك يمثل لنفسه حالته فقال انه لم يكن الا كاهناً لفظته الهياكل لفظ النواة واخرجه الكهان عن أفقهم وطرده الدين من حظيرته القدسية . دع انه ليس الا ابن بستاني وضيع القدر منحط الكرامة . . . ولكن عاطفة الشم وعلو الهمة تغلبت على هذه الضمة بالامل في حب بنت اناث فقال مناجياً نفسه إن حبه لها متم لما ينقصه من الكمالات وسائر لما مني

به من العيوب وانه اصبح صاحب الحق في التطلع اليها بطلب الاقتران
بها . ثم راجع نفسه فقال : ولكن ما العمل اذا قابل رعمسيس بالرفض
هذا الطلب وانقلبت من عنده شر منقلب . ووقف ثابتاً في مكانه كمن
ينظر سيف النعمة الذي يود الملك ضرب عنقه به معلقاً على رأسه ثم
قال : لا أحد على وجه الارض مهما يكن له من الجبروت والسلطان
ينزع من يده قلب بنت انات وهو انفس ما أعدته الآلهة عليه من
النم والهبات .



الفصل الثاني عشر

— بداية الحوادث وفاتحة الكوارث —

كان سكان الجبال يترصدون في الغابات والآجام لبنطاؤور وصحبه لسكي اذا مروا بهم باغتوهم بالحملة عليهم والتنكيل بهم فيهب هؤلاء للذود عن انفسهم وقد ظلوا بين اطمئنان وانزعاج وبين سلم وحرب حتى بلغوا الى بقعة ليس بينها والمعسكر سوى مسيرة يومين للمجدت، فاذا هم يرون فيها جموعا كثيفة وافواجا حشيدة من العدو خرجوا من مكائهم. وكان بربروس والد وردة قد أحس الخطر الدائم فتقدم ليستطلع الخبر ثم عاد كاسف البال منزعج الضمير مروع الفؤاد فأخبر بنطاؤور بأن الخيتاس ملأوا الارض وسدوا بجموعهم الأفق وراء الغابة، وان في هذا الدلالة الاكيدة على تقهقر جيش رعمسيس، والا فمن أين للعدوان يقتحم الخطر بالزحف على مؤخرته طمعا في قطع خط الرجعة عليه والفتك به؟ ومماضاعف الخوف والاسى ان أصحابنا التقوا في أصيل اليوم الماضى بشرذمة من الجنود المصرية خرجت للاستطلاع فاخبرت بان الملك ما زال موجودا بمسكروه؛ وانه على اهبة مقاتلة الاعداء في واقعة يكون فيها فصل الخطاب، وان المرجح ان الحرب لم تضرم فارها بعد نخلو الغابات من أثر الجبناء اللاجئين الى الفرار. فلما لم يهتد بنطاؤور الى الحقيقة الثابتة تجاه تناقض الاخبار دنا منه والد

وردة وقال له : اذا استطعنا ان نتوقى شر مداهمة العدو ساعتين فقد
نجونا . وأوجوا الا يهتدوا الينا اذا سلكننا الطريق الموصل الى سهل
قادش ، وهو طريق وقفت على سره وتبينت مسالكه كالموهار السابق
وخاصة رجاله . واذكر ان عند منتصفه كهفاً طالما لجأنا اليه واختفيناه
أياماً ولياليها به دون ان يقف الخيتاس لنا على اثر ، حتى لقد رسخ في
عقائدهم ان الموهار ظفر بخصية الاختفاء عن الابصار في أية ساعة ما
من الليل أو النهار ، مع انه ما كان لنا ان نلجأ الا الى ذلك الكهف
الذي اعثرنا عليه المصادفة . فاذا كنت لا تخشى على نفسك خطر
الصعود الى قم الجبال ولا تستصعب مشاق السير في الوهاد والنجاد
فترجل عن جوادك واتبعني بلا كلام وانا زعيم بوصولك الى معسكر
وعميس في امن وسلام .

عهد بنطاور قيادة الشرذمة عندئذ الى بربروس فسار هذا المقدم
على رأسها صاعداً تارة ومنحدراً اخرى وماراً من جهة اليمين طورا
وجهة الشمال آخر حتى وصل الى شعب ضيق بين جبلين تنحدر منهما
مياه يبدو زبدها في ثنيات الصخور بشدة الاصطدام فنزل والد وردة
عن متن جواده فاقتدى به بنطاور والجند . ولما عبرت الجياد الماء محام
بربروس أثر الاقدام والحوافر في الرمال وافرغ في أداء هذه المهمة كل
حذق ، ثم صعد مع صحبه في المسيل وعانى صنوف المشاق في هذا السبيل
لمقاومتهم اتجاه التيار . وما يرحوا كذلك حتى وصلوا الى بقعة اشتبكت
فيها اغصان الورد بأغصان الغار ، فكان بربروس يفرق بينها لاقتصاص

الاثر في الطريق، وبذل في ذلك جهده حتى اهتدى اليه . وكان بنطاور
ورجاله والدواب قد نال منهم التعب فلم يصلوا اليه الا بشق النفس .
وظلوا يمحنون السير حتى اجتازوا غابة مترامية الاطراف الى اُبعد مدى
ثم انحدروا من شعوب ضيقة الى نجود بعيدة القاع وصعدوا منها في
صخور كأسنه الرياح في ارتفاع الذري ، ثم هبطوا غدراناً فاضت مياهها
لانسياب مياه الامطار فيها فركبوا فيها متن الاخطار والمعاطب . وقد
اكفهر وجه السماء في هذه الاثناء فتهاطل الوبل غزيراً ، ثم اظلم الافق
وما هي الا هنيهة حتى أرخى الليل سداله وشد النهار رحاله .

فقال ببروس هلموا بنا سريعاً ونماسكوا بعضكم ببعض ،
فبالانصال والتماسك تكون النجاة وبالجلد والثبات نصون الحياة . وما
أثم هذه الكلمات حتى كبا جواد فعاني والد وردة وأعوانه النصب
في إقالته من عثرته وإشالته من كبوته ، وكان الليل أسود فاحما والمطر
وابلا ، فأخذ ببروس يتحسس يديه الطريق ورجال الشردمة حوله
تتنازعهم عوامل اليأس والرجاء ، وكانوا الى هذا أميل منهم الى ذلك .
ثم وقف فجأة وجذب بنطاور اليه وقال : لعل المغارة قريبة منا .. ادن
منى ليتاً كذلك صدق قولى ، ولكنى أخاف أن نلتقى فيها ببعض خدم
بعاكر الذى اتخذها والده في حياته مستودعاً للمؤن والذخيرة .. أترى
شبحى في هذا الظلام الحالك .. أمسك بنطاورى وحذب ظهره ولا
تقف الا بأمرى ، ثم تقلد سلاحك إذ لا يبعد أن نلتقى في طريقنا
بجماعة من الخيتاس أو اللصوص فلا تؤخذ على غرة منا . أما أصحابنا

فلا تفكر في أمرهم فسندهم عما قليل . فسار بنطاؤور والدليل متراكنين في نفق ينتهي الى جب عميق ذي حافة من الحجر الصلد المشرع الاطراف كأسننة الرماح . فلما بلغا اليه قال بربروس : خذ حذرك ومل الى يسارك لان الجب الى يمينك . . ماذا . . اننى أشم رائحة دخان . . عليك بمقبض سيفك لأن في المغارة رجالا . . انتظر هنا حتى أذعو رجالنا .

قال بربروس هذا وانقلب راجعا وظل بنطاؤور يأذن الى الجهة التي لاح له أن الدخان مندفع منها بتيار الريح ، ثم أمعن النظر فلمح نوراً وسمع أنينا وتبادل سباب ، فدنا من مصدر الصوت ومنبعث الضوء متكئاً يسراه على الصخور وقابضاً يمينه على السيف وناظراً الى الضوء . وكان والد وردة قد عاد في هذه الاثناء فسار الاثنان حتى بلغا الى باب المغارة الذي كانت أشمة النور تنبعث من شقوقه ، فاستندا اليه وقال بنطاؤور للجندى : ان القوم من المصريين وهأنذا اسمع حديثهم . . قال والد وردة : قال حسن ولعل الموجودين هنا بما كره وفريق من اعوانه . ولا ريب أننا اذا طرقتنا الباب أربع طرقات شديدة وثلاثا خفيفة فتحوه لنا لان هذه الطرقات رمز التعارف بين الذين خارج المغارة والذين داخلها ، وهل تفهم مايقولون ؟ قال بنطاؤور : أسمع صوت رجل يلتمس اطلاق سراحه وفك قيوده وآخر يظهر من سياق حديثه عن الاول انه خائن غادر ، وطرق أذنى بعد ذلك صوت خشن يرفض هذا اللتمس ويطلب من صاحبه ان يقيم على طاعة مولاه . فلما

سمع صاحب الالتماس هذا الجواب شكاً وبكى واستحلف رفيقه بروح والده أن يطلقه من قيوده . ويلوح لى من شكله وقوله ان اليأس قد استحوذ عليه . . ان قلبى ليرفق بحال هذا الرجل ، فاطرق الباب يا بربروس فقد حان وقت انقائه من هذا العذاب الاليم . . اطرق ا اطرق الانخف ! فأطاع بربروس الامر وطرق سبع طرقات اربعا شديدة وثلاثا خفيفة ، فسمع من داخل المغارة صوتا رددت صداه اركانها ثم فتح الباب رجل صلصل بصوته سائلا : أنت بما كرت . قال بربروس : كلا بل أنا (رشتا) ألا تعرفنى يا (نوبى) . فلما سمعه الرجل وهو احد عبيد بما كرت الاحباش تراجع الى الخلف وقال : من جاء بك الى هنا وأنت على قيد الحياة . . قال رشتا أو بربروس وأشار الى بنطاور : مجاوبك مولاي هذا على سؤالك .

فتقدم بنطاور نحو الحبشى ووقف ازاءه فى موقف تجلّت فيه هيئته وبانت طلعتة باشعة الضوء المنبعث من نار مشتعلة بالمغارة ، فحدق فيه نوبى النظر ثم سقط على الارض كالمصروع وأخذ يهرّ كالكلب يؤدبه صاحبه ويتمرغ كمن أصابه مس ويقول : هذا خيال الموهار ! هذه روحه قد تجلّت لى فى شبح ! لعله اراد ذلك ! لعله اراد ذلك ! فلما رأى بنطاور منه هذه الفعّال وسمع هذه الاقوال أخذته العجب ، وزاده عجباً ان رأى رجلا مكبلا يحبو متمتراً وينظر اليه مسترهماً ويقول : أتقذنى من الهلاك يا روح الموهار يا ابت ! أتقذنى احسانا منك ورحمة ! قال بنطاور بعد ان تأمل فيه : لست روحا لاحد الموتى حلت فى جسد

ليكون بها كما كانت بين الكائنات . . عجباً ! انى أعرفك ! ألسنت
هوروس أخا بعاكر ألم تتلق العلوم معى فى بيت سیتی ؟ . .
ارتعدت فرائص الاسير المصفد بالحديد وشخص فى بنطاور
وقال : كن كيف شئت فأنت أشبه الناس بوالدى وصوتك كصوته ، فحق
عليك اذن أن تحمل قيدي وتطلق سراحى . أتقضى ! أتقضى ! من هذا
الذل الشائن والمذاب المهين ! أتقضى ! فقد أبرم الخائنون الحيل للفتك
برعمسيس وما نحن جميعاً الا حزبه وأنصاره . فاقرعت هذه الالفاظ
سمع بنطاور حتى جرد سيفه ففرى به الجلود التى شدت بها وثاق الاسير
وفك الاغلال ، فوقف الرجل وصاح صيحة السرور بالخلاص وشكر
للآلهة اسعافهم وامدادهم واثنى على مخلصه ثم قال : ان تكن محباً لمصر
صادق الولاة للملك فاتبعنى ، فقد آن اوان كشف المكيدة المدبرة للملك
والضرب على أيدي مدبريها بما يكون عبرة لهم وامثولة للاعقاب . قال
برروس : ان الليل الآن حالك الظلمة والطريق الموصل الى الوادى
مخفوف بالاطار . قال الرجل : الاستهانة بالاهوال واحتقار المصاعب
واجبان الآن فاقتفوا اذن أثرى ولو لقينا الختوف ثم استولى على سيف
الشاعر وخرج . أيقن الحبشى عندئذ ان الشاعر لم يكن روح الموهار
تقمصت فى جسد أحد الابرار ، وتذكر انه الكاهن الذى كان يدافع
عن وردة وجدها دافع الابطال فحاول الفرار مقتنياً أثر هوروس شقيق
بعاكر فجذبه هوروس من ناصيته فصاح لشدة الالم وقال : اذا طمت
لنفسك النجاة وتركتنى وحيداً هنا فلا خلاص لى من بعاكر . ففعه

هوروس الى باطن المغارة واغلق عليه الباب وقال : انتظر في هذا المكان
فليس لمثلك أمان .

سار بنطاؤور وهوروس وبربروس حتى بلغوا الى الصخرة وانسابوا
في النفق وساروا فيه جواً تارة وصعوداً وهبوطاً تارة اخرى . وما زالوا
كذلك حتى نفذوا الى الجهة الاخرى . وكان البرد فارساً فأثر زمهريره
في وجوههم كما لو كانت تلهبها الشياطين . فقال هوروس : أرى السحب
تنقش انفشاعاً يدل على قرب انقضاء العاصفة فامتطى يا بنطاؤور صهوة
جوادك ولا تضع دقيقة من وقتك . فأمر الشاعر والد وردة بمرافقة
الجند فاعترض هذا بقوله : انهم ومطاييم قد انهكهم التعب فضلاً عن
ان السير في الليل الدامس يمرض السارى الى الاخطار والخاوف ولا
يقطع به الا شوطاً قصيراً من البيداء ، والصواب عندي أن ندع الجياد
تأخذ نصيبها من الراحة وتستجمع من قوتها ما تستعين به على استئناف
السير والاعذاذ فيه . ولا يخفى ان القمر سيطلع علينا بعد ساعة ويملاً
الآفاق نورا . فاذا استرشدنا به في سيرنا أمنا العثار وتجنبنا الاخطار
وأطلقنا الاعنة للجياد . قال هوروس : الصواب ما رأيت أيها الجندي
ثم أخذ بيده ذاهباً الى مغارة اخرى احتوت كثيراً من الشعير والبلح
وقرب النبيذ العتيق ، فبعد أن أخذ ببربروس من ذلك ما طاب له ولجنده
أشعلوا ايام النار ثم تولوا العناية بالخليل فبتسخين الماء بينا كان هوروس
وبنطاؤور يسيران سهلاً ، وقد بدت عليهما علامات الجرع . وكان
بنطاؤور يسأل هوروس : أكنت موثوق الاكتاف قبل وصولنا بزمن

طويل؟ أجب : فعل بي بما كر أخى ما رأيت منذ أمس . ولقد نجما
كان لا بد أن يحل به من النكال لولا تعجيله بالانصراف ولعله يقصد
الى الخيتاس لينضم اليهم قبل وصولنا الى معسكر الملك فنخسر الفرصة
ونضيع النهضة . قال بنطاور : يؤخذ من قولك أن بما كر يدبر المكائد
للملك . قال هوروس : نعم . . . فقد دبر له حيلة نخجل الوقح بشناعتهما
وتعافها النفس لبشاعتها . فدنا بنطاور من هوروس وكان اعتمد رأسه
بكفيه وسأله : ثق بصدقتي واعتمد على أمانتي وقل لي كيف أصبح
شقيقك عدواً لك . أجب : بما كر هو أخى الاكبر ، فبعد أن
تخرجت من بيت سبتي بزمن توفي والدي وكان آخر كلامه لي وصيته
إياي بالامتثال لأمره واعتباري إياه رئيساً للأسرة من بعده ، غير أني
أنست من هذا الاخ البكر بل الاب الجديد ميلا الى القسوة
واستبداداً في الرأي وشدة في المعاملة ، فغالبت ضميري في احتمال تلك
الرزائل منه وأطمت أوامره احتراماً لارادة أبي واتماماً لمقاصده
الشريفة ، ولبتت هكذا حولين كاملين عدت من بعدهما الى طيبة وفيها
تزوجت ورزقت أطفالاً لا يزالون في حضانة أمهم ، عند والدي . وقد
مررت الى الآن ستة عشر هلالاً وأنا ببلاد الشام أجوب الصحراء
وأغرى مع بما كر القفار . وكان ما زال على سابق عهده من جفاء الطبع
وغلظة الكبد وحب الرياسة ، فقابلته بشهامة الرجال وهمة الابطال لاني
أصبحت بعد الزواج غيرى قبله ، اذ تعلمت به كيف أصون كرامتي
واحتفظ بكرمي واعمل لتميز جانبي . واتفق في خلال ذلك أن سافر

أخى الى مصر ثم عاد منها منذ ثمانية أسابيع ، ضاربا بأوفى سهم في
سوء الخلق وخشونة الطبع . وقد قدم للعتبات الملكية جملة تقارير
وقدمت أنا غيرها فحازت تقاريرى من لدنه الرضى والاستحسان .
فنفرت في قلبه قروح الحسد فعاد الى مناقشتى ومخاصمتى ومعاملتى
بصنوف التعذيب والاذى ، فتدريعت بالصبر . . آه ولكنى لا أود أن
أبوح بما صبه علي من ألوان العذاب ، فانه ليس مما يحيط بوصفه اللسان .
ومع أنه وهو في مصر قد وقعت له حوادث خطيرة الشأن فإنه لا يبوح
لأحد ما بسرها جرياً على عادته في كتمان أحواله ، سارة كانت أم
مكدره . ومع هذا فقد استنتجت من كلمات فاه بها لأحد الاجانب
انه حاقد على مينا وناقم على الملك فأنبهته الى مواقع الزلل ومواطن الخطر
فيا بروم أن يسلكه من هذا الطريق ، ثم لم أكرر عليه التنبيه لما ألفتة
من غضبه وسرعة انتقامه . وإذا كانت الهمم في المعسكر منصرفه منذ
أيام الى اعداد المعدات لواقعة يكون بها فصل الخطاب بين المصريين
والخيتاس ، فقد كلفنى الملك بمهمة خطيرة وهي تحرير تقرير ببيان الحالة
في مواقع العدو فبادرت بالاستطلاع وبثت الميون والارصاد حتى
إذا توافرت عندى الاخبار حررت بها في صبيحة أمس التقرير المطلوب .
وما كدت اشرف على ختامه حتى أقبل بما كره نحوى وطلب منى أن
أسلمه إياه قائلاً : انه هو الذى أخذ على عهده أن يقدمه الى الملك
فرفضت معتذراً بأن الملك هو الذى تفضل فعهد الى أداء هذا العمل
وانه لا يليق أن يكون تقديمه على يد غير يدي ، فاحتدم غيظاً

وأهمني بأني اغتنمت فرصة غيابه فعملت بحيلتي للتقرب من الملك حتى
فزت برضائه دونه ، ولهذا كلفني تحرير التقرير مع أنه كان ينبغي أن
يعهد إليه هذا العمل . ثم حتم عليّ بعد أن أقسم بإسعاد الدنيا والطاعة لامره
وعدم معارضتي له في فعله وخرج متخبطاً كالجنون . وبينما كان الخدم
يسرجون الخيل رأيت منهم عبداً أسود وضع على متن جواد بمض المتاع
وأشياء أخر منها ملفات من الورق فهرولت نحوه ظناً مني أنها التقرير
الذي حررته .. ولكن ماذا وجدت ؟ وجدت تقريراً ملففاً بقلم بما كر
قرأت فيه ان الوادي الاكبر المؤدى الى نهر العاصي (الأورنت) في الشمال
الشرقي من بلدة قادش لا أثر فيه للعدو وأنه ممد يسهل على المركبات
سلوكه ، مع اني في أثناء الاستطلاع رأيت ذلك الوادي غاصاً بالاعداء
ودونت هذا الخبر في تقريرى الذى اغتصبه أخى منى وقرأت أموراً
أخر اذا اعتقد الملك بصحتها وأخذ بها كأنها قضية مسلمة كانت له
كالشباك الممدود أو الفخ المنصوب . فلما أيقنت المكيدة بحثت في
كفانة بما كر فرأيت بها سهاماً كتب عليها « فليهلك ميناً » ثم رأيت
ملفاً صغيراً من ورق البردى ففتحته ، فجمد دمى في عروقى حين قرأت
في عنوانه ما يأتى « الى ملك الختياص . . الى تبتور رئيس ضباطه » .
وكان هذا الملف والملف الاول فى يدى حين أقبل بما كر ، فلم أتمالك
حينما ابصرت به أن قلت : ويلك من خائن أئيم !
فلم يعر لهذا القول أذناً بل ألقى حول عنقى حبلاً بطرفه آخية
وهو يتخذ لضبط الخيل الجامحة فى المرعى فضغطت الآخية على رقبتي

وكتمت انفاسي حتى كدت اخنتق ثم أرخى الجبل وجذبني اليه من ناصيتي وشرع يشدّ وثاقي بمساعدة عبده الاسود . وحلني هذا العبد الى داخل المغارة ووقف على حراستي ، بينما كان بما كر يرخي العنان لحياده قاصداً ممسكراً العدو . هذه خلاصة ما اتفق لي مع هذا الخائن ، ومنها ترى ان لي حقاً في طلب التعجيل بالسفر ، وها قد تلالأت الكواكب وبدأ القمر يعلو على الافق .

قال بنطاؤور بصوت جهوري : هلموا الى الرحيل واحضروا ثلاثة من كرام الخيل لهوروس وبربروس ولي ، ولا يرافقتنا احد منكم بل لا بد لكم من البقاء هنا حتى نعود . وكان القمر يتخلل السحب فاستوى الثلاثة على جيادهم وانطلقوا مسرعين فلما وصلوا بعد ساعة الى السهل عدت بهم الجياد قاصدة بحيرة قادش التي كانت تبرق في الافق كمرآة من الصلب صقيلة تنعكس على سطحها أشعة الشمس المشرقة ، ولم يمض زمن حتى بلغوا الى الضفة الغربية من تلك البحيرة ، وكانت أرضها جرداء لا نبت بها فلمحوا من بعيد غباراً متصاعداً كان ينجلي بين آن وآخر عن اشباح متلاحمة ورماح متشابكة وسيوف متشاجرة ، فأكب هوروس بنفسه على جيد جواده با كيا مصعداً الزفرات قائلاً : الواقعة ! الواقعة ! قال بنطاؤور : نحن لم نخسرها . ثم أطلق لجواده العنان وتبعه رفيقاه فسقط جواد رشقا والد وردة من تحتهم لكثرة الاعياء والاجهاد وتلاه جواد هوروس الذي قال : ربما جاءت السلامة من ناحية الجناح الايسر . . انني عالم باسرار المكان فلا بد من الوصول اليه ركضاً على الاقدام . اما

انت يا بنطاور فذهابك الى الملك ميسور اذا سرت على ضفة النهر قرب
الجسر للدعم بالاحجار ، لان مهاجمة الجناح الذي ستناطبه مفاجأة
الجيش لا تكون الا من الوادى المجاور للنهر على مسافة الف خطوة
من الشمال ، فانطلق اذن واجتهد أن تقابل رعمسيس لتطلعه على جلية
الامر . واذا سألك عن كلمة السر فقل (بنت انات) وهو اسم كريمته
العزيزة . . عجل بالذهاب واطلب لقاءه وإلا دمه الالوف من الاعداء
أما أنا فسأعمل للانضمام الى الجناح الايسر والحلمة على مؤخرة العدو .
فأطلق بنطاور العنان لجواده ولسكنه لم يلبث أن أجهده التعب وسقط
من تحته فعدا على قدميه عدواً سريعاً وجرى كهبوب الريح مكرراً لفظتي
(بنت انات) . وكان كلما طرق هذا الاسم مسمعه تجددت فيه قوة
تماونه على احتمال مشاق الركض وظل كذلك حتى التقى بأحد فرسان
العدو فجندله بطعنة رمح ، ثم استوى على ظهر جواده مكانه وارخى له
العنان مندفعاً الى ميدان القتال ، بهمة من يطمح الى الاقتران بقيادة كريئة
من الحسان .



الفصل الثالث عشر

— ليلة تقلد السلاح والاستعداد للكفاح —

كانت ليلة المعركة من الليالي المشهودة في معسكر الملك إذ كنت ترى الجنود في حركة دائمة، وهمتهم في اعداد ممدات القتال قائمة، وعيونهم للتبكير قبل بزوغ الشمس غير نائمة، عملاً بالارادة الملكية وتحيةً للمقاصد الوطنية. وكانت تبدو على وجه كل جندي أمارات الشوق الى النزال لاحراز فخر الانتصار والعودة من حومة الوغى مكلاً بالغار. وكان بما كر قدم لمولاه الملك تقريره عن مواقع العدو، فمقد المجلس الحربى للنظر فيها، فأقر على أن تكون خطة الهجوم كما يأتى: تزحف فرقة (رع) جنوباً حتى تبلغ الى ما يلى بحيرة (شباطوم) كي تفجأ جناح العدو وتنسك به. وتسير فرقة (سب) المؤلفة من جنود الوجه البحرى في القلب من ناحية (أنام). ويزحف الملك بمركباته وصفوة الابطال من جنده في الوادى الذى أشار بما كر اليه في تقريره حتى يصل الى نهر (أورنت) فيمبره خوضاً بجنوده ثم يبرحه ليستولى على قلعة قادش. أما فرقة آمون في الجناح الآخر فتسير مع الجنود الجبشان في طريق ذكر الموهار انه مسلوك وهو لم يكن كذلك في الحقيقة وتقرر أن تبقى فرقة (فتاح) على أهبة نجدة الجناح الايسر وامداده عند الحاجة.

لم تكتحل جفون الجند بنوم ، بل قضوا ليلهم في إعداد معدات الكفاح . وكانت ثلثة من الجنود المدججين بالسلاح يحرسون أبواب المعسكر وفي يد كل منهم درقة مستطيلة وسيف قصير عريض محدد الطرف ، وعلى مقربة منهم نيران مشتعلة ينبعث منها ضوء احمر اللون . وكان الجنود الآخرون مجتمعين داخل المعسكر على هيئة حلقات لتعاطي النبيذ أو انضاج اللحوم أو لعب الميسر على الفنائم المأمول أخذها وكثيراً ما أفضت هذه اللعبة المسماة (مورا) باللاعبين الى أخذهم بتلايب بعضهم البعض . وكان يشتغل الحدادون في جوارهم بوضع الحدوات في حوافر الخيل ، والسنانون بأرھاف الاسلحة لتكون بتارة لرقاب الاعداء ، وخدم الضباط بتهيئة المركبات وحمل اجزائها على الحمير لنقلها في مضائق الجبال ومنعرجات الصخور والاوعار . وكان الكهان شرقي المعسكر في أشاغيل شتى حول ظلة نصبوها هنالك ، إذ كان فريق منهم يترنمون بالاناشيد الدينية والفريق الآخر يقدمون القرابين ويباركون في الضباط وعليهم . وكان يصم الآذان في غضون ذلك صراخ اللاعبين وسباب السكارى وصهيل الخيل ونهيق الحمير ، ويحول دون الوقوف على معاني أغاني المنشدين ، غير أن هذه الحلبة كانت لا تلبث أن تتحول الى سكون عام فيحل محلها ، بين حين وآخر ، زئير الاسود المستأنسة التي ستعوف بمركمة الملك في معمان القتال حتى لا يحسر على الدنو منها الا من حقت عليهم كلمة الهلاك . وقد تعمد المكافون بخدمتها عدم تقديم الغذاء لها منذ اليوم الماضي ليستفزها

السنب الى الثورة والغضب ويزداد منها على الاعداء العطب .
وكانت صواوين الملك مضروبة وسط المعسكر ، تحيط بها خيام
الاحراس والضباط اصحاب المركبات . أما الجيوش التي حشدت من
غير المصريين فكانت مصطفة خطوطا متوازية يرأس رجالها جنود
من المصريين ، فكانت ترى هنا الجبشان بشعورهم المتجمدة وهناك
ابناء الرمال الذين تواردوا من الصحراء ، يلتقون الانظار بقوامهم
المعتدل ويميدون يمينه ويسرة راقصين كعادتهم عند انتشار الحرب
ويخطرون بسيوفهم ورماحهم ، وعلى مقربة منهم الجنود الصقليون صفر
الوجوه بخوذاتهم المعدنية وسيوفهم الكبيرة والليبيون بألوانهم الواضحة
وأذرعهم الموشومة ورؤوسهم المزينة بريش النعام، والعرب سمر الوجوه
بلحاهم الجميلة المحددة الاطراف وقد وقفوا الى جانب جيادهم يسانونها
بمس جيدها لهجين بالادعية للكواكب أن تدمهم بالانتصار وتتوجهم
بتاج العز والفخار ، الى غير هؤلاء وأولئك من القبائل التي لا حصر
لأساميها ، وقد تقلدوا جميعاً السيوف وملاؤا كناناتهم بالسهام ليرشقوا
بها الاعداء اللثام ويوردوهم موارد الختوف . ويرأسهم على اختلاف
أجناسهم وتباين لغاتهم وتنوع ملابسهم الملك رععمسيس ، فكانما هو
سائق جياد يسوسها بعنان واحد .

وكان بوسط الصواوين الملكية هيكل صغير غير سميك الجدران
رفعت فيه تماثيل آلهة طيبة وصور أجداد الملك . وكان دخان البخور
يصعد منه الى طبقات الجو فتبدده الرياح كما تبدد السحب الكشيفة

وتنشر رأحتها الساطعة في أركان الفضاء . وكان السكمان يقدمون فيه
القرابين لآمون رب الارباب و (نيشب) إلهة الجنوب التي بيدها
الفوز تؤتية من تشاء و (منث) إله الحرب .

وكان الى جانب الصيوان المعد لنوم فرعون المسكان الخاص
بمحارس الاسود ، وأقيمت تجاه صيوان عقد الجلسات اعلام كثيرة .
وكان السكون بهذه الناحية من المعسكر سائدا بخلافه في النواحي
الاخري منه حيث كانت جلبة الجند وغيرهم ، ولا سيما في الخيام المعدة
لادخار المأكولات والأنبذة وتحضير الأطعمة ، ترتفع الى عنان السماء .
وكان بين هذه الخيام خيمة منصوبة على مستطيل كبير من الارض مدت
فيه الموائد وعلقت بداخلها وخارجها مصابيح الزجاج الملون ووقف حولها
الجنود الصقليون والليبيون والمصريون وقد شهرروا السيوف ، يرون ما
يمر امامهم من الحوادث دون أن يبدوا اشارة أو ينبسوا بكلمة ويقفون
أنظارهم على الاواني الذهبية يتصعد منها بخار الطعام والقناني البلورية
تشبه العقيق لونا ولاألاء بما شملته من الشمول ويطوف بها حول
المائدة الملكية ولدان من ابناء الاشراف والأسر الكريمة في الهيئة
المصرية . وكان هذا الصيوان موضوعا بحيث يستطيع الخدم عند الانتقال
والارتحال أن يفكوا أجزاءه في وقت قصير ، ثم يركبونها كذلك .
وكانت جدرانها قطعا من قماش لين كثيف لا ينفذ منه الماء نسج بمدينة
منفيس وطلته بالالوان الجميلة والنقوش العجيبة في بلده طانيس أيدي
مهرة العمال الفينيقيين . وكان في أجزائه جزء نسجه همال (صانيس)

ورسموا فيه بأسلاك الفضة صورة نسر الانتصار الذي يمثل الالهة
ينشب مكررة مائة مرة . أما الاعمدة فكانت من خشب شجرة الارز
المصفح بالذهب الخالص والنضار المصفى تمسكها أطناب فتلت بخيوط
الحزير وأسلاك الفضة .

مدت بداخل هذا الصيوان أربع موائد جلس اليها مائة مدعو .
وقد خصص ثلاث منها بقواد الجيش ورؤساء الدين وأكابر السكهان
والمستشارين ، والرابعة للأمرء من الاسرة المالكة . الا أن رعمسيس
لم يكن يجلس بينهم اذ جلس الى مائدته الخاصة التي مدت في مكان
مرتفع يصعد اليه بدرج مفروشة بجلود الثمورة والفهود ليشرف منه
في اثناء الطعام على جميع الآكلين فتزداد هيئته وشوكته استقرراً
في نفوسهم .

وكان رعمسيس جميل الصورة متين الاركان مرتفع القامة معتدل
القوام مرسل اللحية الى الصدر مكال الهامة باكليل الوجهين القبلي
والبحري ، في عنقه عقد عريض سلكت فيه الاحجار الكريمة ، وعلى
كتفه وشاح ساتر لبعض جسمه ، أما الذراعان فكانت تكاد تخفيهما
دمالج الذهب النقي لكثرتها . وكانت أعضاؤه المتينة وعضلاته البارزة
وبشرته الصقيلة اللامعة النحاسية اللون تم على حقيقة نفسه وأنه خلق
للنهي والامر وللحرب والفوز . وكان في مجلسه الذي وصفناه يرمق
ابناءه بعين الاعتباط والفخر وبحوطهم بمظاهر العطف والرفق ؟ الا انه
كان مع ذلك اشبه بالليث ، مهما يخلد الى السكون ويلتزم الراحة تصحبه

القوة والشوكة والقدرة على قهر المصاعب . ولئن قطعت يده الخبز
في لين ورفق فأنها سرعان ما يشتد وقمها ويقسو ضربها إذا أمسكت
بمقبض السيف وأطارت به المئات من هامات الاعداء .

كانت أحوال هذا الرجل العظيم وتصرفاته فعلا وقولا تشف عن
أخلاق فاضلة وصفات تنطق ببعيرته وتسمو به على النظراء . ومع ما
خصه الله من هذه الفضائل التي قلما اجتمعت في احد إلا أن كان نادرة
زمانه ونسيج وحده ، فان ناظره أو محدثه كان لا يشيم منه الا الدعاء
والدمائة والرفق في سميت وهمة وعزة ، ولا يلبث أن يأنس من بسامة ثغره
ما يميل بالطمأنينة قلبه . وإذا كان العدو ترهبه صلصلة حلقة التي تشبه
الرعد القاصف في حومة الوغى ، فإن محدثه لا يسمعه الا أن يعجب
بمذوبة لفظه وسلاسة خلقه إذا خاطبه ملتصقا اقتناعه بصحة ما يريد
إقامة الدليل عليه . وكل هذا عائد الى المبادئ الصحيحة التي شب
عليها مذ نعومة الاظفار فجعلته ملكا يخشى بأسه في سويغات الأمر
والنهي وحليما يرجي خيره في أوقات الراحة من عفاء الحكم .

وكان يقف من خلفه ساعتئذ شاب شديد العضلات في ضمور ،
معتدل القوام في اطمئنان حسن الشارة من غير تعمل ، يقدم الى فرعون
كأس شراب بعد أن يشرب هو منها قليلا فكان كلما أفرغها رعمسيس
في جوفه ملاً ثانياً وقدمها اليه بعد أن يكرر ذلك الفعل . هذا الشاب
هو مينا زوج نيفرت وأقرب المقربين الى الملك . وكان الناظر اليه
يستشف من ملامحه عزة النفس وكرم المحمّد . وهو وان لم يكن يعتمد

على آرائهم في المجالس العالية أو يركن اليهم فيما يستدعي شدة العارضة
وثقافة الفكر وبعد النظر في المصائر، إلا أنه كان على إرث كبير من
الرفقة وصفاء الطبع وصدق الولاء في المخالطة. أما (شاموس) بكر
ابناء رعمسيس، وهو الذي رقي في الكهنوت الى مرتبة كاهن أعظم
لمدينة منفيس، فكان أقرب موضعاً في المأدبة الى أبيه ويتلوه أخوه
(منفتاح) ثم صاحبنا (راميرى) ذو الشعر المرسل الذي كان العدو
أسره فأنقذه من الاسر بعض الجند الذين يدينون بعقيدة الولاء للسدة
الملكية. وكان رعمسيس يحادث ابنه راميرى في موضوع المؤامرة
التي كان نقل اليه خبرها وقال: ان ما نقلته الي من اخبار مصر لموجب
لشديد القلق وداع الى الخوف من سوء العاقبة. ولست أشك هنيهة
في صحة التهمة التي وجهتها الى المتآمرين، غير اني ما زلت أجنح الى
الاعتقاد بان افراطك في محبتي وغلوك في الولاء لي قد حدا بك عن
نهج الصواب وصرفاك عن مشاهدة الحقيقة المحسوسة. ومن ثم
عراك الخوف من سوء مغيبة ما وقع في وهمك. وإذا انضاف مارويته
لي من ذلك الى الرسالة التي وردت من بنت أنات والتقارير الذي حرره
مباشر خيل مينا والاختطارات السرية التي تواردت علي تباعاً من مصر،
فان قلبي مع خطورة ذلك كله لن يرتاع بسوء مغيبته، لانه وان يكن آني
يتمنى من صميم الفؤاد التربع في هذا الدست لايهام السذج بعزته وعلو
مكانته ولسكني أعتقد أنه يقنع بأي نصيب أمنعه إياه عند عودتي، بل
يرضى بلاشيء. فلتطمئن إذن خواطركم، فالرجل ليس من ذوى الصبر

والجلد في جسام الامور وخطير الاعمال . وقد حجب مجزه هذا الي
اعتقادي غباوته وضيق عقله وقصر نظره وأنه لن ينفذ ما يتكره
أو يتكره له غيره . فقال شاموس وقد أخنى رأسه أمام والده احتراماً
له : ومع هذا فقد استطاع أميني أن يذكى في قلبه نار المظالم فأصبح
مما يصح الجهر به ان الكاهن الاعظم هو رأس الفتنة وآنى ساعدها ،
وهو رجل عرف بالذكاء وقوة الارادة ، اذا قال فعمل وأجاد الفعل
وأحسن التدبير بحيث يخضع لامره نصف الكهنة في الديار المصرية .
قال فرعون : انى عالم بذلك وعالم ايضاً ان أكبر الامة وسراتها
ما زالوا ناقمين عليّ لأنى سقت عبيدهم وفلاحهم الى ميدان القتال ،
ومع هذا فلم يأت هؤلاء العميد بفائدة لانهم جنباء تقشع ابدانهم متى
احتمت المعركة . وقد عولت على تخصيصهم منذ الغد بحراسة المعسكر
ولعلمهم يفلحون في أداء هذه المهمة السهلة . واذا نحن حملنا على قادش
ودخلناها عنوة فلسوف نغم منها التحف الكثيرة والخيرات الوفيرة التي
سيؤول أوفى نصيب منها الى هياكل وادى النيل . فعليك يا شاموس
أن تبلغ الى زملائك كمان هيكل منفيس ان والدك سيضاعف لهم
ما كان أخذه منهم . قال شاموس : ان لتدمر أميني وتحيزه لأنى
وممالاته اياه في تدبير المسكائد ضد الملك أسباباً آخر أولى بالالتفات ،
ويكفى مولاي الوالد هذا الالماع فان فكره . . قاطعه رعمسيس : ان
سراة الامة وكبراءها اعتادوا ارشاد الملوك والاخذ بزمامهم في القيام
بشؤون الرعية ولكنى أضرب بنصائحهم ومشوراتهم عرض الحائط

لأنى النائب وحدى فى ادارة تلك الشؤون عن ملك الآلهة ورب
الارباب . . نعم لست أزعم أنى اله وإن يكن يقام لى من المراسم ما يشبه
أن يكون مراسم الآلهة ولكنى أدع للكهان القيام بما هو اختصاصهم
لالمألوف ، وهو الوساطة بين الآلهة وبينى وأمتى ، فيما يرتبط بالامور
الدينية . أما الامور الدنيوية فما زلت قابضاً بيدي على زمامها ، إذ لى
وحدى الحق الصريح فى القيام بها . ولترك البحث فى هذا الموضوع
لأن من الخصال التى فطرت عليها اجتناب التظنى فى الاصدقاء والثقة
بالتبر ولو أدى ذلك الى ما لا تحمد عقباه .

قال هذا وأشار الى مينا فأقبل عليه بالكأس الذهبية فتجرع ما
فيها من الشراب عباً ، ثم حدق فى الحاضرين بعين الليث وقال بصوت
جهوري متهدج : إذا كانت صفوة القوم الذين وضعت فى أيديهم زمام
مملكى يسلكوا بها سبيل الرشاد فى غيابى كأمنى وأنا لى يريدون
إيقاعى فى شرك الحيل السافلة والتدابير السخيفة ، فسيكون عهدى
بالعودة الى مصر وشيكا . ووقتئذ لا يكبر على وطء تلك الافاعى بقدمى
وهى تدب فى رمال استنباط الحيل والتدابير . وكان لصوت رعمسيس
وهو يفوه بهذه الكلمات دوى تردده أركان المكان حتى جمد السامعون
فى أماكنهم لا ينبسون بكلمة ولا تبدو منهم حركة . ولكنه بعد إذ
سكت هنيهة رفع رأسه وقال بصوت تحتلجه نبرات السرور والعطف :
اصدقائى وخلصائى ! لتطمئن افئدتكم وليهدأ جأشكم قبل أن يشب
ضرام القتال . فغير عازب عليكم اننا قمنا بفعال توجب المجد والفخر وأن

شعوب الارض طرآ ، حتى القاصية منها ، قد أحست شدة بطشنا وتفوذ سلطاننا وأتأشدنا على ضفاف الانهر آثاراً ناطقة ببيان ما فتحناه من الامصار ، ونقشنا في الصخور الصلدة ما يخلد ذكرى شهامتنا في صدور الذراري والاعقاب . ما ذلك الا لأن ملككم وصاحب السيادة عليكم وأعظم الملوك شوكة ، ما عظمة ملكه وبسطة نفوذه الا من فضل الآلهة وفضلكم أيها الاخوان الاعزاء . ولا مشاحة في أن واقعة الند ستضيف الى فخاركم فخراً جديداً والى مجدكم مجداً مستأنفاً ، فادعوا الى الآلهة أن توفقكم فيها للفوز وأن تمنحكم الغلبة على العدو الى أن تضع الحرب أوزارها ويدنو موعد الأوبة الى الوطن العزيز . . ارفعوا جميعاً كؤوسكم واشربوا ممي في حب الانتصار وسر العودة الى الديار .

فصاح الجميع بصوت واحد : لك الاقبال والنصر لك العزة والفخر لك الصحة والعافية لك الرفعة والمجد ا فنزل رمسيس من علوة عرشه ثم سار بين ضيوفه قائلاً : عليكم بالراحة حتى يخففى كوكب ايزيس ، فاذا ظفرتم منها بما يجدد فيكم النشاط ويستفز الهمم فاتبعوني الى هيكل آمون ومنه الى ميدان القتال . فما أتم رمسيس هذه الحكم حتى انطلقت الالسنه بالدعاء للملك بالفوز والنصر وعلو القدر وبقاء الذكر . وكان في خلال ذلك يخاطب ولديه منفتح وراميرى ببارات التشجيع ثم أمرهما باتباعه فبرح الثلاثة صيوان المأدبة يتقدمهم الحرس يحملون بأيديهم قضباناً نيطت بأعلاها ريش النعام وزهور الزنبق المموهة بالورياب واقنقى مينا أثرهم وظلوا سائرين حتى وصلوا الى الصيوان

الملكى المدة للنوم، فأمر رعمسيس قبل الدخول فيه باحضار اللحوم
النيئة، فلما أحضرت قدمها بيده الى أسوده الذين كانوا يطوفون به
ويتملقونه ويستجدونه نظرة عطف. ثم دخل اسطبل الافراس الكريمة
فتفقدتها واختار منها اثنتين لجرّ مركبته فى الغداة الى ميدان القتال،
واسمهما (نوره) و (نصرة طيبة). ثم عاد الى صيوان النوم فأشار على
ندمائه وصحبه بالانصراف وأمر مينا بتجريده من السلاح والعقود
والدمالج، فلما انتهت هذه المهمة دعا بولديه وكانا يباب الصيوان
مضطربى الخاطر شديدي القلق، فقال بصوت مرتفع: أتعلمان لم
امرتكما باقتفاء أثرى؟ فلزما الصمت فكرر السؤال، فأجاب
راميرى: لعل مولانا الوالد استشعر ما بينى وشقيقى من الشقاق. قال
الملك: نعم هذا ما استشعرتة وبعينى شاهدته. وانى لراغب فى ان يسود
الوثام بين ابنائى جميعاً وكفاكم فى الغداة ما ستمتلىء به صدوركم من
المقت والبغض للاعداء، ثم اعلموا ان الاصدقاء الصادقين أصبحوا ولا
وجود لهم فى هذه الايام، مع انهم أول من ينبغى ان يلاقوا النكال فى
حومة القتال، فاذا كان من حظ أحدنا أن يصرعه الاعداء فأولى به أن
يذهب فى خير وسلام وأن يححو من قلبه أثر الضغينة والبغضاء. . قل
لى يا راميرى ما سبب النزاع بينك وأخيك؟ أجاب الامير: أبت ا
لست أكن له حقدا ولا أريد به سوءا. وخلاصة الامر أنك جزيتنى
على ما أظهرته من الشهامة فى منازلة الخيتاس بسيفى هذا الذى تراه
معلقاً بنجاد أخى منفتح. والمألوف أننا ننام معا فى صيوان واحد، فلما

كانت صبيحة أمس جردت سيفي من غمده لا غتبط بحسن صنعه ومضاه
حده فتولاني الدهش اذ رأيت أنه ليس السيف الذي وهبتي إياه ،
وأيقنت ان منفتاح أخذه وبدل منه بغيره . قال منفتاح : ما فعلت هذا
الامن باب المازحة والتطايب ، ولكني علمت فيما بعد أنه يكره المزح
وقد قرصني بواحدة من قوارص كلماته حيث قال انه لمتنازل عن سيفه
لى كي أتجلى بمكافأة لم أنلها بفضلتي وأن في وسعه القيام من جليل الفعالم
بما يستحق عليه المكافأة بسيف آخر . قال الملك : كفى . كفى ! لقد
وقفت على سر الخلاف وسبب قلة الائتلاف . وحكمت عليكما بأنكما
وقعنا معاً في الغلط وركبنا من الشطط . واعلم يا ولدي منفتاح أنه
خليق بمثلك اجتناب الغش ولو قصدت به الى المزح ، فقد حدث يوماً
اني كبوت ككبوتك بارتكاب ما يشبه هفوتك . . سألتني والدتي
المقدسة (تائي) قبل شخوصي الى بلاد (التنوس) أن اجلب لها في
عودتي منها قطعة من حجر سواحل (بيلوس) التي دفعت لجج البحر
اليها جثة أوزريس للتبرك به ، فاتفق لسوء حظي ونكد طالعي ان
نسيت قضاء ما سألت ولم أذكره الا عقيب عودتي الى طيبة وكنت
وقفت في مقبل العمر وربيح الشباب ، فدفع بي النزق الى التقاط حجر
من احجار الطريق قدمته اليها مدعياً انه ذلك الحجر المقدس والتحفة
النادرة التي كلفتنى احضارها ، فسرت سرورا وتهلل وجهها بشراً وحبوراً
وأخذت تعرض الحجر على اخوتها واخواتها اعجاباً وافتخاراً . ثم جعلته
في حرز حريز ووضعتني الى جانب تماثيل الاجداد ، فلما رأيت منها شدة

الاهتمام بمرض ذنبي لا يستحق العناية وعلمت اني غششتها وضللتها بما
ادعيت كذباً وبهتاناً دبت الى قلبي عقارب الندم ووخزني واخز السريرة
فلم أذق للراحة طعاماً ، ليلاً ولا نهاراً ، وأبت نفسي أن يكون ذلك الحجر
الوضيع محترم المقام عليّ الشان كأنه علق من الاعلاق النفيسة أو تحفة
من التحف النادرة فلم يسعني الا أن التقي به في النيل . فلما شعر القوم
في القصر بضياعه قاموا على قدم وساق وفتحوا للتحقيق أبواباً وألقيت
الشبهات على العاشية والحشم والندامي ، فغفت أن يضحي أحدم
ويذهب فداءً للآخرين ، وان يؤخذ البريء بذنب الجاني فبادرت
بالاعتراف وقصصت حقيقة الامر من رأسه الى قدمه . وكنت أود
أن لو أقم تحت طائلة العقاب ، ولكنهم صرفوا النظر عن معاقبتي
وتركوني وشأني فازداد قلقي واضطرابي واشتدت على نفسي وخزات
السريرة وتبكيته الضمير ، ولم يذهب عني الباس الا بتوالي الايام
وتعاقب الاعوام . غير أن هذه الحادثة أفادتني فائدة ذات قيمة وهي
أطراح الكذب ولو في المزح ، فعليك بامفتاح بالسير على سنن أبيك
وسلوك منهاجه . أما أنت يا راميري فخذ سيفك ولا تنس ان الحياة
سيل ينحدر بالشقاء والآلام وان خير الناس من عود نفسه وهو
في شرخ الشباب التجاوز عن الهفوات والاعاد مكفهر الوجه كاسف
البال كبعاً كر رئيس الطلائع . فهيا يا ولدي تصالحاً واحوا الضغائن من
قلبيكما .

فدنا الاميران من بعضهما وألقي راميري بنفسه على أخيه بحركة

مصدرها الانبعاث النفسي ثم قبله . فوضع الملك يديه عليهما وقال :
هيا اذهبا للاستراحة كي تفوزا غداً بالحمد والثناء . فلما غادر الاميران
مجلس أبيهما التفت فرعون الى مينا وقال له : أود أن أحدثك قبل
انتشاب الحرب في أمر ذي بال . لقد قيل ان العين مرآة القلب وهاء نذا
أرى في عينك ما يشير الى هموم تساور فؤادك منذ حضر من طيبة
حارس خيولك ، فإذا يا ترى قد دهاك وما الاخبار التي بها وافاك ؟
أجاب مينا بصوت يرم على ما في فؤاده من الكدر والحزن : ان سماتي
راتوني أساءت تدير أموالى فقد رهنت اطياني وباعت ما كنت
أملكه من الساعة . قال الملك : ان لهذا الداء دواء فلا تحزن .. سأعقد
عليك من النعم والمطايا السنوية ما يتجاوز مأمولك ان أقمت لى الدليل
على أن نيفرت لم تتغير حتى الآن ثقها بك وانها ما برحت مقيمة على
حبك .. ألا يكون القلق الذى ساورك وبدت علامته على وجهك
تبيجة وهم وقع بشأنها فى قلبك ؟ ما عهدتك قط شديد الاهتمام بمالك
وأرضك .. فإذا كنت بقصرك الكلام عليهما تقصد الى ستر حقيقة
الواقع عنى فانى أحب منك أن تميظ الستار الذى مددته عليها وان لا
تسخر على شيتاً ، واعلم أنى منك بمثابة الوالد من ابنه فكاشفنى بكل ما
فى صدرك ولن ينقلب قائد فرسانى المحبوب الى أهله كاسف البال حزين
القلب .. فقبل مينا صولجان الملك وقال : تركت نيفرت والذتها
لترافق كريمتكم بنت أنات فى حجها الى جبل سيناء وبلدة ماجدو .
قال رعمسيس : فى النقلة والارتحال تحسين للحال ورجاء للاستقبال ،

فدع نيفرت تعيش في كنف بنت أقات فانه لا أحد يعنى بحمايتها
ويحرص عليها مثلها . قال مينا : لا ريب عندي في هذا وإنما وقمت
قبل رحيلي من طيبة حوادث ليست مما يرتاح اليه الخاطر، فانه لما نكروم
مولاي فخطب لي نيفرت من امها كانت مخطوبة لبعاءكر ابن خالتها،
وقد اغتم هذا فرصة غيابي عنها بعد زواجي بها إذ قضت الظروف بذلك
الرحيل لقتال الاعداء فأكثر التردد على بيتي والاختلاط بحماتي والتودد
اليها حتى لقد نقل اليّ أنه أنعم عليها بمال طائل لتسد به ديون ابنها
وقد تذرع بصنوف الحيل والتدابير للتدخل في شؤون أسرني حتى بلغ
من سماجته في ذلك أن أهدي الي حليلتي باقة من الزهور وقد رآه
حارس جيادي رأي العين . فتبسم الملك ثم أهوى بيده على كتفه وقال :
يؤخذ من قولك انك تطلب من زوجتك الثقة العمياء بك وان تكون
المثل الاعلى عفة ونزاهة مع انك لم تأنف من ايواء امرأة اجنبية في
صيو انك . وإذا كان هذا عجباً فأبتم منه على العجب أن تفتح للتظني
ياباً الى فؤادك لمجرد أن ابن خالة زوجك أهدي اليها باقة من غض
الزهر .. ليس من العدل ولا الحق أن يكيل المرء بمكيالين أو يزن
بميزانين .. والمرجح في نظري أن كل ما في الامر أن ثارت بنفسك
عواصف النيرة من ذلك الوحش الذي تلاقى فيه صنوف المثالب بل
الحجر الثقيل الذي قذفت به الشياطين في بيت المرحوم الموهار السابق .
قال مينا : الحقيقة يا مولاي ان ثقتي في نيفرت لا تزال كما كانت ثقة
الرجل النزيه بزوجه الطاهرة النقية الجيب . الا أن نفسي لا تطيق

أن يكون بما كراً، ذلك الشخص الدميم الخلقه الشبيه بالذبابة السامة،
هو الذي يجراً على استجلاء حياها وتقديم الزهور في بيتي اليها . قال
الملك : جدير بمن يطمح الى احراز ثقة الناس أن يثق بهم فعلاً . ألا
تراني مضطراً في أحوال كثيرة الى قبول القصائد الشعرية في مدح
فعالي والتنويه بذكري من قوم هم في اخلاقهم وطبائعهم مثال الدناءة
والسفال؟ فدع عنك الهمّ والبال واستعد غداً للنزال . . استعد للانتصار
والعود الى وطنك مكلاً بالنار، ولا يذهبن عليك أن بما كر سيعفو
عنك بقدر ما فرط منك . . انصرف الآن وتفقد الخيل واركب غداً
الركبة بما عهد فيك من الشهامة في مواطن الطمن والنزال .

ذهب ميناً ليتفقد الخيل فالتقى براميرى الذى ابتدره بقوله :
لعلك تعلم يا ميناً انى ما زلت أنزهك من المعائب وأبرئك من الشوائب
وأرفع قدرك الى المنازل العالية واقتدى بك فى المحامد . ولكن لا
أنكر عليك ما اعترانى من الشك فى نزاهة قصدك منذ علمت أنك
أتيت الى صيوانك بامرأة اجنبية وانت تعلم انك قرين أجمل نساء طيبة
وأكرمهن محتداً . . انى كأخ لنيفرت، عاريف بما ينطوى عليه فؤادها
وما تجنح اليه نفسها، أو كد لك أنها لن تعيش ساعة واحدة إذا ايقنت
انك فضحها بأيوائك امرأة اجنبية فى صيوانك . . هذا الفعل منك
عار كبير لا يلصقه بالمرأة المصرية الا عدم الوفاء لها بالامانة والمعفاف .
فارجو منك ألا تحقد عليّ فلا يعلم الا الآلهة ما يحى به الغد .
وكان ميناً يصغى الى حديث راميرى دون أن تبدو عليه علامات

الاكثرات . فلما اتم الامير كلامه قال : يعجبني منك أيها الامير
السكريم اقتداؤك بأبيك في الصراحة والصدق والاعراب عن كل ما
يتلجلج به خاطرك دون تصنع ولا مواربة ، كما يسرني أن تكون مثله
في الامساك عن الحكم على من هم قبل سماع دفاعه عن نفسه . . . لست
بمنكر عليك أن في صيواني امرأة اجنبية هي ابنة ملك الدناثم . ولكن
لعله وصل الى علمك اني منذ بضعة ايام لا أتردد على هذا الصيوان بل
أقيم على الدوام بباب صيوان والدك الملك . . . ادن مني قليلا لا روي
عليك القصة بحذافيرها حتى لا يداخلك الشك في نزاهة قصدي وحسن
نيتي وأوقفك على أسباب وجود تلك المرأة عندي . . . كان المعسكر
ضاربا تحت حصون قادش ، وكان رعمسيس ملازما الفرائش لجرح أصابه
فأصبحنا في بطالة يسأم منها النشيط ، وكنت لذلك أقضي جل وقتي في
الصيد والقنص على سواحل البحر . وحدث يوما ان اوغلت في تلك
الجهة فأذا بكتمبية من جيش الدناثم أحاطت بي احاطة السوار بالمعصم
وأخذتني الى معسكرها أسيرا بعد إذ أوثقت كتافي . وقد اعتبرني فواد
العدو من العيون المبتوثة عليهم فحكموا علي بالاعدام وشرعوا في تنفيذ
الحكم إذ أحاطوا بالحبل عنقي . وكان الملك لحسن طالع ووفور حظي
مقبلا في تلك الساعة فسألني عن حالي فأطاعته على الحقيقة فأطاق
سراحي وأحسن معاملتي واكرم مثواي ودعاني لتناول الطعام على
مائدته . وكان لحسن صنيعه من التأثير في نفسي ما حجب الي مقابلة هذا
الصنيع بمثله . وقد سنحت فرصة لذلك بعد زمن يسير إذ لم ينقض على

تلك الحادثة شهر حتى هجم جنودنا الليبيون على معسكر الملك وجاءوا بما لا يحصى عدده من السبايا والاسلاب والغنائم ، وكان من بين السبايا ابنة ملك الدنأم . ولذا قرر والدك الملك مكافأتي جزاء ما أظهرته من ضروب البسالة والاقدام في القتال ، فقد أمر بأن اكون أول من يختار حصته منها فاخترت ابنة ذلك الملك الذي صان من الموت حياتي وذهبت بها الى صيواني ومعها نساء حاشيتها وتركتهن معهن فيها هادئة البال مطمئنة النفس محترمة الجانب ، حتى تسنح الفرصة لردها الى أبيها تحف بها الحشمة ويحدوها العفاف والصون ، وأكون بهذا قد قابلت الصنيع الحسن بمثله .

وما أن وقف راميرى على سر الخبر حتى مد يده الى ميناء مصافحاً وقال له : التمس منك الصنح عن سوء ظني بك فقد وقفت الآن على سر سؤال والدى الملك منى عما اذا كانت نيفرت ما برحت مقيمة على عهد الوفاء لك . قال ميناء : وبم أجبت ؟ قال : أجبت بأنها لا تكف عن التفكير فيك وانها لم يداخلها قط شك في أمانتك ووفائك وقد بدا لي أن هذه الاجابة قد حلت منه محل الرضاء فالتفت الى أخى شامرس مبتسماً وقال : «لقد كسب ميناء الرهان» . قال ميناء : نعم فان الملك حفظه الله وعدني بمكافأة حسنة ونحفة سنوية اذا كانت نيفرت بالرغم من اقامة امرأة اجنبية بصيواني تبقى على ولائى وتستحق شكرى وثنائى . ويظهر لى أنه كان يرى الامر مستحيلاً ، ولكن الحمد للآلهة ان كسبت الرهان إذ ثبت اخلاص نيفرت لى بالدليل والبرهان .

الفصل الرابع عشر

— ذل الانكسار وعز الانتصار —

ما خلعت الشمس جلاباب الافق وبرزت من خدرها حتى كان الكهان وقوفاً في طليعة كل فيلق من فيالق المشاة والفرسان، يرفعون الاصوات بالادعية والصلوات، ويقدمون القرابين التماساً للنصر المبين ويمرضون صور الآلهة على الانظار في زوارق من المسجد والنضار، وانبث المبشرون في كل مكان يبشرون بما استطلعه رئيس الكهان، من الطوالع المؤذنة بالسعادة والهناء والفوز على الاعداء. وكان لكل فيلق علم خاص قد رسمت عليه صورة الحيوان المقدس أو الرموز به الى الاقليم الذي ينتمى هذا الفيلق اليه. وكان كل جندي قد حمل معه لوقاية نفسه من فتكات الاعداء وحفظ كيانه من شرورهم، الباتم والاحجبة والاحكام الدينية المسطرة على ورق البردى والخواتم ذات الفصوص المصنوعة على مثال الجمل. وكان سوادهم الاعظم يخفون في ثنيات ملابسهم أو قطر ميزات مؤونتهم خصلاً من شعر الحيوانات المقدسة أو أفاعى أو جملانا على قيد الحياة (١) تبركاً بها وتفاؤلاً بالخير ودفعا للشرور والنكبات.

(١) كان لكل اقليم حيوان مقدس بيده امله وكان بعض هذه الحيوانات معبوداً من المصريين كجيران فتاح وابن اوى وغيرهما

أما الملك فكان في محفة يحملها أربعة وعشرون شاباً من اشراف مصر ونبلائهم يمرض الجند ويتفقد أحوالهم قبل نزولهم الى حومة الوغى . وكانوا يقدمون اليهم آلهة طيبة الثلاثة ومنث اله الحرب ونيشب اله الانتصار . وما ظهر الملك بين صفوف الجند حتى جنوا جميعاً ولم يقفوا الا بعد أن أحرق البخور بيده وتناول من ابنه شاموس الكاهن الاعظم رمز الحياة والقوة . وما انتهت هذه الرسوم الدينية حتى أخذ الكهان ينشدون بصوت واحد أناشيد التمجيد والاجلال للاله (رع) وظله وخليفته في الارض الملك رعسيس .

وما تحرك الجيش للزحف حتى سطعت في السماء كواكب لامعة كانت قبل السير بدقائق معدودة تحجبها عن الانظار سحب كثيفة قائمة ، فتحرك الكهان من فورهم للقاء الملك وفسروا له هذا الحادث العلوي بانكشاف الغمة وأن جيوشه ستبدد شمل العدو كما بدد الاله رع السحب المتلبدة ومزقها تمزيقاً . وكان المشاة يحثون السيردون جلبة ولا غمغمة حتى يستنيم الاعداء الى الطمأنينة وينصرفوا عن الحذر والحيلة فيكون مأخذهم سهلاً والانسياب عليهم فجأة . ووقف الضباط في مواضعهم المعينة على مركبات القتال وبأيديهم أعنة الجياد . وكان رعسيس في مقدمتهم يحمل في مركبته كنانتين احدهما للقسي والاخرى للسهام . وكانت الجياد التي تجرها مكالة الرؤوس بريش النعام تلامس متونها أعنة مرصعة بالاحجار الكريمة . وكان الرهج يسطع من سنانها اذا كانت تضرب الارض مللاً من الوقوف ورغبة في ايراد العدو موارد

الختوف .

وكان رعمسيس متوجاً بتاج الوجهين البحري والقبلي ومحضن الجسم بقميص الزرد تحمله كستفاه برافعات من الحرير الاحمر . وكان مينا واقفاً من ورائه ممسكاً باحدى يديه أعنة الخيل وبالاخرى درقة يقي بها مولاه سهام الاعداء . فلما جاوز باب المعسكر عند بزوغ الشمس في تلك الهيئة الهيثة والشارة العجيبة أقبل بما كر رئيس الطلائع فقبل الارض بين يديه وترامى على قدميه ، وقال جواباً على سؤال وجهه الملك اليه عن احوال أخيه وأبن هو انه قد أصابه مرض اضطره الى ملازمة الفراش في بعض النقط الامامية . ولم تكن الشمس قد تم وقتئذ شروقها لينبئ الملك أقدا كتسى وجهه بحمرة العار والجلل أم بصفرة الخوف والوجل ، فاذا به يراهما تتداولان وجهه هذا الخائن الاثيم الذي لم يعتد سبك الخيل ولا تدبير الخيانات والدسائس ، اذ كانت هذه أول مرة فرط فيها بواجب الامانة نحو وطنه ومليكه .

ثم سأله رعمسيس : وماذا العدو صانع الآن . أجب : يحشد كل قواه جنوبي المدينة وشرقيها . لذا أصبح القتال قاب قوسين أو ادنى ، فان رأى مولاي أن يفجأ قادش في الوقت الذي يزحف فيه الشطر الاكبر من الجيش لمناوشة الاسيويين من جهة الجنوب فان حصونه واستحكاماته لا بد ساقطة اليوم بين يديه الكريمتين . ثم ان طريق الجبل ، وهو الطريق الذي لا بد لجيوش مولاي من الزحف فيه للوصول الى القصد من طريق معبد ممهد لاوعورة فيه . فسأل الملك :

أنت مريض كأنخيك فأني اسمع في صوتك خلخلة واضطرابا . أجاب
الموهار : لم يمض وقت من حياتي كنت فيه أجود صحة مني الآن . قال
الملك : هلم اذن لترشدنا الى هذا الطريق .

والتفت رعمسيس بعد هذا الى مينا قائلا : ان الطريق ممهّد ممهّد
وغير وعز كما أخبرنا الموهار ، فلا عجب ان طابق الواقع هذه الاخبار .
اليس هو الوارث عن والده فضيلة الاحاطة بأسرار الطرقات . . ثم
جياده العاديات ضبحا المثيرات تقعا المباريات للريح سبقا . . ما كادت
تصل به الى جبهة الجيش ليرشده الى الطريق الممهّد والمسالك القويمة
حتى عادت به اليها . فالتفت مينا الى بماكر ولم يتمالك ان صاح : انه
لدنيء الطبع سافل النفس منحط الهمة فان الجياد التي اعجب بهامولاي
انما هي جيادي التي ابلغت ان راتوني اهدتها اليه قبل رحيلي من طيبة .
وما كنت لاصدق هذا الخبر حين بلغني ومع اني ما اشتريتها الا لتجر
مركبة نيفرت لولا أن زال الشك الآن وارتفع اللبس . ولقد رأيت
هذا القر بعيني رأسي في مركبة تجرها تلك الجياد المشتراة بمالي . فلاطفه
الملك وسكن من غضبه وقال : ان زوجتك ما زالت لك فدع له الجياد .
لم تمض بعد هذا الحديث هنيهة حتى ترجرج الهواء بدوي بوق
لم يدر السامعون مصدر النافخ فيه ، غير ان شدة ارتفاع الصوت
كانت تدل على قرابه من مكان الجيش . فوقف رعمسيس في مكانه
وانتضى سيفه ووقفت الخيل آذانها فقال مينا : هذا بلا ريب صوت
بوق الخيتاس : وكانت مركبة ذات اربع عجلات حاملة أسود القتال

تتبع مركبة الملك ، فأمر رمسيس بأطلاق سراحها . وكان قد سمع
صيحات العدو ورأى جنود الطليعة ترتد على الاعقاب بغير نظام وقد
تخللها مركبات الخيتاس التي كانت تنحدر تباعا من رأس الوادي وتسمع
لها قرعة تصم الآذان ، فانطلقت الليوث مزجرة الى أن اتصلت
بمركبة الملك وأحاطت بها ، فرفع مينا السوط وأهوى به على متون
الجياد فكبت في بادىء الأمر ثم وثبت مندفعة الى الامام حتى بلغت
الى قلب الميدان . وكان الجنود المصريون قد دخلوا فعلا وأخذوا
ياتسون لأنفسهم مخرجاً للفرار من وجه العدو الذى كان نكل بهم
تنكيلا وأثخن فيهم إثمنا وببلا ، فلما رأى الملك الخطر محذاه ولم يكن
ليخطر له ببال . سأل : أين بما كرم ؟ فلم يجابه أحد لأنه كان اختفى عن
الانظار . وكانت الارض تنزل تحت أقدام الهاربين والمطاردين
والخيول تدوس الرم وعجلات المركبات تصم بصريرها الآذان والرعد
يلقى بهزيمة الوجل في القلوب ، فلم يمالك رمسيس أن صاح صيحة
الحرب المألوفة له في مواطن القتال اذا اشتد الحرج عليه وعلى جنده
فتغلب على صوت البوق ورددت صدها الجبال والودية . وقد أجاب
الضباط على هذه الصيحة بمثلها فوقف الفارون في أما كنهم مترددين
بين متابعة الركض طلباً للنجاة وبين الثبات في مواطن القتال . الا أن
الخوف أخذ من قلوبهم ما أضعف بأسهم وهدر كنفهم فضوا في
طريق الفرار لا يلوون على شيء . وماهى الا دقائق حتى طرق آذان
الملك صوت الابواق وصرخات الخيتاس ، وكان منبعث الصوت من

خلفه حيث يمتد أحد الاودية عمودياً على الطريق الذي سلكه الجيش
المصرى . ومر هذا الجيش دون أن يداخله شك في أمره ، اذ كانوا
يجهلون ما دبر لهم من الدسائس ونصب في طريقهم من الشباك . على
أن ذلك الوادى لم يكن سوى الذى انطلق بماكر فيه حينما توارى
عن الانظار لاخبار العدو بقرب زحف الجيش المصرى فيه وحضه
على مفاجأته بالهجوم من حيث لا يدري . وما كادت تصل صرخات
الختاس الى سمع رعمسيس على ما شرحناه آنفا حتى رأى المصريون
ألوف الفرسان من أعدائهم والمئات من مركباتهم طفت طينيان السيل
على المؤخرة والجنب وحالت دون الاتصال بينهما والكتيبة الملكية،
وتمكنوا بهذه الحركة من الاحداق به وأخذ المنافذ عليه حتى صار أشبه
ما يكون بالصخرة فى وسط البحر تساورها اللجات من جميع الجهات .
نظر رعمسيس على التفيئة فى أمر نفسه ومصير جيشه وكلاهما فى
اخرج المواقف وتأمل فى ذلك بعين الحكيم الذى لا تززع ركنه
الحوادث فادرك حقيقة الخطر الذى احتف به ، لا سيما وقد كان يرى
الاعداء يتدفقون من الخلف على جيشه ويسمع صلصلة سيوفهم
وشخشة دروعهم وضبح خيولهم وغمجمة الفريقين فى قتال عنيف
ونزال نخيف ، كما كان يرى من الامام خطباً جلالاً وطامة كبرى . كان
يرى فى مرامى نظراته قتلى تبقر بطونهم حوافر الخيل وجرحى يثنون
أبين الشكالى وفارين يلتمسون الآفاق هائمين على وجوههم خذر الموت
وخلف هؤلاء اعداء الءاء قد انشروحت صدورهم لبوارق الانتصار

والفوز .

الا أن الملك قوم قامته ورفع هامته اذ استفزته فداحة الخطب
فخارت حميته فصاح صيحة ثانية تغلب بدويها على زئير الآساد وجلبة
العساكر وصلصلة السيوف . وكان أنين الجرحى وصوت القواد ولعب
المحاربين بالنسبة لهذه الصيحة كالصمت المطلق . ثم تناول قوسه
وأرسل منه سهماً أصاب به كبد اشجع قواد الخيتاس فأرداه . أما
الآساد فكانت تثب على جياذ العدو وتنشب في صدورهما الاظفار
فتمتوقه عن متابعة الزحف . وقد ذعرت جياذ الفرسان من مرأى تلك
الضواري فتراجعت الى الخلف براكيها وتلاحقت في الفرار من ميدان
القتال حتى حالت بين جيوش الخيتاس والمصريين . وكان رعمسيس
لا يفتر لحظة عن رشق العدو بسهامه الصائبة حتى كادت تنفذ من
كنائمه . وكان ميماً يقيه بدرقته سهام العدو فلم يصبه سهم واحد منها
بل كانت تنكسر نصالها على النصال ، وألقى أعنة جياذ المركبة الملوكة
على غاربها فانطلقت حتى توسطت صفوف الاسيويين ، فجرد رعمسيس
سيفه وطعن به الجمل الفقير منهم فجندهم جميعاً . وكانت ليوثة السكواسر
في غضون ذلك تفتك بهم شرفك وتلقى في قلوبهم الفرع ، كلما
نشبت أظافرها وكشرت عن نابها . والخلاصة ان الجيشين التحمت
عساكرهما جسماً لجسم وطال بينهما النزال والجلاد واشتدت الجلبة
وعلت الضوضاء بما يهيم الآذان ويرهب النفوس ويذكر الراني بالبحر
الخضم وقد نارتأثره واضطربت عناصره ، وصعب مراسه وانحلت

أمراسه . أما مينا فقد أبدى من معجزات البسالة والتدبير ما يخلب العقول ويسترعى الأنظار ، فقد كان يخيل للناظر انه نفوس متعددة في ذات واحدة ، اذ كان يواجه الخطوب بثاقب الرأي فيتجنبها بتوجيهه المركبة ذات اليمين تارة وطوراً ذات اليسار وحيناً الى الوراء . وكان يرقب سهام في مسراها مختزقة الفضاء فيتصرف في أوضاع درفته بما يكفل وقاية الملك شر الاصابة بها . وكان يبدى في ذلك من آيات التبصر وحضور الذهن ما يندر أن يتوافر مثله في واحد من مشاهير الابطال . وكان تفاعم الخطب قد حرك في نفس رعمسيس سواكن الغضب فتطير الشرر من عينيه وأكثر من الصيحات المزعجة وأمن في الفتك والتشكيل وأبلى بلاء لم يسبق له مثيل .

وقد انفرزت ثلاثة من سهام العدو بدرقة مينا فقرأ عليها بالحروف المصرية كلمات معناها « الموت لمينا » ومر بجانب أذنه سهم رابع فنظر صوب المكان الذي جاء منه فأصابه بكتفه سهم خامس فصاح : خيانة سافلة ! خيانة سافلة ! انى لأشهد بما كرين الخيتاس بعينى . وقد سمع الخائن صيحة مينا فلم يركن الى الفرار ، بل دنا من المركبة الملكية وأرسل من قوسه سهماً سادساً وقال : دونك أيها الناصب السالب . . ها نحن أولاء في ميدان القتال ! ما زالت خطيبتى قرينتك ولكنها بعد هذا السهم ستصبح أرملاء ، فاستولى عليها وأحطى بها . وما مرق السهم من القوس حتى أصاب خوذة مينا فاضطرب جسمه وسقطت الدرقة من يده وكان قد رفعها الى رأسه

ليدفع بها الخطر عن نفسه وسمع بما كر في اثناء ذلك يغرب في الضحك
فما هي الالمة البرق حتى أحس سها سابعاً ينفذ من كتفه فأزعجه الالم
وصرفه عن القيام بمهمته نحو الملك إذ أرخى الأعنة للجياذ ووثب من
المركبة وثبة الليث ، ثم جرّد حسامه وحمل به على خصمه اللدود الذي
كان ينتظره ثبت الجنان هادىء الجأش ، وما أن دنا منه حتى حمل
عليه حملة منكرة . وراهما الملك يتناجزان ويتصاولان ، فلم يستطع
الفصل بينهما ، لانه ما شعرت الجياذ بارتحاء الاعنة على غاربها حتى
انطلقت كالريح مقتفية أثر الاسود .

وكان أحراس الملك هووا الى الارض صرعى ، بعضهم تلو بعض ،
فسرعان ما أحاط به العدو يريد به الأذى والشر . ولكنه أخذ
درقة مينا وانقض عليهم يطعنهم بسيفه ، فكان في كل طعنة حتف
واحد منهم . ورأى راميرى أن أباه أصبح في عزلة وأنه لم يمد ثمة
اتصال بينه وجيشه فاخترق الصفوف واقتمح الالوف حتى وصل اليه
ودنا منه . فقال رعمسيس : المجد والفخر لك يا ولدى وفلذة كبدى ا
أنت خير حفيد لسيتى الاول وأحق الناس بالانتماء اليه . قال راميرى :
انى طامح لا حراز سيف غير الذي اغتصبه أخى منى . ولقد حمل فى
هذه الاثناء على جندي ضيق عليه الخناق فاحاط العدو به ، وشهد
الملك جماعة من الدنائم يقبضون على أعنة جياذ الامير وآخرين انصبوا
عليه بسيوفهم ، كما شهد رفاق الامير يولون الادبار بمركباتهم إذ خافوا
الخطر على حياتهم .

وأصيب أسد بسهم فسقط يتلوى ، لشدة ما نابه من الألم ،
 ويزأر . وأدركت رعمسيس طعنة سيف شطرت درقته شطرين فاشتد
 عليه الكرب لما عاناه من توالى الطعن والضرب . ورأى كأن أجنحة
 الموت ترفرف على رأسه وأسننة الهلاك مشرعة الى صدره ، غير أنه
 بدلا من أن يواصل صيحات الحرب التي كانت ترتجف منها أفئدة
 الاعداء وتقوى بها عزائم المصريين بسط يديه بالدعاء الى آمون أن
 يعززه بنصره ويوافيه بالنجدة والعون ، فما أتم الدعاء حتى برز له من
 بين الجمع شاب مصري طويل القامة تبدو عليه ملامح الهمة والشهامة ،
 فأمسك بأعنة الخيل وحيا الملك بأحسن تمحية ، ثم وثب في المركبة
 فارتعدت فرائص رعمسيس دهشاً ومجيباً إذ خيل له أن هذا الحادث
 الغريب ما هو الا احدى المعجزات أو اجابة لتلك الدعوات . ولما هدأ
 روعه التفت الى الشاب ، وهو يدبر حركات المركبة بمحذق غريب
 وشجاعة لم يكن للابطال منها نصيب ، فلاحته له فيه ملامح الموهار
 السابق والدبعاكر خائن الوطن وسبب الرزايا والمحن ، فقال مناجياً
 نفسه ، لعل الاله آمون تقمص في شكله لينقذه من الوبال ويدفع عنه
 عار الانخدال . وزاد هذا الاعتقاد رسوخاً في نفسه انه سمعه يقول :
 الثبات يا مولاي الثبات ! فبعد هنيهة ترد لك الامدادات فتنبجو من
 المهلكات ، ثم تصل بنا في ميدان الفوز الى أبعد الغايات .

اطمأنت نفس الملك بهذه الكلمات فصاح صيحة القتال التي رددتها
 الآفاق والجبال وأطار رأس رجل من الخيتاس كان بدنوه منه كالباحث

عن حثفه بظلفه . وكان الشاب الذي أرسلته العناية الربانية لنجدهته يحمل
الدرقة يحميه بها من سهام الاعداء الاندال ويشخن فيهم ويوردهم موارد
النكال . وظل الملك ونصيره على هذه الحال هنيهة من الزمان ، فاذا
بصوت الابواق يقرع الاسماع منبعثا من الجهة اليمنى ، فقبين رعمسيس
فيه صوت الابواق المصرية ، فسطعت بوارق السرور على وجهه وأيقن
الظفر بالاعداء . ولم تمض الا دقائق معدودة حتى لاحت للانظار من
خلف الجبل القريب بضعة آلاف من جنود فيلق (فتاح) تحت قيادة
هوروس . ولقد رأت هذه النجدة الخطر محذقا بالملك فانقضت على
العدو بهمة لا تعرف الكلال وثبات تميد له الجبال ، واخرقت صفوفه
وفتكت برجاله فتكا وبيلا وألزمتهم بعد طول المجاهدة بالفرار ،
وانقضت رعمسيس من الانكسار . أما الشاب الذي كان ملازما لركابه
فقد اختفى عن الانظار ، لانه ريش بسهم أدماه . وقال قائل انه لم يكن
من الانس وانما هو الاله آمون تقمص في شكل رجل من الشجعان
ليجو عن الملك معرفة الذل والهوان .

ثاب رعمسيس الى الراحة ساعة جمع فيها شتات جنوده ثم هجم
بهم على الخيتاس ففرق شملهم ومزق جمعهم وقتل بعض رؤسأهم
وأسر الآخرين ، ثم انتشر بجنوده في أركان السهل فضم اليهم ما بقى
بالمسكر من الجنود الاحتياطية وهجم بهم على قلب جيش العدو فاضطر
الفارين الى التفرق في نهر الارونت وبحيرة قادش ، واستمرت المناوشة
بين الفريقين حتى أرخي الليل ستاره . ولما اسفر الصباح استأنف القتال

بشجاعة لم تخطر للخيتماس ببال ، فعاربوا متقهقرين ثم ولوا مدبرين بعد ان كانوا من النصر بخيانة بما كرر واثقين .

ولقد كانت الحيلة التي دبرها هذا الخائن الاثيم على وشك النجاح وكان ينبغي أن تكال به اذا صح دائماً أن يدلى الى النتائج بالمقدمات ، في مثل هذه الحالات . فان قواد الخيتماس اختاروا من جنودهم أحذقهم في سياسة الجياد وأثبتهم في مواطن الجلال ، فتواروا خلف أشجار الوادى الذى أمهد بما كرر لهم باستدراج رعمسيس وجيشه اليه . فلما وفى بهذا العهد وسار الجنود المصريون فى اطمئنان من بقات العدو ، إذا بالقي مركبة وخمسمائة مركبة قد هاجت جناح الجيش المصرى ، بينما كانت مقدمته تستعد لمقابلة فريق آخر من الاعداء انساب عليها من خلف الوادى ، ولم تكن تتوقع الاشتباك معه فى قتال لبعده مكانه على ما أكده بما كرر فى استطلاع قوة العدو واستعداده . ولكن العناية الربانية تداركت الخطب بما أشرنا اليه من المدد الذى خسر الاعداء بسببه ثلثي جيشهم ومعظم قوادهم ، وفى مقدمتهم (تبتور) المشير الاكبر و (شيرو بازار) مؤرخ ملك الخيتماس الذى كان ملازما ركابه ، يدون الحوادث تمجيداً لاسمه وتخليداً لذكراه .

أما رعمسيس فقد استقبله الجنود فى معسكره بهتاف السرور وأناشيد النصر . وعم الخير الديار المصرية فهش له الكهان فى هياكلهم والجنود فى ثكناتهم ، بعد إذ طال عبوسهم ، لما حرك آتى من خواطرهم ونبه من كامن بفضأهم . ولم يبق حديث يتداوله القوم فى محافلهم

ومجتمعاتهم سوى ظفر المصريين بأمة الخيتاس . وعلى أثر الواقعة أرسل الأعداء لتفقد الجرحى ورفع جثث القتلى ، فوجد مينا في الفريق الأول ولم يوقف لرامبرى على أثر ولم يعرف عنه خبر . وانقضت أيام لا يدري أحد عنه شيئاً فأفضى ذلك الى تواطؤ الانباء بوقوعه في أسر الاعداء ، وأن الفريقين اتفقا على المقايضة عليه بينت ملك الدنائم التي اختار مينا أن تكون نصيبه من الننائم ، واسكنها في صيوانه وعاملها بكرمه واحسانه . وقد تقبوا عن بما كر في كل مكان فلم يعلموا من أمره شيئاً ، ولكنهم وجدوا مركبته فخلصوا الجياد منها وساموها لمينا صاحبها الذي ما كان أعظم فرحه برجوعها الى حوزته بعد أن سلبت منه غدرآ في غيبته .

استولى المصريون على قادش واستتب لهم الامر فيها ، فالتمس (خيمتازار) امير الخيتاس الصلح فأجاب فرعون بأنه لن يذاكره في هذا الموضوع الا عقب عودته الى انديار المصرية ، فاضطر السفير المنوط هو واثني عشر من أمراء الامم المتحالفة ضد المصريين الى اقتفاء أثر الموكب الفرعوني في قصده ، بمظاهر الانتصار ، الى وادي النيل كأسرى حرب لا يمتازون على هؤلاء الا بما كان المصريون يعاملونهم به من الاحترام والتكريم .

وكان رمسيس شديد الاشتياق الى العودة منصرف الرغبة الى المسارعة بها ، لأن وسواسه كان يحدته بوقوع امر خطير في مصر . وكان ضميره يناجيه بتخرج الاحوال ، واستمكن منه هذا الشعور على

وجه أحس . مع أنه الفوز المبين الذي فاز به على الأعداء قد شابته شوائب الفتنة ، وكدر صفوه بوجه خاص تحققة من خيانة بعاكر ونزوع آتى الى الاستقلال بالملك ومعرفة الدانى والقاصى بهذا الخبر ، حتى أن أمير جيش العدو لما سأله الصلح ألمع الى فوائد المبادرة بإبرامه من حيث أنه يمكن أولياء الأمر من رتق الفتوق الداخلية التي تواردت عليه أخبارها من مصر . وكان رعمسيس موقناً انه قادر على كبح جماح الثائرين والضرب على أيدي المارقين ، الا أنه ظل واجماً كاسف البال ، لأنه أحسن الظن بقوم ألقى اليهم بأزمة الحكم ليذبروه في أثناء غيبته على ما يطابق مصلحة الرعية فاعتموا هذه الفرصة للاستئثار به . وضاعف حزنه ما حل بمينا من الردى ، وهو البطل المقدم الذي كان يوليه من الاعزاز والاكرام ما يذهب بالفوارق بينه وابنائهم ويمهد اليه قيادة جياد مركبته وتلقى أوامره التي كان يكفيه لتنفيذها الماع بكلمة أو إشارة بطرف العين .

ولم تشفع هذه الصفات النادرة له عند القائد العام للجنود المصرية فقد حكم عليه بالتجريد من رتبته والعزل من وظيفته وبعدم ليقانه للقيام بها وبني هذا الحكم على أسباب منها انه آثر الانتقام لنفسه فتخلى عن مركبة الملك وعرض حياته للخطر في أخرج المواقف ، كما عرض الجيش بذلك للهلاك والفناء ، ومثل هذه الجريمة في القانون العسكري المصرى يعاقب مرتكبها بالاعدام . فلم يجد رعمسيس من ثم سبيلاً للاعتراض على الحكم ، بل رأى في الاقتضار على التجريد من الرتبة والعزل من

الوظيفة مبالغة في الرفق بالمدنّب وغلوا في الصّفح عنه ، ولكنّه رضي بذلك لمساكنته منه وسالف خدمته لذاته السنية .

وكان رعمسيس شديد الاثناد والحذر بفطرتّه ومقتضى غريزته ، لا يعفى ابدامع الخيال ولا يستسلم للوهم . ولذا كان يرى منشرح الصدر لين الجانب متهلل الوجه في غالب أيامه ، حتى أيام الشقاء التي تنهك فيها قوة البدن ويعتور الفكر الكلال والضجر ، ولكنه كان ذلك اليوم سابحا في تيار الافكار تائها في فيافي الخيالات تنفعل نفسه بأقل المؤثرات ، فيرتفع رأسه بفتة كمن يقوم من نومه منزعجا . وكثيرا ما اقتحم الاهوال وعانى الشدائد ورأى الموت مجسما في أقبح الاشكال فلم ينبض له نبض ، الا في يوم قادش الذي ختم مع ذلك بفوزه . وهو ما دام حيا لن ينسى ما استشعره فيه من المعجز وقلة الحيلة وقما انفض جنده من حوله واندفعت به الجياد نحو الاعداء رغم أنفه ، فكان كريشة في مهب الريح تتلاعب بها الحدثان ، بل لن يذهب عنه أبدا ما تولاه من الحيرة كما عالج الخلاص من الاعداء وأراد ان يعرف من انقذه من أيديهم آمون ، وقد سمع دعاءه ولبي نداءه ، فتجلى له في صورة انسان وكان له خير معاون أم غيره ، أم انه ابن الشمس يجرى في عروقه الدم الالهى ؟ وكان لرعمسيس أن يسلك في الظنون كل مسلك لان الاله خصه بمزية لم يخص بها أحدا من البشر وادركه من عنايته بما يدل على سمو مرتبته ، ولكنه كان ينظر الى نفسه ليرى أنه بشر سوي وأنه كغيره من بني الانسان خلق ولا فارق بينه وبينهم ، والا لما

أن من ألم الجرح الذي أصابه واشتكى بل لما ازعجته خيانة بما كرم . ثم
 قارن بين نفسه وقد توسط شيع الاعداء ولم يجد حوله أحدا من الاصفياء
 ونجا من مكرهم السيء بما ايده من المدد الالهى ، ومن حكم عليه
 بالاعدام ، وانه لما جرى به الى دائرة التنفيذ صدر الامر بالعمو عنه .
 فاستنتج من هذه المقارنة أنه أحد أفراد البشر وأيقن ذلك وسر له
 لان بشرية الانسان تكفيه مؤونة التصدى لعلم المستقبل ، ومتى كان
 الانسان لا يعنيه من علم الغيب شىء خلا قلبه من هموم الحياة واشاغيلها
 وفي هذا منتهى الهناء والسعادة .

كانت واقعة قادش من الوقائع الفاصلة وكان فوز المصريين فيها
 ميدينا اذ استولى رعمسيس بها على مضائق الشام وقلاعها ثم عاد الى مصر
 مطمئن النفس ، بعد ما أنفذ اليها بحراً شطراً كبيراً من أدوات القتال
 وجماً غفيراً من الجرحى ، وصحبه في عودته الامراء المغلوبون على أمرهم .
 وقد بعث باثنين من ابناؤه الى ماجدو للمحافظة على اختهما بنت اناث
 في ييلوز^(١) ولينتظرا معها في سفينتها حتى يصل هو اليها .



(١) ييلوز هي القرية الان وكانت مفتاح مصر لكل جيش حاول الاغارة عليها من جهة
 شرق

الفصل الخامس عشر

--- ملتقى الابطال والخونة الاندال ---

مضى على واقعة قادش ثلاثة أشهر كان الجند والاهلون بمدينة
بيلاوز في خلالها يعدون معدات الاحتفال باستقبال الجيش المصرى
الظافر بالاعداء الاندال . وكان آنى المعروف بفتور الهمة وخمود العزيمة
لا يكف عن استنهاض العمال وحثهم على انجاز الاعمال ، وكان دائم
الحركة فى مركبته ذهبيا وجيئة لمراقبة العبيد المسكفين بأقامة أبواب
النصر وتميقها بالازهار وترتيب الاسود الصناعية الموهمة بزاهى
الالوان فى أماكنها . وكان يقف مع كل فوج منهم هنيئة حائنا
على اتمام القصر الذى شيد اكراما لفرعون وتنويها بذكره فى موقع
معسكر الهكسوس ومستنهضا على الاحتفال بتتميقه وتزيينه .

وبهذا الحث والاستنهاض استطاع بضعة آلاف عامل من تشييد
هذا القصر ^(١) فى عدة أسابيع فجاء قصره فغم المنظر حسن النسق
خليقا بسكنى الملوك والامراء . وكانت الارض من حوله صلبة لا
تصالح للنبت فاذا بها حديقة غناء ، بل جنة فيحاء يمتد فى وسطها طريق
ينفضى بالسائر فيه الى غرفة المائدة وهي غرفة مرتفعة أيضا عن ارض

(١) جاء فى بعض النصوص ما يشير الى ان المصريين كانوا يبذلون الاموال الطائلة لتشييد
القصور واقامة الحفلات بها يوما واحدا أو بعض يوم ثم يهدمونها

الحديقة ذات أزج يمثل القبة السماوية في لونها السنجابي وتلائي كواكبها
السنية مرفوعة على أعمدة بشكل النخل علت بتيجانها أطراف قطع
مستطيلة من الخز اللازوردي اللون، بحيث تتصل أطرافها الاخرى
بعضها ببعض في نقطة واحدة هي مركز الظلة القائمة فوق العرش
الملكي. أما الظلة فكانت عبارة عن قبة مجوفة مرصعة بلائي زرقاء
وخضراء وقطع من البلور النقي منشورية الشكل كانت بسنائها ولألاء
ألوانها تخطف أبصار الناظرين.

أما العرش الملكي فكان موضع الجلوس منه درقة يقف الى
جانبيها ليشان يتكئ الجالس عليهما. وكانت زواياه الاربع قائمة القوائم
على أربع صور تمثل أربعة من أمراء آسيا قد تقوست ظهورهم لثقل ما
يحملون. أما الارض فكانت مفروشة ببساط ازرق اللون رسمت فيه
الحيوانات البحرية من أسماك وغيرها، اشارة الى البلاد التي استولى
فرعون مصر عليها، وقد مدت عليه موائد يحيط بها ثلاثمائة كرسي
للمدعوين الذين سيدعون اليها من عظماء المملكة وقواد الجيش الظافر.
وكانت ألوف المصاييح التي تشبه بشكلها أزهار الزنبق والخزامى تضيء
القاعة بضوئها الباهر وتلفت الانظار الى شكلها البهي الزاهر.

وكانت مخادع النوم على هذا المثال من الجمال والجلال، اذ كانت
مكسوة الجدران بنسيج أحمر مزركش باسلاك الفضة والذهب
وسقوفها منطاة بقماش لازوردي دقيق السلك وارضها مفروشة بجلود
الزراف. وفيما يلي الحديقة من الناحية المجاورة للمدينة شيدت مباني

الخشب على صفوف متوازية لأقامة الحراس والجند، وجعلت الاسطبلات في آخر ذلك كله ومن بينها اسطبل موّه بالذهب وزين بالازهار للحياد التي كانت تجر في ميدان القتال مركبة الملك . وقد وهبها رعمسيس لاله الشمس شكر الاله على ما منحه من الظفر .

وكان الوالى آنى وصديقه راتوتى يتفقدان هذه الغرف فقالت له : يظهر لى أنك قد بلغت المراد بتشبيدك هذه الاماكن وتنسيقك اياها على ما يوافق الذوق السليم . اجاب آنى : أصبت الا أننى لا أدرى مم أعجب ، أمن سلامة ذوقك فى الترتيب أم من رجاحة عقلك فى اتقان الاساليب . فتبسمت راتوتى وقالت : اذا كنت أهلا لبعض المدح فما هو الا لأننى أخلصت لك الولاء ورممت لك الصمود الى أوج السماء . والافأى باعت يحملنى على اجهاد القريحة فى استنباط الوسائل الرجيجة لانشاء هذا القصر الفخم فى مستنقع امتلا بالحشرات ، مع ان مصيره للزوال بعد أن ينفق فى سبيله الكثير من الجهد والمال . قال آنى مطرفا رأسه : نعم سيكون عمر هذا القصر قصيرا وبقاؤه كالظيف ، ولكن هل ذهب عليك أن مشروعنا الذى قدحنا فى تديره القريحة وأعملنا فى تحضيره الفكرة قد ذهب نفخة فى رماد ؟ . . أرى أمينى قد خمدت همته وتلاشت عزيمته كما أرى الجنود التى اخلصت لى الولاء وحالفتنى على الصدق فى السراء والضراء قليلة العدد يكاد لا يبدو لها أثر فى جيش عرم قد مثل بخرمة الانتصار وتعلق برعمسيس لما أصاب من المجد والفخار . ثم ان الرعاة العبرانيين الذين استملمتهم هنا الى مودنى بما

رفعت عنهم من الضرائب الفادحة لم يتعدوا حمل السلاح والنزول في مواطن الكفاح . وانت تعلمين فوق هذا ماجبل عليه شعبنا من اتباع الغالب وتحري مواطناء أقدم الظافر والناصب والتزلف للقوي ، فهم ولا شك مبادرون بتقبيل قدميه ولو سعوا حبواً إليه مع علمهم بماسفك من دماء ابنائهم وأزهق من أرواحهم . لذا أراني فقدت الثقة فيمن حالقتهم واضطرب خاطرى لامر آخر لا اجد مجال القول ذا سعة لشرحه . . وهو أن البازي المرموز لى به والذي عهدت الى المعجوز نيخت العناية بأمره لا يزال مريضاً ، بل على وشك الموت لما تولاه من الضعف والوهن .

قالت راتوتى : اذا سلكت مسلك الرجال وجاريت فى شهامتك الابطال ، قويت أجنحة ذلك البازى فاستطاع الطيران وحلق فى سماء القدرة والامكان . واعلم انه لا يحسن بك التكوص على الاعقاب ولا ان تخشى من الملك أى عتاب . لانه متى رآك وقد استقبلته استقبال الآلهة العظام انتفعت أوداجه بالكبرياء ونسي الانتقام ، ومنعه ذلك عن توهم الغدر فيك وتحامل على من يناوبك ، وعز عليه أن يسىء الظن فيمن أنابه لادارة شؤون الوطن . ولكنه اذا أصفى اليوم لمقالك ولم يشك فى حال من أحوالك ، فانه يخشى أن ينقلب عليك فى الغد بسعايات الواشين اذ لا يفيب عنك ماوقع فى طيبة من حوادث لا يرجي أن تمحو أثر تلك الوشايات . وما أشبهك الآن بأسد حبس فى قفص حديد فاختلس من غفلة حارسه فرصة أفلت منه بها ، فلما أخذت عليه

الآفاق وامتدت الايدي للقبض عليه كشر عن نابه . فاذا سلكت
اليوم مسلك الآساد ولم تحش بأس أحد من العباد فويل ثم ويل لمن
يحاول أن يخضعك لجبروته ويرغمك على الطاعة لحكمه .
قال آنى : انت لا تكفين عن اغرائى بما أخشى أن تكون عاقبته
شقائى وبلائى . . من يدرى أن يخيب سعيها كما يخاب سعي بما كرم من
قبلنا ، وهو الذى دبر لرعمسيس من محكم التدابير ما كان ضمينا له بسوء
المصير . قالت راتوتى : أنظن أنك ان اخطأت المرمى اضطرب حالك
وساء مآلك . . اذن ما معنى قول الناس ان الآلهة هم الذين يدبرون
حركة العناصر وان لأحد منهم على تحريك ذرة منها بقادر . . أتستبعد
أن تكون الاقدار ساقطت الى انشاء هذا القصر الفخم العظيم لتدمره
بالنار وتجمعه كالعظم الرميم ؟ قال : ومن يأخذ على عهده اشعال النار فى
هذا المكان الذى ملأه عبدي ونيمو بالفصل والقار ؟ أجابت : أنا التى
تقوم بهذه المهمة مع رجل لا مطمع له عند رعمسيس ، وهو من أرباب
النجدة والهمة . سأل : ومن هو ؟ أجابت : بما كرم سأل : وهل هو
هنا ؟ أجابت : كيف تجهل وجوده وقد رأيت بهمينيك . قال : لملك
واهمة . قالت : كلا ، وقد خاطبته بنفسك . أتدرى من العبد الاسود
الاعور الذى وافاك أمس بخطابى ؟ انه لبعا كرم ابن اخى ستخم . فأرعد
آنى لسماع هذا الخبر وقال : ما أسوأ حاله ! قالت : نعم انه فى أسوأ
ما يخطر بالبال من الاحوال لتغير معالمه وتبدل ملامحه . ولقد فقد
احدى عينيه فى منازلته لمينا فأصبح أعور ، وكان جسمه ابيض تقيا

فطلاه بالسواد حتى تنكره امه والناس . وقد أصيب بطعنة رمح نفذت
من رثتيه فأصبح لا يتكلم ولا يتنفس الا بعناء . وكان متين الاساطين
قوي العضلات عريض الاكتاف ، فصار نحيلاً ضئيلاً لا يفرق الناظر
اليه بينه وعبء التصق بطنه بظهره من فرط الطوى . وما رأيت في هذه
الحال التي يتعذر معها تبين أمره حتى عن لي ان اجعله من اتباعي دون
ان اطلعه على ما أرمى اليه من المقاصد . والذي أتوقعه انه سيكون لنا
على تحقيقها عضداً ونصيراً ولو كان من وراء ذلك حنقه . . مالى أراك
متردداً ؟ أما رأيت انى لك كمن يهز الجذع ليلتقط غيره الرطب ومن
يفرس الشجر ليحبنى غيره الثمر ؟ وأذكرك هنا بوجوب التنبيه على
حافظ الانبذة ألا يدخل بها على العسس والذباذبة وغيرهم من الجنود
السردينية كيلا يفسدوا علينا تدايرنا . ولقد علمت أنك أمرت بافراغ
ثلاث من الخمس السفن التي جاءت من مصر مشحونة بما كان مدخراً
عندك من التبذ . وعهدى برب مصر في المستقبل أن يكون كريماً
لا شحيحاً لثيماً .

قالت ذلك واقتر ثغرها عن ابتسامه الاستنكاف . فادرك آنى
مرادها بها وقال : لقد خيل لي أنى خجول وفي جلائل الاعمال غير
عجول ، ولكنى أكتشفك بما يحول في خاطرى الآنى وهو أن يكون
ما فرط منا أضغاث أحلام لا حقيقة شديدة الأيلام . . أود تفيض
يدى من الدسيسة التي أحكمت تديرها بانشاء هذا القصر الذى كلف
المبالغ الطائلة من المال . أما التبذ الذى أشرت في كلامك اليه ففى وسعى

التصرف فيه على كل حال واهراقه على مذبح الامانى والآمال . ومع
هذا فأنى أكل الامر اليك وأدع تصريفه على الوجه الموافق لسعة
حيلتك . وقد اعترمت الذهاب بعد الاحتفال الى معسكر الحبشان
لأقضى به ما بقي الليلة من الزمان .

قالت راتوتى : ان تفعل هذا وشهد الناس ان النار التهمت ذلك
الذى اغتصب عرش الفراعنة ييايموك ملكا على مصر ، ويكفى أن يبدأ
أحدم بالمبايعة ليقتهدى به الآخرون . . ولا يهولنك من الامر شيء
فإن الكاهن الاعظم أمينى يؤترك على رعسيس ويتلقى نبأ جلوسك
على الاربكة المصرية بالبشر والارتياح ، ولو بقى صدره حاملا بعض
الحقد عليك . ها قد اقبل فرعون وها هي أعلامه تخفق من بعيد .
قال آتى : نعم لقد جاء فى قضة وقضيضه . ثم سكت هنيهة وقال : أنبهك
يا راتوتى الى أن بنت أنات قد حلت الجناح المخصص لها من القصر
ولست أحب متى اشتعلت النار فيه أن تذهب فريسة للنار . فضحكت
راتوتى باستخفاف وقالت : أهذا كل ما عندك . . كن واثقا انها ستنجو
من الخطر وان يلحقها شيء من الضرر . فودعها آتى ثم أجال النظر فى
البهو المعدة لاقامة الحفلات وقال متنهداً : لقد ضاق صدرى وحررت فى
أمرى ، ألا ينتضى هذا اليوم وليته بخير وسلام . . فضحكت راتوتى
وقالت : أراك تشبه هذا البهو الفسيح فى التجرد من مظاهر الجلال
ومجالى السرور ، ولسكنك متى وضعت التاج على مفركك وأمسكت
الصولجان بيدك تهلل وجهك بشراً وتهافت لاستجلاء محياك النضير

أفواج الناس فيكون شأنك عندئذ شأنه في هذا المساء، متى أضيئت
المصابيح وخفت الاعلام وتلاأت كؤوس الراح وبدت على
المحتفلين علامات الارتياح. فشكر آني لها هذا التمييز الجميل بغمزة
عينه وانصرف فشيخته بنظرها وقالت في نفسها: سادع بنت أنات
هنا فريسة النار إذ لا أود أن أرى الى جانبي من يشاطرنى النفوذ
والاقتدار.

وكانت ييلوز غاصة بالوفود توافدوا من كل صقع وحذب لتهنئة
الملك وجيشه الظافر. وكانت طوائف الكهان أوفدت الوفود لتحية
رعمسيس وتهنئته بالانتصار على العدو. وكان وفد مدينة الاموات
منها مؤلفاً من خمسة أعضاء يرأسهم أميني والنبي جاجابو. فقصده
الجميع، وقد لبس بعضهم ثياباً ناصعة البياض والبعض الآخر جلود
الفهود التي خص بحملها الانبياء، الى القنطرة المشيدة على فرع النيل،
يتقدمهم أعضاء وفد هيكل فتاح في منفيس وهو الهيكل الذي شيد في
عهد فرعون مينا أول مصري جمع بين التاجين وملك ناصية الوجهين
وكاهنه الاعظم والمدبر لأمره ابن رعمسيس. وتلاه وفد مؤلف من
كهان عين شمس فكهان هيكل مدافن طيبة الذي سبقت الاشارة
اليه. وكان ييد كل كاهن محجن طويل منمق بأزهار الزنبق والورد،
وييد الكثيرين منهم مجامر البخور يشبه شكلها يداً منضمة الاصابع
وضع في تجويها العطر الثمين. وكان في مبعوفى هيكل آمون بعض نساء
الأسر الكبيرة في طيبة، وقد وهبن أنفسهن لمباداة هذا الاله،

وكانت راتوتى انخرطت فى سلكهن حديثاً بناء على طلب الوالى آ .
أما أمينى فكان يسير الى جانب جاجابو مفكراً كاسف الببال
فسأله هذا بصوت خافت : أنظرت كيف جاءت الاحوال بما لم يخطر
ببال . . أين آمالنا التى عللنا بها النفوس . . ألسنا الآن أشبه بسعاة
البريد يحملون كتباً محتومة لا يدرون ما تتضمنه من الاقوال ؟ قال
أمينى : كُن واثقاً أنى جئت لتهنئة رسميس مسوقاً بعواطف
الاخلاص . . أما علمت أنه سيعود الى مصر على أثر ما وقع من
الحوادث فى قادش على غير ما جاء منها وفى حالة تباين حالته حينما
برحها . . انه ليقدر بالاريب ما وافاه آمون به من النجدة والنصر ولعله
نذر لهذا الاله تشييد الهياكل الباذخة اجلالاً واکراماً ووعد بتقديم
القرابين لهيكلى . ولقد عهدت من رسميس حفظ العهد والوفاء بالوعد
أكثر من ذلك الرجل النحيل الذى أراه فى مركبته هناك باسم الثغر . . قال
جاجابو : أخاف على هذا الوالى أن تبطش به يد الملك . قال أمينى : انى
واثق من عفو فرعون عنه لأن الرجل لا حول له ولا حيلة فهو
كالنصن الرفيع الذى تنفيه الرياح . قال جاجابو : ومع هذا فقد كانت
ثقتك به عظيمة فاذا آمالك فيه أصبحت الآن كآمال العاطش الذى
يحسب السراب ماء فاذا جاءه لم يجده شيئاً . قال أمينى بصوت منخفض :
ان ثقتى كانت بنفسى لابه وآمالى كانت مستمدة من همتى لا من همته .
وغاية الأمر انى أردت استعماله فى قضاء بعض الحاجات ، فاذا أنا تخليت
الآن عنه فاهو الا لفظه وغروره . . وأول ما زلت قدمه معنا فى

رفضه رجاء العفو عن بنطاؤر ثم حقه في بيمته انتقاماً من شاب شريف
الخصال حسن الخلال . وانه لجدير بالنفس الشريفة ان تناصب العداء
نفساً مثلها لانفساً خسيصة ممتنة ، أفيجوز إذن أن يكافأ الرجل الذي
انتزع بنطاؤر من بيننا باجلاسه على عرش الملك ووضع التاج على مفرقه !
كلا ان المرء إذا أبى الظهور في مظهر الرجل السهل القياد المنحدر مع
تيار الأهواء فالضرورة تحتم عليه الاستمسك برأيه وعدم الحيد عنه ،
الا بعد إمعان النظر وإطالة الروية . ولكننا معشر الكهان الذين لا هم لهم
الا السهر على مصلحة الجمهور لا يسرى علينا ما لا يحصى لغيرنا عن
المعمل به من المبادئ والقواعد . فمن الحقوق الخولة لنا الرجوع عن
الناية التي اليها نرؤ ، ولو بلغنا اليها وجذبناها من ناصيتها كما لنا أن نتغلي
عمن نصرناه ورفعنا شأنه ولو هوى الى الخضيض . ومن مبادئ الخالدة
التي لم نحد عنها منذ ألوف السنين أن الحياة الطيبة هي التي يقبض
الكهان على زمامها . وهذا رسميس قد فتح البلاد وأخضع لسلطوته
العباد ، لا أظن الا انه سيدأب بعد عودته الى الوطن على تشييد
الهاياكل الشاخنة وفاء بالنذر ، ولا بد له في ذلك من الالتجاء اليها
لالتماس معونتنا ، وأنت أدري أنه لا يحصى لمن كانت له حاجة عندنا
من الاذعان لنا . هذا هو سر تهنتى ابن سیتی على ما ناله من الفوز
والغلبة ولا سر سواه .

وكانت الاعلام تحفق على ضفة فرع النيل بينا كان ارتفاع الفبار
في الضفة الأخرى يشير الى دنو الجيش المصرى . ولم تكن الاغمضة

الطرف حتى طرق الآذان عزف الموسيقى العسكرية التي تسير في طبيعته
وكان الملك رعمسيس على رأس الجيش تقدح عيناه شرراً وتبدو فيها
آثار العظمة والكبرياء، ولكنه ما كاد يرى عند الجسر الممدود على النهر
عشرات الآلاف من الاهلين يصيحون صيحات الفرح ويهتفون
بالدعاء له وينثرون في طريقه الازهار اليانعة والنصون الناضرة حتى
تحولت عظمته الى تواضع وكبرياؤه الى عطف وحنان. ثم تواصل سير
الموكب على هذا النمط فلما وقف تقدم آنى اليه وقبل الأرض بين يديه
ثم عرض عليه صولجان الملك موضوعاً فوق وسادة من الحرير، فأشار
فرعون اليه أن يدنو منه فلما دنا مال عليه وقبل ما بين عينيه ورجامنه
أن يصعبه ويسوق مركبته لتشرف بقيادته اياها. وكان رعمسيس
يحمس في نفسه ساعتئذ بماطفة الشفقة على آنى والشكر له بعد إذ رأى
من ظاهر أمره ما يحمله على حسن الظن به وطرح الاعتقاد بأنه قد
نزع الى الخيانة ومزق عهد الأمانة.

وكان رعمسيس يستشعر كأن قلبه إناء يفيض سروراً لمشاهدته
الوطن الذي يريد له السعادة والسيادة على سائر الاوطان. ثم استقبل
الكهان بأرق التحيات وأظهر لهم من الميل ما انثنوا معه داعين له
بدوام البقاء غوثاً للوطن وحافظاً له من الشرور والهن. ثم سار بإرشاد
الوالى حتى بلغ الى القصر فدخله وصعد الى القاعة التي أعدت له متهلل
الوجه باسم الثغر وتفقد بعد ذلك العجول وكانت تبلغ الألفين عدداً ثم
الاسود فالهود المستأنسة فالاشجار النادرة المجلوبة من البلاد الاجنبية

وقد تخلت أغصانها الطيور المفردة بألوانها الزاهية ، وهذا فضلا عما لا يحصى عدده من الزراف والنعام الذي خصص لجر المركبات . وكان الملك دائم الانصراف نحو البحر ينتظر بذهاب الصبر حضور كريمته بنت اناث .

أقبلت الاميرة بعد هنيهة فعانقها الملك وضمها اليه ضمة المشوق ، لا سيما وقد أثار مرآها في نفسه ذكرى والدتها المحبوبة التي اغتالها المنون منذ عهد غير بعيد . وكانت نيفرت تلازمها وتحمل لها مروحتها ، فلما دنت من الملك جمت على ركبتيها فأمسك بيدها لانهاضها وتلطف بها اذ قال : لقد وقفت اليوم على أمر جديد لا بأس من موافاتك به يا نيفرت . . لاحظت أن السعادة القصوى التي كنت اظن أن لا سعادة بعدها وأن الجمال الرائع الذي كنت اعتقد ان لا جمال بعده قد يتدرجان في النمو والازدياد الى ما يتجاوز الظن والاعتقاد . ومن هذا القبيل طالع مينا ، فقد كان كوكباً ساطعاً لا يدانيه كوكب في السمو والالاء فأصبح شمسا متألقا الضياء . وما فاه رعمسيس باسم مينا حتى فكر في أمره فتقطب وجهه وكسف باله ولكنه تدارك ما فرط منه فالتفت الى كريمته وسألها : ماذا فعلت صديقتك نيفرت حينما علمت أن قرينها اختار من بين السبايا امرأة جميلة اكرم في صيوانه مثواها وأقامها عنده أشهراً طويلة ؟ . . اريد منك يا ابنتي العزيزة ان تكشفني لى النقاب عن هذه الحقيقة . قالت : ان الشطط الذي ركب مينا بهذا الفعل ممتنه اضطر نيفرت الى ملازمتي في هذا السفر الشاق ، فقد نقلت

رائوتني ذلك اليها فحنقت عليها وقالت لها إنها تظلمه بدمه والاقتراء
عليه وذكرت لها بعد ذلك أنها واثقة به ثقة لا حد لها وانها تفضل
البعد عنها حتى لا تسمع ما تكرهه في حقه منها .

سأل رعمسيس من نيفرت : أحقيتي ما روته بنت انات ؟ فاجهر
وجه نيفرت خجلا وأومات ايماءة الایجاب ، بينما كانت دموعها تترقرق
في عينيها وتساقط كاللآلي على خديها . فقال الملك : ان رجلا احرز
السعادة كلها باقترانه بمثلك خلّيق به ان يكون قدوة الناس في كرم
الخصال ومحاسن الشيم . ثم التفت الى رئيس التشريفات وقال : بلغ
مينا أني أحب منه أن يقوم اليوم على خدمتي في أثناء الطعام كما خدمني ليلة
الاستيلاء على حصون قادش واذكر له انه تركني في معمان القتال
عندما أبصر ببعاءكر وانه ان رأى قرينته في هذا المساء فلا يترك قدح
الشراب يسقط من يده . فشكرت نيفرت للملك هذا العطف جاثية فلم
ينتظرها حتى تقف ، بل انصرف للسلام على رجال بطانته الذين حضروا
معه نضحية القرايين وكرر لهم وعده بأنشاء هيكل فخم في طيبة .
وكان الملك في مروره بين الاهالي والجنود الذين ثملوا بخمرة الانتصار
وأطالوا له الهتاف والدعاء يقطع الطريق الموصل الى المرسي حيث كانت
سفن كثيرة تقل جرحى المصريين فتفقد أحوالهم واستفسر عن جراحهم
وتمنى لهم الشفاء السريع . وكان آني قابضاً على أعنة جياد الملك يجذبها
اليه ليكبحها عن السرعة ، ولكنه بالغ في الجذب حتى حرنت ولم يهدأ
ثاثرها الا بشق الانفس . وكان رعمسيس في خلال ذلك يشعر

بأحاسيس غريبة تنتاب نفسه ، فقد خيل له أنه يرى وسط المزدحمين
 حوله شابا توافرت فيه قرائن الشبه بالبطل الذي انقذه في واقعة قادش
 عقب استنائه بآمون ، فقال محدثا نفسه لعل الجياد حرت عند ما
 ابصرت بهذا الاله الذي لم يكن في الحقيقة الا بشرا كغيره عاد من
 موطن القتال جريحا كما عاد كثيرون غيره . ولقد كان في سعة الخائن
 الذي يقود مركبته ايقافه على جليلة الخبر بعد اذ شهد بنطاؤر وسط
 الجموع ، ولكنه لم يفعل ولن يفعل لانه قد هاله منظره فجذب اليه
 الأعتة بدون ارادته لتشنج أعضائه واضمهلال قوته .



الفصل السادس عشر

— للآدبة الملكية لتنفيذ المؤامرة السياسية —

كانت الشمس على وشك الأفول وقتما عاد الملك من المرسي الى القصر الشامخ الذي أعده آنى اجلالا له واعلانا لاتتصاره . وكان جماعة المدعويين يتهافتون على البهو الفسيح المخصص للمأدبة ، وقد أضىء بالانوار المتألقة . فلما دخل رسميس وجلس على أريكته واصطف ابناؤه حوله على شكل الهلال أطرق الحاضرون رؤوسهم ثم مثلوا بين يديه يتبع بعضهم بعضا ، فكان يقابلهم بوجه باش ويحدثهم بلطف ارتاحت له افئدتهم واشرحت منه صدورهم وتطابقت ألسنتهم بالشكر له والثناء عليه . وكان رسميس يحدث نفسه بقوله : ان اخص صفات الملوك الدعة واللين والدمائة ، فاذا كان أجدادى اختاروا الثعبان رمزاً لعظمة شأن الفراعنة ومبلغهم من البطش والجبروت فلست أود ان يحمل رأسى تاجا يمتوى هذا الرمز الجائر . ثم أجال النظر فيمن حوله وقال : ارفعوا عن رأسى هذا التاج وضعوا بدلا منه اكليل ورد زاه نضير .

وفي غضون هذا الاحتفال انصرف من البهو اثنان دون أن يشعر بهما أحد ، وهما الوالى آنى والكاهن أمينى . أما الاول فما كاد يبلغ الى الباب الخارجى حتى أمر حراسه بالذهاب الى مكان الجرحى لاحضار

بنطاؤور وحجزه في صيوانه ليتصرف كما يرى في أمره ، وكان لا يزال
لدى الوالى ذلك الشراب الذى جهزته الساحرة نيخت ليصيب ربان
السفينة بالجنون لساعته اذا ساغه ، فحدثته نفسه ان يستعمله فراراً من
بنطاؤور اذ كان يتوقع منه الاخطار والشرور .

اما أمينى فقصد الى صديقه جاجابو ليعوده ، وكان أغمى عليه
لشدة القيظ في أثناء التشريفات الملكية . ولقد سأل عن حاله فلما
اطمأن عليه عاد ادراجه الى القصر الملكى لحضور المأدبة السنية ، فالتقى
في طريقه بالجنود الذين نيط بهم استدعاء بنطاؤور ، عائدين به . وقد
لقت نظره الى الشاعر اعتدال قدمه وهيبه وجهه فوقف في مكانه حائراً
من الدهشة . أما بنطاؤور فقد عرفه وصوت باسمه فأقبل الكاهن الاعظم
عليه وعانقه فرحاً بلقائه . ولقد عم الحراس بالفرقة بينهما فكاشفهم
أمينى بحقيقته وأمرهم ان يذهبوا به الى صيوانه لا الى صيوان الوالى
مؤكداً لهم انه يتحمل عنهم تبعه مخالفتهم اوامر الوالى . فبكى جاجابو
فرحاً برؤية بنطاؤور وأمر له أمينى بثياب بيضاء فلما تدر بها وقف نظره
عليه ثم وضع كفه على كتفه كما يفعل الأب الحنون بولده الذى ضل ثم
اهتدى . وقد قص بنطاؤور عليهما كل ما اتفق له من الحوادث منذ برح
مصر ، وما كان من التقائه ببنت انات ومشاركته الجنود المصرية في
واقعة قادش ، الى غير هذا من جليل الحوادث ، الا أنه لم يفه بكلمة ما
في حبه لبنت انات وانقاذه الملك من الاخطار والمهلكات ، بل قال في
ختام حديثه : كنت منذ ساعة في خيمتى اسرح الطرف فى الانوار

الزاهية المنبثقة من القصر ، فاذا الحراس قد انسابوا في خيمتي على غرة
منى وانزعوني منها قائلين انهم سيذهبون بي الى صيوان الوالى الذى
لست أعلم من امره معي غير أنه ناظم علي متعمدا ايصال الضرر الي .

فارسل جاجابو وأميني كلاهما الى الآخر نظرة كفتهما مؤونة
الكلام ؛ ثم قام الكاهن الاعظم وانصرف معتذراً بقرب ميعاد
الاحتفال وضرورة وجوده وسط المجال وأمر الحراس بالانصراف
قائلاً لهم انه سيخبر الوالى بتعرضه لهم ومنعه إياهم من أخذ بنطاؤور اليه .
وحينما بلغ أميني الى القصر كان آنى منصرفا الى اجلاس المدعوين في
الاماكن المعدة لهم فاتجه نحوه وبعد أن سلم عليه باحترام قال : لقد
تأخرت عن الميعاد المضروب فمفواً عفواً . وسبب تأخرى انى ألفت
بنطاؤور على قيد الحياة فدعوته الى النزول فى صيوانى وأن يقوم على
خدمة النبي جاجابو مكافئاً فان هذا النبي لا يزال طريح الفراش .

امتنع وجه الوالى غيظاً حينما سمع هذه الاقوال ، ولكنه كظم
غيظه وتكاف البشاشة فى وجه أميني حتى لا تنكشف له نيته ثم قال :
أراك مخطئاً فى سوء ظنك بي اذ يبدو لى من كلامك اعتقادك انى
قصدت هذا الشاب بالاساءة فى حين أنى لم أطلبه الا لارسله اليك .
قال أميني : لا يسعنى الا الشكر لك وطلب الصفح منك بعد اذ اقتأت
على ارادتك ولم انتظر اتمام مشيئتك . ثم تركه وجلس فى المكان المعد
له الى جانب الملك .

وكان مئات العبيد فى غدو ورواح بين الموائد لتقديم الأتوان

الشهية ، وكانت تسير بين هذه الموائد مركبات صغيرة وضعت عليها
أواني كبيرة من المعدنين الكريمين قد اتقن صانعوها نقشها ، لتوزيع
ما فيها على المدعويين . وكان فريق من الأطفال مختلفين خلف أزهار
النيلوفر المجسمة التصوير في خشب سقف البهو ينثرون على المدعويين
أوراق الورد والبنفسج فيزداد منظر البهو بفعالهم هذا بهاء وبهجة ، لا
سيما اذا انضاف اليه تموج الاقشة الشفافة التي علقت بأطرافها فوق
الثرثريات والمصاييح فكان يخيل للرائي أنها سماء لازوردية اللون تتخللها على
ابعاد متفاوتة منها سحب بيضاء تسير في الجو سيراً وثيداً . أما الارواح
المطربة فكانت تحرق في مجامر من الذهب الخالص ارتفاعها ستة
أقدام موضوعة وسط البهو . وكان الموسيقى في مكان لا ترام فيه
الميون ، يشنفون الآذان بأنغامهم المطربة وألحانهم التي تهز النفوس
هزاً . وكان الملك ابن الشمس تنبعث من وجهه الانوار السنية كما تنبعث
من هذا الكوكب الدرزي ، وحوله الى اليمين واليسار ابناءؤه الفخام .
وكان مينا يقدم الى الملك الشراب في أكواب بعد أكواب ، أما
نيفرت وبت أنات فكاتا تجاه كرسيه كالبدور الطالعات .

ولطالما انصرف نظر مينا وهو في مكانه الى قرينته المحبوبة الامينة
التي لم يظفر منها بحديث مذ جاءت الى هذه الاصقاع ، فكان الملك
يشعر بأنه لاه بها عنه فينبهه الى تقديم الشراب ، كما كان في خلال ذلك
يتحف المدعويين باخبار الانتصار . وقد طاب له في ذلك تجنب
الاختصار ، فاجاء على آخرها حتى قال رئيس كهان عين شمس : لا

غرابية ان أفاض الشعراء في تمجيد أعمالك والتنفي بخصالك . قال الملك :
لا تقل تمجيد أعمالى ومدح خصالى بل عناية الآلهة الذين أنقذونى
يركاتهم الطيبات وأظفروا جندى بما لهم من إباهر الآيات وعجيب
المعجزات . سألت بنت أنات : أرأيت الآله ذاته يا أبت ، وان رأيت
قبأى شكل تجلى لناظريك ؟ أجاب رعمسيس ! . بدت لى ملامحه ككلامح
الموهار السابق ، أبى بما كر الخائن . وكان طويل القامة بدين الخلقمة
تلوح سمات الهيبة على وجهه . وكان يحرك السلاح فى يده برشاقة
الطفل ولباقته اذا تفرغ للعبته . وكان أمينى يصنى الى الملك وعلامات
الدهش ظاهرة فى وجهه ، فلما أمسك عن الكلام وقف وقال : لو ان
لمثلى أن يعود الى عهد الشباب لما عاقه عائق عن التنويه بقدر هذا
الاحتفال ، عملا بالتقاليد القديمة ، فى خطبة بليغة أثر دررها ، ولا عن
تمجيد معجزة آمون وبسالة ولده فى آيات عامرة بالمعاني الشريفة
والالفاظ العذبة اللطيفة كأملح شيء وأحسنه . الا انى لشيخوختى
أتمس منكم الاغضاء على ظاهر عجزى عن السبق فى هذا الميدان .
ثم التفت الى آنى وقال : ولما كانت الاسماع يطربها الصوت الرخيم ،
وكان لا ينقص بهجة الاحتفال اليوم سوى شاعر يشيد بذكر انتصارات
مولانا الملك بما ينظم من عقود الاشعار وينشد منها بين يديه الكريمتين
وفى حضرته العلية بصونه الرخيم ونبراته البليبة ، فماذا لو استدعينا
الشاعر بنطاؤر الذى أفاض الآلهة عليه المواهب ، وهو الآن قريب
من هذا المكان وحضوره فى حيز الامكان ؟

ما طرق اسم بنطاؤر سمع بنت أنات حتى عرتها هزة الدهش
والخيرة والاضطراب، ولم يمالك الكهان الذين ألم قلوبهم وفت في
عضدهم نبأ فقد هذا الشاعر الكريم الذي كان نابغة الشعر وبدر الشعراء
الطالع في سماتهم ان انجلت كروبههم وثلجت صدورهم حين علموا أنه ما
زال حيا يرزق وانهم لسوف يتمتعون برؤيته أبصارهم ويهذبون بسمو
ابتكاراته افكارهم . وما هي الا دقائق معدودة حتى مثل الشاعر بين
أيدي الملك والمدعويين وأنشد أشماراً حماسية بليغة المعاني وصف فيها
زحف الملك رعمسيس وجنوده على مدينة قادش حيث قال :

« نهض حضرة الملك وهو في غاية الصحة واعتدال المزاج ،
ونهاية القوة والابتهاج ، كأنه المعبود منث آخذا عدة الحرب في الحال ،
ومتهيئاً للضرب والنزال ، فأرسل مركبته في صفوف الاعداء
الانذال ، ليوردهم موارد النكال ، فهم على بني الخيتاس منفرداً
بنفسه ، ولم يتقدم معه أحد من ابناء جنسه ، واقتحم المعركة وحده
أى اقتحام ، بمشهد من جميع الاتباع والخدام ، وقد أحاط به ألفان
وخمسمائة مركبة حرية ، لا يبال الخيتاس وذوى العصبية ، من القبائل
المتكاثرة ، والمشار المتظاهرة ، وهم (أرادوس) و (ماز) و (بتاسا)
و (كشكاش) و (أليون) و (جاز) و (ناتان) و (شروت) و (اكتور)
وغيرهم . وكان على كل مركبة ثلاثة محاربين ، بالسلاح مدججين وبعدة
القتال مؤهبين ، ولم يكن مع حضرة الملك أحد من عشيرته ، ولا من
قوادجنده ولا من أمراء دولته ، بل ولا من عساكر المركبات وجند

الرماة ، فتوجه الى معبوده واستغاث بمولاه ، قائلاً : تركني وحدي
 بوسط الميدان ، جند الرماة والفرسان ، ولم يبق معي من يشد أزرى
 ويعضد ظهري ، فإذا يريد بي مولاي آمون ؟ فهل انا ولد عاق ،
 وللعقوبة اهل استحقاق ، مع أني لمولاي سميع مطيع ، اصدع بالامر
 على قدر ما أستطيع ، وأقوم بحقوق المشاعر ، واظهار الشعائر ، وأملأ
 بيوت العبادة من غنائم الاعداء الفادرين ، واتقرب الى المعبود بما لا
 يحصى من القرابين ، وقد انفتحت في تشييد المعابد المبالغ الفادحة ،
 وذبحت ألف ثور قربانا مزينة بالزهور الطيبة الرائحة ، وأقتت الهياكل
 الجسيمة ، واقتطعت لها الاحجار العظيمة ، وغرست في المعابد الاشجار
 المخلدة ، ونذرتها لتكون مآثر مؤبدة ، واحضرت للمولى المعبود من
 جزيرة اسوان ، أحجار المسلات الباقية على مدى الازمان ، وأجريت
 السفن في البحار الزاخرة ، جلبت غنائم الملل الى الهياكل الفاخرة ، فابتهل
 اليك يا مولاي وبك استعين ، وانا بين من لأعرف من قوم كثيرين ،
 بل وأنا في حضرتك وحدي ، وقد انفض من حولي جندي ، تركني
 عساكر الرماة ، وفرغني الفرسان الكمأة ، وقد دعوتهم فما أجابوني ،
 واستغثت بهم فما أغاثوني ، وأنت أولى بي من الجنود الرماة والفرسان ،
 وأحق بنصرتي من الابطال والفتيان ، فانصرتني على العدد الكثير ،
 والجم الفقير ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »

ثم أجاب الشاعر في قصيدته بكلام عن مولاه انه لبي دعاه وقيل
 رجاء ، فقال : « سمعنا يارعمسيس نذاك ، وقرع آذاننا من هرمونتيس

صدك ، فها أنا منك قريب ، ولك نعم الاب ونعم المجيب ، وانا الشمس
أخذ بيدك ، وأقوم بسعدك ، خير لك من الآلاف العديدين ، من
الناس ولو جاؤا مجتمعين ، ومتى كنت بين مركبات القوم ولو كانت
الفين وخمسمائة تفرقوا منهزمين ، وراحوا تحث سنايك افراسك
منكسرين ، وضعفت قلوب اعدائك بين جوانحهم ، واسترخت
اعضاؤهم بين جوانبهم ، فلا يرمون بهاسهما ولا يهزون ربحاً ، وسأغرهم
في الماء فلا يستطيعون سبحاً ، ويقهون فلا يقومون نهضاً ، ويقتل
بعضهم بعضاً ، ولقد تعلقت ارادتي بأن لا يلتفت أحد منهم خلفه
ومن سقط فلا يسود ، ومن هوى فلا يعود »

ثم قال الشاعر على لسان سائس ركاب الملك : « يا سيدي العظيم ،
وملكي الكريم ، وحامي مصر يوم النزال ، لقد بقينا بين صفوف
الاعداء في وسط القتال ، فهلا مهلا والنجاة النجاة ! ويا ليت شعري
يا سيدي الأجل ، ماذا يكون العمل ؟ » . قال الشاعر فأجابه الملك :
« اشدد عزمك ، وقو قلبك ، فاني سألقاهم واحمل عليهم كما يحمل البازي
العلوي على غنيمته ، فاخذلهم واقتلهم ، حتى يلقوا في التراب » . قال :
« فأرسل رعمسيس عليهم حينئذ مركبته وحمل عليهم ست مرات
متواليات فقهر رجالهم ، وخذل في كل مرة ابطالهم ، واجتمع حوله من
لم يشهد الواقعة من قواد عساكره وفرسانه ، وانصرف كل منهم
فضمهم حوله ، وجمع بهم شمله ، وقال لهم لقد احتد عليكم قلبي ، واشتد
هليكم غضبي ، هل منكم من أدى حق وطنه ، وحى حومة بلده ؟ لو لم

يقم مولايكم هذا المقام ، لادر ككم الحمام ، بل قعدتم في مساكنكم ،
 وتخلتكم عن قلاعكم ومحاصنكم ، ولم ترسلوا الجندي خيرا ، ولا أوردتم
 عندي من أحوالكم أثرا ، وإنما ارسلت كل واحد منكم في قلعتة ،
 وأوليته بولايته ، موصيا أن يرتقب وقت الجهاد ، وان لا يتأخر عن
 النزال والجلاد ، وها أنتم جميعا أخطأتم ، ولا وطنانكم قد أسأتم ، ولقد
 اقترف جنودي وفرساني أكبر الآثام ، اذ تركوني يحيط بي الطغام ،
 وإن أثمهم لا أكبر من ان ينعت وليكني ابديت شجاعتى ، واظهرت
 جرأتى ، وما اسعفتى أحد من المساكر الرماة ، ولا الفرسان الكماة ،
 بل أخلى العالم تمامه الطريق لبطشه عضدى ، وكنت وحيدا لم يأخذ
 أحد يدي »

ثم وصف بنطاؤور ميدان القتال وقما عادت جنود الملك اليه بعد
 الهرب فقال : « ثم آبوا فوجدوا وجه الارض حيث ساروا مجللا
 بالرّم ، مغمورا بالدم ، ولكثرة القتلى به كان لا يوجد فيه موضع لقدم ،
 فخطبوا حضرة الملك بقولهم : — أيها البطل الباسل والسيد المقاتل ،
 وصاحب القلب ذى الصبر والثبات ، لقد أغنيت بنفسك عن جميع
 الفرسان والرماة . وبما أنك ابن الاله توم ومن صلبه فقد محوت
 بسيف الانتصار ، قطر طائفة الخيتاس من بين الاقطار ، وإنما أنت
 رب العظمة ، وملك القهر والغلبة ، ولا اتفق لك نظير من سلطان ، قام
 بدلا من جنوده بأعباء الحرب والطمان . فلا غرو أيها الملك ذو القلب
 الكبير اذا كنت أنت حيث التقى الجمعان أول مبارز ، وكنت أمام

جندك أول بارز ، والعالم باجمعه ينظر اليك . اذ تعصب كله عليك .
فأجابهم الملك بقوله : « لقد اخطأتم جميعاً خطأ شديداً ، اذ انكم
تركتوني بين الاعداء فريداً ، فلا أخذ بيدي عشير ، ولا أسعفتني أمير
ولا قام بناصري مطلقاً نصير ، بل هزمت الاحزاب من كل الملل
وحدى ، وقالت دون جندي ، وكان يحملني كل من الجوادين المدعو
أحدهما العظمة في الصعيد ، والآخر بالسعادة في الملا الأعلى ، ولم نجد
يدي سواهما حين أحاط بي الاعداء ، فاكرموهما واعلنوهما بمجد
الحب في حضرة الاله (فرا) كلما آويت الى قصوري المشيدة ، ذات
الامهدة العديدة . قال الشاعر : « فلما أصبح الصباح ، وأشرق الفجر
في اليوم الثاني وبنوره لاح ، عاد الملك رعمسيس الى القتال ، ورجع
على الاعداء بالصيال ، كأنه ثور نزل على أوز ، وعاد الشجعان من
اصحابه للمجد والعز ، فانقضوا معه على العدو في معركة ، كالبازي ظفر
بفريسته ، وقاتل معه الاسد الكبير ، الذي كان يسير الى جنب جواده
فاشتعلت جميع جوارحه غضباً ، وصار كل من دنا منه سقط على الارض
ملقى ، وظفر الملك بالاعداء ، وقتلهم جميعاً فلم يترك منهم أحداً ،
وداسهم بسنابك الخيل حتى اندرست منهم الرمم ، وتمجنت في الدم ،
وصارت كلها قطعه واحدة ، لم تلبث ان صارت جامدة خامدة »
وما اتى الشاعر على آخر قصيدته حتى بهت الحاضرون ولزموا
السكوت والسكون . وكان رعمسيس لا يفتر عن النظر الى بنطاور .
كان نفسه كانت تحدته بتوافر الشبه بين صورته وصورة المبعوث الالهى

الذي نصره في واقعة قادش على اعدائه وقد حذق فيه النظر حتى انتهت به الحال الى الاعتقاد بأن ذلك الذي يراه هو الذي أنقذه من مغالب الموت ووقاه شر الوقوع بأيدي الاعداء، ولولا ذلك لما وقف على نص الدعاء الذي كان يستنجد به الاله آمون . ولقد أنس من نفسه ميلا اليه لم يتمالك معه من الوقوف أمام هرشه اذ قال للمدعوين : ان هذا الرجل لحقيق بالاحترام والتبجيل فاحترموه وارفعوا قدره ، لان الاولوية تجلت في صورته لنجدة مليككم حين أحاط به الالوف من الاعداء فصاح الحاضرون بصوت واحد : المجد والفخر لبنطاؤور .

وقد أثر هذا المنظر في نفس نيفرت تأثيراً جعلها تقصد الى مكان الشاعر ، وقد اكتسى وجهها النضير بحمرة الخجل وتقدم اليه باقة ورد كانت وضعها بين نهديها الرمانين . فطرب رعمسيس لهذا العطف ثم التفت الى بنت انات بعين المستفهم عن هذا السر ، فنظرت اليه ثم قصدت الى مكان بنطاؤور فكلت رأسه باكليل من الزهور . فأعجب الملك بفعلها وصفق الحاضرون بأيديهم استحساناً ، واسترسلوا في التصفيق زماناً . وكانت أنظارهم متجهة نحو الملك وابنته وبنطاؤور وظلوا كذلك حتى قال رعمسيس : لقد انتصف الليل فليصرف كل منكم الى حيث يريد ، وموعداً في الغد هنا . . فلا تنس هذا يا بنطاؤور .
ولسكن لشرب قبل الانصراف في سر السلام والامن ، ولنشكر لآتي حفاوته بنا ومبالفته في اكرامنا ، واني لاحمده حمداً خاصاً على فيرته وأمانته في ادارة شؤون رعيتي مدة غيبتى .

وهنا سار الملك يتقدمه آتى مرشداً وانصرف الحاضرون . وما استطاع مينا أن يحظى بمقابلة تيفرت الا دقائق معدودة تبادل معها فيها عبارات الشوق والوجد . وكانت الاميرة أذنت لها بالمبيت عند والدتها راتوتى . اما رعمسيس فبقي بعد أن صرف رجال حاشيته في خلوة مع ابنته . وقد سألها : فيم كنت تفكرين وقما وضعت اكليل الزهور على رأس بنطاؤور ؟ قالت بصوت واضح وعبارة صريحة : وفيم يا والدى يفكر بنات مصر اذا فعلن مثل هذا ؟ قال رعمسيس : ألا تحسبين حساباً لو لك ؟ قالت : ان والدى يعلم اننى خاضعة لامره ولو كان في هذا الخضوع حرمانى من السعادة ، ولكننى اعتقد أيضاً أنك تحب لى الخير والهناء ، ولن أنسى ما حبيت تلك الساعة التى كانت والدى المرحومة فيها على فراش الموت فوعدتنى باستطلاع أفكارى واستكناه مكنون اسرارى ، كما كان هذا شأنها معى فى جميع أحوالى وأطوارى . ثم ما فائدة الاسهاب وانالم أعشق بنطاؤور منذ أيام ، بل ان زمام قلبى بيده قبل اجتماعنا بهذا المكان . ولقد رأيت انه بما ابداه من جليل الفعاليات جدير بان يرقى الى قصوى درجات الشرف والكمال . وهب انه وضع الاصل وحقير الشأن ، أفلم يكن خليقاً بشرف القربى من اميرة هي سلالة اعظم الملوك وجديراً بأن يسمو بفضائله الى اسنى المراتب وابعد النهايات ؟ قال الملك : نعم لم أنس الوعد الذى تذكرينى به فافعلنى ماشئت وتصرفنى بشؤونك على ما تشتهين . ولقد عهدت فيك من الصراحة فى القول والفعل ما يحملى على الثقة بك والاعتماد عليك

وإحلالك من نفسى منزلة والدتك منها ، والدتك التى كثيراً ما سمعت
قولها ان المرأة الصادقة أهدي الى الصواب من الرجل مع ما اختص
به الرجال دون النساء من الفضائل والمزايا . فاذهي الآن يا ابنتى
العزيزة لالتماس الراحة من العناء والجحى عن اكليل جديد يزين رأسك
ويظهر بأسك .



الفصل السابع عشر

— ما يدبر في الظلام من الجرائم والآثام —

في السهول المحيطة ببيلوز نصبت خيام وسرادقات ناصعة البياض يظنها الرائي، وقد طرحت الكواكب عليها أشعتها الباهتة المريضة، كئيبان رمل في الفلوات الصحراوية وآكام برد في المناطق الثلجية. وكان النازلون في هذه الخيام والسرادقات في ابتهاج وازدحام لا تشوبهما أكدار ولا آلام، لأنهم جالسوا للشرب من النبيذ العتيق الذي جرى به اليهم في ثلاث قرب وضعت على ثلاث مركبات زينت بالازهار تجرها عشرة من عجول البقر، واصابوا منه كثيراً دون ان يكتفوا فتملأوا وترنحت اعطافهم وطاشت أحلامهم. وكان بعضهم يتهافتون على الموائد التي مدت برسمهم في اماكن معينة من تلك السهول الفسيحة فيتناولون ما لذت لهم وطاب من الطعام والشرب.

وكانت خيام الجند مضروبة حول الحديقة التي أقيم بوسطها القصر الملكي وكان سرادق آني بينهما يمتاز بارتفاعه وانفساح جوانبه وجمال رونقه وحسن نظامه. وكان الى اليمين منه الامكنة الخاصة باقامة وفود مدارس الكهنة، والى اليسار رجال حاشية الوالي وراتوقي خالة بما كر تحتال في مطارف العز والجلال. وكانت نيخت المعجوز خلف السرادق لا يفصلها عنه سوى ستار رقيق. وكان آني قد اخذها معه في سفينته

وقتها حضر الى مصر دون ان يعلم بأمرها أحدا سوى راتوتى وبعض من
يثق بأمانتهم من الخدم .

وكانت العجوز فى اثناء الاحتفال قاعدة القرفصاء بالمكان المعين
لها نعانى المشاق والاجهاد فى استنشاق الهواء ، لما أصابها فى صدرها من
الداء . وكانت تستصيح بمشكاة من الفخار الاحمر وعلى مقربة منها البازي
المريض ، وقد غشيت عينيه سحابة بيضاء . وكان كلما حملته العجوز بين
يديها الجافتين لتنفخ فى منقاره الاحدب ارتفع حاجباه وانسرجناحاه ،
كما لو كان يتأهب لمنزلة جارح آخر أراد به سوءا . وكان الطفل
شراعو على مقربة منها غارقا فى نومه ، وقد رأته فى هذا الوضع قد دفنته
برجلها قائلة : قم من نومك أيها الخبيث . فهب المسكين من نومه فزعا
واتصب على قدميه وهو يتداعى للسقوط لغلبة النعاس عليه ، فقالت له :
يخيل لى اننى أسمع صياح امرأة منبعثا من صيوان آنى ، فاسترق السمع
وقل لى اذا كان ما يخيل لى حقيقة . أجاب : اننى اسمع صياحا يشبه ان
يكون أنينا ، وأسمع صياحا آخر من خيمة نيمو . قالت : انطلق الى
هناك ولا يدريين بك أحد ثم عد سريعا واخبرنى بما رأيت .

انطلق شراعو مهرولا بينما كان البازي فى يديها تحوطه بعنايتها
لأن الضعف قد استمكن منه فأخذ يمد يمينه ويسرة ، الا أنه كان بالرغم
من ضعفه وتضعفه يمد عنقه الى يدها ويرفع منقاره يذود عن نفسه
كلما بدت حركة منها تقصد بها الى معالجة أمره . ولقد أيقنت العجوز
أن لا أمل فى استنقاذه من خطر الهلاك ، فقالت بصوت خافت : هذا

الطائر لا محالة هالك بعد قليل ، اما الطائر الذي اسميته رعمسيس فانه
يزداد في كل ساعة قوة وشبابا .. نعم ان قوة هذا وضعف ذلك لا يدلان
على شيء ما في المستقبل من أمر الملك والوالي آنى ، فان الاعتقاد بمثل
هذه الخرافات ضرب من الهوس والجنون . ولكن من يدري ما اذا
تكون العاقبة ؟ ألا يجوز أن يفضي التفاؤل بخير أو شر في أمر ما الى
الاعتقاد أحيانا بصحته .. رأيت الوالى قد ركب منن الخطر وزج
بتفسه في مآزق الشر والضرر ، مع أنه سيمود بصفقة المغبون كما يدل
عليه ضعف جناحي هذا البازي المسكين وارتخاء أعضائه وانكباب
رأسه .. ها هو قد تدلى .. ها هو قد مات . طرحت المعجوز الطائر
ميتاً في حجرها ثم ألقت به الى أحد أركان خيمتها ووجهت كلامها اليه
كما لو كان الوالى آنى بعينه : أسعد الله مساءك يا آنى لقد عدت من
آمالك في وضع التاج على مفركك بالخبية والفشل وتبين ما بنيت عليه
آراءك من الخطأ والخلط . ثم سكنت هنيهة وقالت بكلمات متقطعة :
وماذا عسى ياربى أن يقع بعد الآن من الحوادث ؟ ان الرجل ألحف
في سؤالى أيقترن سميهِ بالفلاح . وكان نيمو ينقل الي اخباراً جعلتني
اعتقد بقرب وقوع حوادث كثيرة خطيرة لم يكشف لى عن مكنون
سرها ، ولكننى أخذت منها أن القوم يدسون لى الآن الدسائس
وينسجون من التدابير ما أخشى منه على نفسى .. آه ! ها قد عاودنى
الحزن والألم .

ثم رفعت يدها الى قلبها وسقطت على الارض مغشياً عليها ولبثت

غائبة عن الصواب ساعة من الزمن . فلما أفاق من غشيتها أحست كأن قطرات ماء بارد تجرى في عروقها ، فقالت : لو انى ريت بازيا آخر لاستطلع من حاله مستقبل أمرى لسار الآت فى أثر أخيه . ثم من يدرينى أيفى آنى بوعدہ الذى وعدنى من تحنيط جثتى بعد مماتى ! ولكن كيف يستطيع الوفاء وهو ذاته سائر الى الهلاك . . ستترك جثتى معرضة اذن لعوامل الفساد والفناء دون أن أحظى بنعيم الحياة الآخرة . أو اظفر بما أشتهيہ من اللقاء بمحبوبى آسا الذى لن انساہ ما خفق لى قلب فى صدرى .

قالت هذا ثم لزمت الصمت هنيهة استأنفت بعدها مناجاة نفسها : ليس الموت فى الحقيقة سوى واسطة للاخلاص من آلام ذكرى الحوادث العابرة وسبيلا الى الحياة الخالدة التى لست أياس من الفوز بها ! نعم لا يخلق اليأس بمثلى فان الموتى جميعا ، على تفاوتهم فى الدرجات ، لا مناص من محاسبتهم على أعمالهم فى الحياة الدنيا بمقتضى القوانين الالهية التى لا ينبغى لنا التطلع لاستبطاف اسرارها واستكشاف أسبابها . فأين يا ترى أجد محبوبى العزيز الذى أحرقت بنار الحب مهجتى ؟ أفى الجنة بين البررة المقربين أم فى الجحيم بين المعذبين ؟ أما أنا فسواء عندى أفى السعير وجدته أم فى رياض الجنان رأيتہ ، مادامت غايته اللقاء به والتملى بمشاهدته ، وليس لهذا أم ذلك من ذريعة إلا تحنيط جثتى بعد الوفاة وصونها من الفساد والفناء .

وفى الاثناء كان شرعو أبلغ الى نيمو ما صارت العجوز اليه من

تضعض القوى والاشراف على الموت . فلما دخل عليها لتفقد أحوالها ووقع نظرها عليه تنفست الصعداء وقالت : انك أحسنت بحضورك في هذه الساعة ، فقد حان يا بني أجل . ولا تغرب شمس اليوم حتى ألقظ النفس الاخير فجزع نيمو وصاح قائلاً : كيف هذا يا والدتي ؟ أتموتين ا كلا بل يجب أن تبقى على قيد الحياة لتتعمي ، بمد اتقضاء حوادث اليوم ، بلذة العيش وتفوزى بمجزيل المطايا والمن . قالت المعجوز : أما حوادث اليوم التي تشير اليها فقد وقفت على ظواهرها وبواطنها . ثم أوعزت الى شراعو بالانصراف وسألت نيمو أن يذيع لها ما كان كاتما من تدابير تتخذ وفخاخ تنصب . فدنا القزم منها وقال : ان القصر الذي سيقضى الملك فيه الليل بني من الخشب وقد وضع القصل والقار في جدرانه حتى اذا نام اشعلنا النار فيصبح القصر وليس به انيس ولا ديار . اما الاحراس فهم الآن بين موت وحياة لكثرة ما شربوا من التبيذ الذي نهب عقولهم وسلب شعورهم . قالت المعجوز : لقد بلغت الناية في سبك الحيل ، لكن لا أتوسم فيك الجرأة والاقدام على تنفيذها ما دمت تجهل اذا كان قد اتصل بالملك سر المؤامرة عليه أم لا ، أو سيشاركك في ذلك رفقة توافرت فيهم صفات الشجاعة واقتحام الاخطار . قال القزم : لا يدري بدخيلة هذه المؤامرة غيري وراتوتي وبماكر . وقد اتفقنا جميعاً على اضرام النار في وقت واحد بجهات معينة . أما الجهة التي أخذت على عهدي اضرامها بها فهي الحجرة الخاصة بينت أنات . وقد تعهدت راتوتي بأحراق السلم المتصل بأداة اذا

حركت سقط السلم ولم يعد الصمود فيه ولا النزول منه ممكنين . أما
 بما كرر فتعهد بأشعال النار في حجرة الملك رعمسيس : قالت العجوز :
 حسن كل هذا ولكن من المرأة التي كان صوت استغاثتها قبل حضورك
 بقليل يدوى في الفضاء ؟ فتردد القزم في الجواب فقالت : تكلم ولا تخش
 شيئاً من عجوز مثلي ستحمل هذا السر معها الى القبر . أجب نيمو :
 التقيت في الطريق بحفيدة المحنط بينم فجئت بها الى خيمتي معللاً النفس
 بزواجها متى استوى آنى على عرش الملك واعتقتني راتوتى من رقتها
 وكافأتنى على اخلاصى في خدمتها . والظاهر انها كانت في حاشية الاميرة
 بنت انات ، وكان مقرراً أن تقضى الليلة معها في حجرتها . فسأقتها
 الاقدار اليّ حتى لا يصيبها ما سيصيب غيرها من الموت بعذاب النار .
 وكانت تريد منى ان اطلق سراخها كي تعود الى القصر فلم أجبها الى
 طلبها ، ورأيت ان اتاذها من الحريق فرض محتوم عليّ . وقد ألفت
 في الطلب فلم أر بداً في اخضاعها لارادتي من شد وثاقها بجبل متين .
 سألته العجوز : وهل سكنت ولم تقاومك ؟ اجاب : كيف لا وقد كانت
 تتقلب في يديّ لكن يتقلب على الحجر : ولم تمنعني هذه المقاومة العنيفة
 من التغلب عليها بمساعدة الاخرس خادم الوالى الذى امره مولاه
 بمساعدتى . ولما علا صراخها حتى ملأ الجور وخفت العاقبة سدوت فيها
 بقطعة خشب فلم تستطع الصياح . سألته العجوز : واذا ذهبت في تنفيذ
 مكيدتك فهل تتركها وحدها في خيمتك ؟ قال : نعم لان والدها معها .
 قالت العجوز دهشة : والدها رشتا ذو اللحية الصفراء . وكيف لم

يحطم عظامك كما يحطم قدر الفخار وقد راك تسيء الى ابنته ؟ قال نيمو
 ضاحكا : والدها لا يستطيع حرا كالانى كنت التقيت به فى المعسكر
 فاعطيته من نبيذ آنى قدراً وافياً أضاع رشده فهوى الى الارض جامدا
 كالومياء . وهو الذى أظلمنى على مكان وردة فأسرت من فورى اليها
 وما زلت بها حتى احضرتها الى خيمتى بحجة أن والدها مريض وانه
 رجا منى استدعاءها ليخفف عن نفسه الالم بالنظر اليها ، فما سمعت هذا
 القول حتى اقتفت اثرى وحين رأت أن والدها قد فقد صوابه جثت
 على ركبتيها امامه ثم طلبت ماء لتضع به جبينه بعد اذ ظهر لها أنه
 أصيب بحمى شديدة وسمعته يلهج بذكر جرذان كان يقول إنها
 أحدثت به وحملت عليه . وقد لحظت بعد ذلك أن الوقت أزف وأنه
 لا بد من العودة الى القصر الذى فيه بنت انات ، فلما أبت البقاء عندى
 التجأت الى العنف فى الزامها على البقاء ، ولو دريت يا أماه ما اصبحت
 عليه الآن من الجمال الباهر والحسن الزاهر ! قالت المعجوز : نعم جمال
 باهر وحسن زاهر ! ولكنك اذا اتخذتها حليلة لك ستضطر الى اذكاء
 العيون عليها لان الجمال مرعى . قال نيمو : اعلمى أنى سأعاملها بما يعامل
 الامراء والكبراء به نساءهم فأرصد لخدمتها الخاصة بعض الجوارى
 الحسان . . ترى رأتوتى قد عادت مع نيفرت ؟ انى أرى السكواكب
 تهوى قليلا قليلا ، وهما قليل يتم الحادث الجلل الذى اتفقنا على ان
 تكون اشارة الشروع بتنفيذه ان تصفر سيدتى ثلاث مرات فتهم
 عندئذ بوضع النار فى الاماكن المعينة . وأذكر يا أماه ان عندك عابة

ثقاب فاعطنيها فانها اجود من ثقاب علي . قالت العجوز : خذها
 فلست بحاجة اليها بعد ان فرغ نصيبي من الدنيا . ولكن قل لي مالي
 ارى يدك تضطربان . . . دع الجبن والكعامة وخذ العلبة بقوة والا
 تنازت ثقابها قبل ان تضرم النار بها . فودعها نيمو بمبارات تشف عن
 العطف فلم تبد منها حركة ولم تنبس شفاتها بكامة ، فلما غاب هن
 نظرها وقفت وقد ظهر القلق على وجهها وأذنت لتسمع صفير راتوتى
 وكانت عيناها تلمعان وساورتها الهواجس ، فلما سمعت للمرة الثانية من
 صفير راتوتى المنبعت من صفارة فضة قالت تحدث نفسها : ما أشنع
 فملتكم أيها الاغبياء الاذنياء ، فبعا كرم منكم عنوان الشر ونذير السوء
 وراتوتى صاحبة الصلف والخيلاء ونيمو مصدر المكائد وينبوع الحيل .
 ولكنكم لن تستطيعوا ان تمسوا رعمسيس باذى ولو فى اضغاث الاحلام .
 ان بازى آنى قد مات فلا أمل اذن له فى تحقيق أمنيته كما لارجاء لى فى
 قضائه لبانتي ، ولكن لورام رعمسيس . . .

ثم تناولت قنينة وسكينا وسارت مستندة الى عكاز وتمعيرة فى
 اذبالها ، حتى بلغت الى خيمة نيمو ، وكانت الآفاق تردّد دوي الصفير
 الثالث . فلما وصلت الى الخيمة وجدت بها وردة مطروحة ارضا
 وموثقة الاكتاف ورشتا فاقدتا الشمور . وكانت وردة ترتعد فرائصها
 وشراعو ممدودا عند قدميها كالكلب الامين ، فلما رأى العجوز مقبلة
 عليهما بسط يديه بالضراعة ان تنقذهما . أما هي فقد ألقت السكين الى
 الطفل وأمرته أن يقطع الحبل الذى شد به وثاق وردة ، وكان جبلا

متينا مضافورا بالياف ورق البردى .

وبينا كانت شراعو يعالج قطع الجبل بالسكين كانت المعجوز
تدلك صدغي رشتا بالخلاصة التي في القينة ثم قطرت نقطتين منها بين
شفتيه ، فهاهي الاغمضة الطرف حتى أفاق الرجل من غشيته وأجال
النظر فيما حوله دهشاً حائراً . فقدمت المعجوز اليه ماء وألحت عليه ان
يشربه . وقالت لوردة التي نشطت من عقالها ووقفت على قدميها : اعلمى
ايتها الايكة البيضاء ان الآلهة قد بعثوك هنا لاداء مهمة جليلة . . ان
الملك واولاده قد دبرت التدابير لاغتيالهم ، ولى شوق الى انقاذهم مما
اوشكوا ان يقوموا فيه ، غير راعية في جزاء الا ان تحنط جنتى وتدفن في
طيبة . أفترسمين لى لتبلغن الى الملك هذه الوصية ؟ قالت وردة :
اناشدك الآلهة ما الخطر الذى توقعينه ؟ قالت المعجوز : خذى على
نفسك عهد الآلهة وميثاقهم ان تسهدى قبرى بالعناية . قالت وردة :
اقسم لك بالآلهة وبحياتى لئن مت لأتعهدن قبرك ، ولكن أى مصاب
يتهددنا الآن ؟ أجابت نىخت : ان راتوتى وبعاكر ونيموتا مروا على
اضرام النار بقصر فرعون فى ثلاث جهات منه ، فعليك يا رشتا باقتفاء
أثرهم وبادر بايقاظ الاحراس ومجمل بانقاذ الملك من الهلاك . قالت
وردة لوالدها : هلم بنا يا والدى نتلافى الخطر والواقع بنا السوء والضرر .
قالت هذا وأخذت تركض خلف أبيها . وبينما كانت تمن فى الركض
كانت المعجوز تشيعهما بنظرات العطف والحنان وتحدث نفسها : ان
وردة صادقة الوعد واهل لحفظ العهد . ثم همت بالعودة الى خيمتها

فخاؤها قواها ولم تستطع تقل قدميها . ولم يكن شرعو الصغير لضعفه
بقادر على مساعدتها ، فسقطت على الثرى ، والتفتت الى القصر فاذا بشعاع
يسطع في السماء بين حين وآخر كأنه لمع البرق الخاطف ثم ازداد تألقه
وتصاعدت بعده سحب دخان كثيفة اشتدت بها حلكة الظلام . وما
هو الا مر الطيف حتى اندلع لسان اللهب وطار الشرر في جميع الارحاء .
فلما رأت العجوز هذا المنظر المخوف صاحت بشراعو أن يجري الى
المسكر ويوقظ النائمين . فأخذ يعدو صائحاً بملء فيه : النار ! النار ! وقد
احست نيخت في اثناء ذلك ألما اخرج صدرها وضيق انفاسها فرفعت
يدها الى قلبها وتشنجت شفاتها وكان آخر جملة فاهت بها قبل ان
تفيض روحها : الى الملقى في العالم العلوى يا آسا !



الفصل الثامن عشر

— النار | النار | وما وقع بالقصر من الدمار والانذار —

كانت راتوني أخفت بما كرت في خيمة بعض الخدم كيلا ينكشف امره ويفتضح سره . وما تمكن هذا الشاب الساقط الهمة من العودة الى مصر الا بشق النفس واستنباط الحيل . فانه بعد معركة قادش التي اصيب فيها بالجرأح الفادحة اخذ يتلمس الطريق في الآجام السكيفة والغابات المظلمة حتى وفقته المصادفة لمقابلة فلاح سوري يقود حمارا فاشتراه منه ثم امتطاه وطار به من سبل لا يمر فيها سواه وظل يواصل السير الى ان بلغ الى المغارة التي كان الشاعر بنطاؤر ارشد اليها والدوردة ، فوجد بها تابعه الحبشي الأمين الذي أقام على خدمته والعناية بشأنه حتى أصبح بحيث يستطيع السفر الى مصر . وقد قصد اليها فعلا فوصل الى بيلوز متسكرا بلباس حداة الابل ولم يستصحب الحبشي بل تركه في سوريا حتى لا يشي به فتمتد يد الانتقام اليه . ولما دنا من الحدود بين سوريا ومصر^(١) وجهت اليه اسئلة عن حقيقة شأنه وعن سبب حضوره وهما اذا لم يلتق في طريقه يبعا كرا الخائن لوطنه أو لم يسمع عنه خبرا . وأخذ السائلون وهم حفظة الحدود واحراسها يصفون له

(١) كان على طول الخط الفاصل للحدود المصرية من حدود الشام بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر حدود متعاقبة تكاد يتلاصق بعضها ببعض لحماية مصر من غارات عرب الشاسو وكانت هي العلامة على خط الحدود

بأنه عريض الاكتاف قوي الاساطين بدين الجسم ظاهر الصلف ،
ولم يخطر قط ببالهم انه هو بعينه ومينه الذي يجاوبهم على اسئلتهم ، وكان
لهم في ذلك عذر . وقد تفكر في زي جمال اعور ووخظه الشيب وأنك
قواه التعب لا سيما مع تحيله على بشرته اذ غير لونها بعقاقير اشتراها من
طبيب وطلّى بها جسمه فأصبح اسود فاحما لافرق بينه وبين الزوج .
وكان آنى وراتوتى قد وصلا الى ييلوز حينما وافاها بما كرمتمكرا
بذلك الزى يستجدى الناس احسانهم ، وحاملا بيده سعة نخل . واتفق
ان ابصر بخالته راتوتى فدنا منها مستجديا فأثر منظره الرث الحقير في
نفسها بما حملها على اسدائه البر . وقد سألته عن اصله وسبب جراحه
والصناعة التى يزاولها واطهرت الاهتمام بامرّه عملا بخطة عقدت العزيمة
على اتباعها وهي استمالة الفقراء للاستعانة بهم عند مسيس الحاجة .
فجاوبها على ما وجهت من اسئلة ، وكانت تتلقى بيانه بتكلف الشفقة
والرفق ولكنها تعذرت عليها معرفته بصوته ، فلما كان اليوم التالى عاد
اليها ليعرفها بنفسه . وقد كان ، فلم تمالك عندئذ ان اظهرت الدهش
من تغير حاله وانقلاب سحنته . وكان آنى قد أصدر منشورا يذّر
بعقوبة الاعدام فيه كل من اهتدى الى بما كرم ولم يقبض عليه ليسلمه
الى رجال الحكومة . ومع هذا فان راتوتى قد رضيت بهذا الخائن في
خدمتها غير مقدره لمخالفة ذلك الامر عاقبة . وليس غريبا ان لاتعبأ راتوتى
بالاوامر والمنشورات الرسمية لانها كانت بحاجة شديدة الى بما كرم ألد
خصوم رعمسيس ومينا سانس ركابه . وكان ذلك الخائن على ما أصابه

من العور ونزل به من المحن يجتهد في مجانبة الخدم، لان رذيلة الكبرياء في طبعه لم يقهرها وازع المصيبة، فاراد مغالبة سنة الدهر في الخلق بأن يكون يعد أقول نجمه كما كان في أيام عزه وبأسه. وكان ما امتلأ صدره به من الاحقاد والسخائم قد محا من قواده عاطفة الحب فلم يعد يفكر في نيفرت. وهو ان افسح صدره للاحقاد ولم يمت بها فما هو الا لتردد الامل بنفسه في انه سيقهر اعداءه ويدحر خصومه ويرام عداد الموتى، قبل أن يدهمه هادم اللذات ومفرق الجماعات.

كان بما كره وهذه حاله اطوع آلة في يد راتوتى لتحقيق امانها. ولقد وثقت من صدقه وأمانته لانه ما كاشفته بالمكيدة التي دبرتها وفوضت الى حذقه بل الى حقه اضرام النار بقصر الملك والفتك بمينا حتى برقت في عينه بوارق الارتياح للقيام باعبائها. وكان تحت نافذات حجرة الملك، وهي من سطح الارض باربعين قدما، دريزون مقاما على اطراف قوائم الخشب الحاملة للسقف. فوضع المتآمرون تحت هذا السقف مواد كثيرة قابلة للالتهاب وتلمس بما كره الثقوب المعدة لدخول المتآمرين منها ليشعلوا النار فاهتدى اليها بما احتدم في بصيرته من نار الحقد لا بما بقي في عينه الوحيدة من البصر.

وقد نفخت راتوتى في صفارتها النفخة الاولى فاندس بما كره في الداخل دون أن يمانه احد لأن الاحراس كان غلب عليهم النعاس، لما أقفد صوابهم من النيذ العتيق الذي قدمه الوالى وأنصاره اليهم. ثم أخذ يتسلق الجدران بالافاريز البارزة منها حتى بلغ الى ارتفاع قائمتين. وهناك

وجد سلما من الجبال المتينة قد ترك بمكانه عمدا بناء على خطة مرسومة
 من قبل ، فاستمسك به تقيه السقوط . وكانت حجرة الملك مضادة
 بالانوار الساطعة فشهد في مكانه ما كان يعمل فيها وسمع ما يقال .
 وكان مماراه جلوس الملك يطيل التأمل ويعمل الفكر وأمامه
 الوالى آتى ، وعلى مقربة من سريره مينا يهيء له لبسة المتفضل (١) ،
 وانه بعد هنيهة رفع رأسه ومد يده لآتى قائلا له بتغر باسم : اسمع لى
 يا ابن العم بأن يكون ختام هذا اليوم الجميل اعترافى بفضلك وشكرى
 مروءتك ، فقد الفيت فيك الصديق الحميم والخل الوفى والحافظ الأمين
 وان اعتقادى فيك لكذلك ، ولهذا لم احفل بماسمى الواشون والحساد
 به لدي في حقك . واعلم أنى من ابعث الناس عن اساءة الظن بالناس
 غير انى رأيت أمورا رابتنى كثيرا وقلق من اجلها خاطرى . رأيت أنى
 ظلمتك واجحفت بحقك ، فقد بلغ من سوء ظنى بك ما لا أجد معه
 مندوحة من الاعتذار اليك . انك صديقى وأنا صديقك ومن احب
 الامور الي أن تقف الامة المصرية على مبلغ ثقتى فيك واعتمادى عليك
 ولست أجد للدلالة على هذه الثقة ما هو ابلغ من دعوتك الى القيام على
 حراستى هذه الليلة فم انت على الاريكة بينا أرقد انا فى هذا السرير .
 فمد آتى يده لمصافحة الملك ، وكان بما كره على مقربة منهما يسمع
 كل ذلك ويراها فلم يتمالك من التبسم حينما شهد الوالى ممتع اللون بادية
 عليه علامات الاضطراب والوجل . أما رسميس فلم يشعر بهذا التغيير

الفتجائي لانه التفت الى مينا وقال له : هلم اليّ يا مينا لقد اختبرت قرينتك
 أيما اختبار ، فعلمت ما انطوى فؤادها عليه من الاسرار ، وتحققت انها
 تهواك ولا تحب في الدنيا سواك ، وانها قد أسلمت قيادها اليك تمام
 ثقها بك واعتمادها عليك . وشأنها في هذا شأن الاطفال الذين يأتون
 عفوا من الاعمال ما يفوقون به همه الرجال . وتذكر اني وعدتك يوما
 بهبات وعطايا جزيلة اذا اقامت قرينتك على عهد الوفاء لك في مدة
 غيبتك الطويلة . واذ لم تبق عندي خلجة شك في ذلك فسلي ما تمنى
 وهو يوجه في الحال الى بابك .

فجئنا مينا أمامه واخذ يقبل اطراف ثوبه ثم قال : لا استطيعك
 يا مولاي الا الاغضاء عن ذنبي ليخف عبء الموم عن قلبي ، وانت
 ادري بما هو هذا الذنب الذي ما تورطت فيه إلا لأن يد الخائن بما كره
 تطاوت الى نيفرت الطاهرة الذيل . وقد أيقنت الآن كما كنت أوقن
 من قبل ان هذه الزوجة الصالحة المقيمة على عهد الوفاء لم تمس في نفسها
 نحو ذلك العتل الذميمة غير الاشتمزاز والاحتقار كما تشتمز النفس لرؤية
 الخنفساء والصرار . قال الملك : ماذا اسمع ؟ لقد طرق اذني الآن أنين
 شك وعويل باك . ثم دنا من النافذة وأطل منها فلم ير احدا ، لأن
 بما كره الذي لم يكف عن النظر الى الملك ولا عن متابعة حركاته قد
 تمطى تحت الدرزبون فلم يره الملك لحلكة الظلام . ولقد عاد الى مكانه
 فقال مينا ، وكان لا يزال جاثيا على ركبتيه : اعف عني يا مولاي
 واصنع الصنع الجميل . اعد الى ثقك وسلمني زمام جياذك الصافنات

وفوض الى أمر المركبات . . انا لا أعيش الا بك ولا أنم بنير
 الاخلاص لك ، فاذا كان مولاي قد رأى في عبده كفاءة واستحقاقا فما
 الفضل في ذلك الا له وهو ملكي ومولاي وأبي . قال رعمسيس : قف
 ياميننا فلقد اجبت من قبل نداك وحققت رجالك ، ولا يأخذنك العجب
 اذا سبقتك الى تحقيق مرادك لاني مدين لك باشياء كثيرة لولاك لما
 حصلت عليها . ولك الآن أن محمد نيفرت حمدا جزيا لا فقد جاءت
 بالدليل على تقاينها في حبك ، وابسط أكف الدعاء الى الآلهة الذين
 يجلون عن الموت ولا يدركهم الفوت ، اعترافا بما وفقوني له في هذا
 اليوم الميمون من مقابلة خلين وفيين وزيادة اولادى في شخص
 الشاعر بنطاور .

ما أتم الملك هذه الكلمات حتى طرق الآذان الصغير الثالث
 منبعثا من سفارة راتوتى، مؤذنا بتنفيذ المكيدة، فما أن سمعه بعاصر
 حتى ألقى جذوة نار مشتملة من الفتحة المثقوبة تحت الدربزين ، ثم نهض
 لينصت الى حديث الملك ومينا غير مكترث بالخطر المحدق به . وكان
 آنى في خلال ذلك قد تقدم صوب الملك وقال له : ألتمس من مولاي
 العفو اذا اجترأت على الاستئذان منه بالانصراف . وانى لأشكر له
 التفاته السامى اذ عهد الى حراسة ذاته العلية في هذه الليلة ، غير انى
 أشعر باعياء في جسمى على أثر ما بذلت في الايام الاخيرة من جهود
 وعانيت من تعب . فان راق لمولاي أن يأذن لى ، وهو المرتجى والمأمول
 للنعم . . فقاطعه رعمسيس : سيبقى مينا طول ليله ساهرا ، أما أنت

فأذهب الى فراشك مطمئن البال ، واعلم انه ان ابقيتك هنا حتى الآن فما هو الالغبة منى في إظهار ثقتى بك . . . هلم الى الثياب يامينا . . ثم إن على لساني كلمة أحب الافضاء بها اليك . . اعلم أن الشباب يجذب الشباب كما يجذب المغناطيس الحديد . . فان بنت اقات اختارت لنفسها بعلا من ذوى الشهامة والروءة والفضل ، ألا وهو الكاهن الشاعر بنطاور الذى أفقذنى من أيدي الاعداء وخلصنى من الشرور . وقد روي عنه أنه ابن بستاني بيت سبتى ، ولكن أمينى أطلقنى على حقيقة أصله وسر مولده ، فأتأكد لى أن بنطاور انما هو ابن الموهار العريق الحسب الكريم المحتد ، وان ذلك الوغد الممقوت بماكر هو ابن البستاني ، وان عجوزا ساحرة تسكن على حفاف المقبرة بدلت احدهما من الآخر لغاية في نفسها وانها اعترفت بهذه الحقيقة ولم تجعدها . وهذا النبأ قد هس له وجهى وارتاح صدرى ، اذ لولا استكشاف ذلك السر لانتقمتم من ستخم إما باعدامها وإما بنفيها الى معادن الذهب فى بلاد الحبشة . . . بالله . . ما هذه الحوادث العجيبة والمصادفات الغريبة . . .

وهنا سمع دوي جسم ثقيل قد سقط وارتطم عند سقوطه بالارض فهرول الملك ومينا الى النافذة لاستطلاع الخبر فلم يستطيعا الوقوف عندهما لتصاعد الدخان الكثيف من تحتها ودخوله منها . فقال الملك : احضروا الخدم لاطفاء الحريق . قال مينا للوالى : عجل بالخروج وانج بحياتك ، أما أنا فسأبقى هنا حتى تنجلى الكارثة ويعود الاطمئنان . وما كاد أنى يسمع نصيحة مينا له بالنجاة حتى ولى الادبار كالأسير

الذى يطلق سراحه بعد طول الاعتقال . وكانت راتونى اشعلت النار
بداخل القصر وكسرت الأداة الحافظة للسلم فسقط تلك السقطة التى
ألت الروع فى القلوب . ورأى آتى ثيابها السابلة الى كاحل القدمين
وهي تطلب النجاة بعد فعلتها الشنماء فناداها باسمها وهو يركض خلفها
طالباً النجاة لنفسه ايضاً .

أما رعمسيس فظهر من الثبات والجلد ما استوجب العجب ،
لانه عاد الى حجرته رابط الجأش ساكن القلب ، ثم أطل من النافذة
ليفى على مبلغ الخطر فرأى اللهب مندلع اللسان من الجناح الايسر
فيصبع الفجر بلون يخيل للرأى معه انه فى رابعة النهار . أما جهة
الجنوب فكان السكون سائداً فيها ، فوجه ميناء نظره الى الدرزين
الذى نزل بماكر منه واختبر بقدمه متانته فتأكد له انه من المتانة
بمحيث يجعل جملة من الناس ، ثم التفت الى الجهة الاخرى فلم يسهه الا
ان صاح قائلاً : يا للخيانة ! ان هذا الحريق لم يقع اتفاقاً وانما هو نتيجة
تدبير سابق ، فانى ارى رجلاً يلقى جذوة نار مشتعلة ، فاسرع ميناً نحو
السريز فتناول قوس الملك ورماه منها بسهم فسقط صارخاً . ولقد
وجدت جثة ذلك المجرم بعد فأذا بها جثة نيمو الذى كان السهم اصماه
فى قلبه . وكان بذلك للمكان ليحاول اضرام النار بحجرة بنت انات
ومخدع الامير راميرى . وخرج ميناء من النافذة بعد ذلك ليقبس
ارتفاع الوثبة ، الا أن الدخان كان فى حجرة فرعون كالضباب المنتشر
وكانت أسنة اللهب تندلع قتلهم أخشاب السقف . واحسن الناس كلهم

هذا الحادث الرهيب فأخذ الجنود الذين يقودهم رشتا والد وردة
يصيحون : النار ! النار ! ليمت الداسسون والخنونة ؛ أنفذوا الملك ! فلما
سمعت وردة صياحهم أسرعت الى القصر لتخبر بنت انات بما وقع ،
وتحضرها على النجاة بنفسها . وكان الملك واقفا على الدربزون بجوار مينا
يصيح بالجند : ليذهب بعضكم الى القصر لا تقاذ ابنتي ويجتهد البعض
الآخر في منع سريان الحريق باخماد النار ، أما أنا فذهاب الى الجناح
القبلي لأرى ما حدث به .

ولكن جذوة النار التي ألقاها نيمو قبل أن يراش بسهم مينا
جاءت بالعرض المقصود من اشعال النار واحراق أخشاب السقوف
وتحريب القصر واهلاك سكانه . وكانت غمغمة أصوات العساكر تتمزج
بقرعة سقوط السقوف ودوي الطبول وصدى ابواق فتصدم السمع
جلبة يعجز قلم البليغ عن وصفها . وربط الامراء أطراف ثيابهم بعضها
ببعض ليتخذوا منها جبلا متينا يستعينون به على النزول من النافذة
وقد تمكنوا من ذلك بما لا يخطر بالبال من الجرأة والهمة . وكان
رعمسيس يشجعهم على التخلص دون أن يتحرك من موضعه التماس
النجاة لنفسه ، لان الدربزين المحيط بالقصر كان مقسما اقساما متساوية
يبعد كل قسم عن تاليه بستة أقدام وكان اللهب يمتد ويشتد استعارا
وينبعث منه الشرر فيساقط كالشهب عليه وعلى مينا .

فصاح رعمسيس : أحضروا القش واتخذوا منه كوما في هذا
المكان فلا مطمع في النجاة الا بالوثوب . وكان اللهب يخرج وقتئذ

من نافذات مخدعه ، ولا سبيل للوصول اليه ، غير ان رعمسيس ومينا لم يفقدا شيئا من الجلد والأناة وحضور الذهن ، فلما رأى مينا ان الاثني عشر أميرا ينزلون من النافذة بالحبل المتين المتخذ من الثياب المتصلة الاطراف بعضها ببعض صاح براميرى ، وقد تأهب للنزول ، أن يرفع الحبل وان يثبت بمكانه حتى يجيء اليه . فاطاع الامير أمره وقبل أن يعترض رعمسيس على مينا في فعله كان هذا قد وثب في الفضاء الذى بين أجزاء الدر بزون فارتعدت فرائص الملك والامراء واكبروا مجازفته الى هذا الحد بحياته . لانه لو كانت قدمه زلت في سئء لسقط كما سقط بما كر ومات شرميتة .

ويدنا كان الحضور يشهدون هذه المناظر المؤلمة المفجعة التى قوبلت فداحة الاخطار فيها بما يناسبها من الاقدام والثبات والاعتحام كانت النار تدمر السقوف وتلقى بها الى الحضيض فيسمع لها دوي يختلط بترنيمات المنشدين المقبلين من المعسكر البعيد . وأبلغ شراعو نيفرت نبأ الحريق فأسرعت الى مكان الحادث وجئت على ركبتيها تبتهل الى آلهة النجاة ان ينقذوا أهل القصر من مخالب الهلاك . وكانت ترى مينا واثبا من مكان الى مكان وترافقه في حركاته بفؤادها وسائر جوارحها وتعض على شفها لتكظم في نفسها احاسيس الخوف فلا ينهمل من عينها دمع ولا ينطلق لسانها بصياح . ولم تلبث الطمأنينة ان عاودتها حينما أيقنت أنه يؤدي الواجب عليه بشهامة الشجعان وثبات الابطال فعمل السرور في فؤادها محل الخوف والانزعاج .

ولما دنا مينا من راميرى ربط نفسه بطرف الجبل وأرشد الامير
الذى كان مستندا وعتد الى النافذة الى ما ينبغي أن يعمله ليرفمه ثم اجتاز
الطريق الذى وثب منه بحيلة ، فلما شهدت نيفرت ان الخطر محقق به
لم تملك أن كتمت انفاسها بيدها حتى لا ينبعث صياح من فيها ، ثم
أغمضت عينيها حتى لا ترى ما يزعج فؤادها وبروع قلبها ، وظلت
كذلك زمنا . فلما فتحت عينيها رأت أن مينا اجتاز بمون الآلهة الفضاء
الاول فالثاني فالثالث حيث أمسك رعمسيس به وأوقفه الى جانبه بمد
أن كاد يفلت من يديه . وهنا تناولوا الجبل وربطاه بطرف البرطوم
ربطامتين ثم رمى راميرى بالطرف الثانى ، واقتدى بمينا الذى كان
ملما بأساليب الرياضات البدنية فاجتاز الفضاء السابق بدرجاته الثلاث
ثم تلاه رعمسيس فينا الذى عاجلته نيفرت بمسح العرق المتصبيب من
فوديه وجبهته .

وما وطأت قدما رعمسيس الترى حتى هرول قاصدا حجرة بنت
انات فألقاها سالمة من أي عطب ولم يصبها أدنى أذى ، ولكن تجلى له
من الحزن الذى استولى عليها أن وردة التى أنقذتها من الخطر بانباها
اياها من النوم قد عادت الى القصر فأحاط بها اللهب ولم يعلم من أمرها
شىء بعد . وكان رشتا والدها انطلق مقتفيا أثرها ينزع شعر رأسه
لشدة وله وخوفه عليها واخذ يصيح صيحات الانزعاج فرآه الملك
وهو فى هذه الحال فعهده اليه قيادة الجنود الذين نيط بهم فتح ثغرة فى
الاسوار ليخرج منها من يستطيع النجاة . وكان بيده معول فلم يستطع

فتح النافذة بأول ضربة منه فاستجمع قواه وضرب ثانيا فإمى الا
 فترة من الزمن حتى انبعث منها دخان كثيف كالضباب وبدا منه
 رجل قد وهت قواه، وبين ذراعيه وردة مغميا عليها فأيقن أنها ابنته
 فاخطفها منه كما يخطف البازي باشقا وذهب بها الى حيث تستطيع
 استنشاق الهواء النقي الذي ينعش القلب ثم قبلها بين عينيها النامضتين
 وانحدرت دموعه لما أثارته حالتها في نفسه من الاشجان وجددت في
 مخيلته من ذكرى امرأته التي كان متدها في حبها، غير أن بنت انات
 فجأته وهو في هذه الحالة فلم تدع له فرصة الاستسلام للعزى على أمر
 مضى وانقضى حيث تسلمت منه وردة وذهبت بها فعاد رشتا لقيادة
 الجند المكلفين باخماد الحريق واتقاذ المنكوبين .

أما الرجل الذي برز من النافذة حاملا وردة بين ذراعيه فقد علم
 والدها حين رآه أنه الطيب نبسشت الذي كانت الاميرة بنت انات
 اتخذته طبيبا خاصا لها . وقد ظل في معيتها منذ التقت به في جبل سيناء
 واتفق له بعد أن تسلم رشتا ابنته منه أن سقط ثانيا في القاعة التي برز
 من نافذتها حاملا اياها . وكانت الريح شديدة الهبوب تزيد النار
 استعارا والدخان تكاثفا وتصاعدا الى عنان السماء وجدران القصر
 واركانه وسقوفه انهيارا وسقوطا . فلما رأى رشتا ان الخطر قد أحرق
 بمنقذ ابنته ارتكز على النافذة واتخذ وضعا خيف عليه فيه من الهلاك
 ومن ان يلحقه ما لحق الطيب فطلب رمسيس منه أن يعدل عن نيته
 وأن يترك نبسشت وشأنه . فأجابه : لا . لا . لا . يا مولاي ان علي لهذا

الرجل ديناً يجب الوفاء به ، انه أنقذ ابنتي من مخالب الموت مرتين فاذا
أنقذته الآن أبرأت ذمتي .

فاه رشتنا بهذه الكلمات واختفى في اللهب ثم لم يلبث أن برز منه بعد
دقائق حاملاً في ذراعيه الطيب الذي كانت النار تأكل ثيابه البيضاء .
وكان يتحسس النافذة ، فلما دنا منها رأى نفسه بأزاء مائة رجل تحت
قيادة بنطاور قد اقتحموا هذا التنور المتلظى سعيراً لانقاذ الطيب . فلما
رأى الشاعر أنه قد أغشى عليه وفقد الشعور بما حواليه اختطفه وناوله
لاقرب الجند اليه فألقاه هذا الى الذي بمد يده وهكذا . وبينما كان بنطاور
يمد يده الى رشتنا انقض السقف فأحاط والد وردة بشواظ من نار .
أما بنطاور فقد حمل نبسشت الى صيوانه وهو لا يزال مغمياً عليه
من شدة ما أصابه واستدعى الاطباء اليه للعناية بأمره وساعدهم على
اداء هذه المهمة . وكان في أثناء ذلك مضطرب البال متأثراً بالحوادث
الغريبة التي وقعت في ذلك اليوم الكاسف . وكان حينما همت راتوتي
بالصفير إيداناً باشعال النار في القصر بحضرة الكاهن الأعظم أميني
الذي أوقفه على سر أصله وما طرأ من الحوادث على أثر ولادته الى غير
هذا مما أيقن معه أنه لم يكن ابن ذلك البستاني وأنه ربي في الهيكل
اكراماً له بل أميراً من كبار الامراء . ومع هذا فانه لما استقر هذا
الخبر في ذهنه لم يحس في نفسه احساس سعادة جديدة ولم يوسوس في
صدره وسواس الكبرياء ولا غرور الارتفاع عن ذل التربة التي ولد
فيها الى عزة المجد المنتظر له . لانه ، منذ درج من عشه ، جبل على التماس

السعادة والشقاء لنفسه من نفسه لا من غيره .

ولما اندلع لسان اللهب واشتد زفير النار وارتفعت اصوات الاستغاثة بطلب النجدات ، هب من بين يدي الكاهن الأعظم لتلبية المستغيثين ، فرأى ابن راتوتي ذلك الشاب الذي عرف بالطيش والنزق . وكان قد أظهر في واقعة قادش من الشهامة والاقدام ما استحق عليه جميل الثناء ، فأراد المزيد منه باظهار براعته وشجاعته في هذا الخطب المدهم . ولكنه جازف بنفسه مع نفر من صحبه مجازفة الطائش الذي لا يحسب للعواقب حساباً فتوسط معهم النار فسقط فوقهم جدار كان مستعراً كله فاوردع موارد الموت وحرمت نيفرت بهذه النازلة لذة العيش مع أخيها .

أما وردة فكانت في أقرب صيوان الى القصر ، قد اسندت الاميرة رأسها الى صدرها وأخذت نيفرت تبذل صنوف العناية بها لافاقتها من غشيتها ، إذ كانت لا تكف عن ذلك جيدها بالأرواح العطرية حتى أفاقت شيئاً فشيئاً من غشيتها ، وعاد اليها الشعور فتمثلت لها حوادث اليوم الماضي في صورة انقبض لها صدرها وتذكرت اقتفاء أثر أبيها راكضة لأخبار أهل المعسكر بالطامة الكبرى والجائحة العظمى ، وكيف دخلت في الدهليز الموصل الى مقصورة الاميرة وكيف كسر والدها الابواب التي أحكمت راتوتي اغلاقها على بنت أنات حتى لا يكون لها سبيل الى النجاة وكيف أيقظتها من نومها وذهبت بها الى خارج القصر ؛ وشعرت بعد ذلك أنها نسيت

الخاتم الذي حفظته عن والدتها أثراً خالداً وطلسماً واقياً في خزانة
 بحجرتها الخاصة فأسرعت الفيضة اليها للبحث عن هذا الاثر النفيس .
 ولقد وجدته في الخزانة وأخفته في طيات ثيابها ثم حاولت العودة من
 الطريق الذي جاءت منه فوجدته مسدوداً بحاجز من اللهب والدخان .
 وقد وقع نظر الطيب بنسشت عليها وهي في هذا الموقف الحرج
 فانتزعها منه انتزاعاً . ولم تذكر من كل هذه الحوادث سوى أنها
 ابتسمت ابتسامة أرادت بها الاعتراف بصنيعة الطيب الذي أنقذها
 من براثن الموت ، ولكنها لم تلبث أن شعرت بحرارة قبلة أثرت في
 خدها كما تؤثر النار الشديدة في الشيء الناعم الرقيق فنار نائرها وبدت
 علامات الغضب على وجهها فلم تمالك بنت أنات أن قالت : ما أجمل
 هذه الفتاة ولا لوم على الطيب بنسشت إذا ذهب الى أنها من سلالة
 أسرة أجنبية شريفة ، فهل وقعت الانظار على يدين بلغتا من حسن
 الصورة وانتقال الاصابع ما بلغت يداها ؛ وهل مائل صفاء أديمها
 وشفافية بشرتها غير بلور فينيقيا ؟



الفصل التاسع عشر

--- حيث تسهل الامور ويباح المحظور ---

لما اتفقت راتوني الحيلة التي دبرتها ونالت منها مرادها وقضت
 بفتيتها هرولت مسرعة الى صيوانها ، حيث ازلت بالماء أثر الدخان الذي
 كسا بالسواد يديها ، الا انها لم تجده به ابنتها نيفرت التي كان صياح
 الطفل شر اعوقد ايقظها من النوم ، فوقفت لذلك فزعة حائرة في أمرها .
 وكان بعاصم ونيمو وعداها بان يواقياها على الفور بنتيجة المؤامرة
 وفعل الحريق فلم يأت منهما أحد يدشرى نيل المراد ونجاح التدابير .
 وكانت في خلال انتظارها الطويل تبعث القيم من آن الى آن في
 استطلاع اخبار آني فلم يمد في مرة واحدة مزودا من الاخبار بما يشفي
 غليلها ويظفي نار احقادها . وغاية ما هنالك انه اخبرها برويته المعجوز
 نبغت ملقاة على قارعة الطريق ، فاستمكن الانزعاج من نفسه ابجيت
 كاد يفضي بها الا الاغماء . وكان يزيد بها الحال كلما سمعت صياح مناد
 أو قرعة سقف هوى الى الارض بعد أن تأكلته النار او اذا خطف
 بصرها ضوء لامع . ومع هذا فانها ما سمعت دراكا دوي سقوط
 السقف حتى قالت : لا ريب في ان هذه الاخشاب المتساقطة قد
 اوردت صهري مينا موارد الهلاك ، ولولا انه مرق من طاعتنا لمرافقة
 دمسيس لما استعق هذا العذاب الاليم .

وبينما كانت نهباً لهذه الهواجس سمعت هتافاً عالياً وأناشيد
 جميلة تردد صداها الآفاق، فداخلها وهم أن الاتيويين يبايعون آنى
 ويعترفون به ملكاً على مصر. ونجس هذا الوهم في نظرها ساعتئذ
 فخيّل لها أن الوالى قد استولى على عرش الديار المصرية ووضع على
 مفرقه تاج الوجهين البحرى والقبلى. وزادت على ذلك أن تراءت لها
 نفسها جالسة الى جانبه، وقد أفرغت على قوامها ثوباً ثميناً. ثم عللت
 النفس بأن تصبح هى وابنتها نيفرت، وقد أيقنت أن ينادى فريسة
 الحريق، صاحبتي التصرف فى أملاكه الواسعة. ثم أطرقت رأسها
 كمن يفكر فى أمر ذى بال وقالت: أصبحت نيفرت اليوم من
 الايامي فلم لا تقترن بآنى؟ وهل لمثله أن يرفض الزواج باجمل امرأة
 فى الديار المصرية؟ أما أنا فسيكون لى كوالدة ملكة الديار المصرية من
 سمو المكانة وشرف الرتبة وسعة النفوذ ما أعلو به علواً كبيراً على
 اهل الدولة، حتى على بما كر نفسه الذى أصبحت لا أرى فيه الا
 آلة حقيرة أعبت بها كما اشتهى. ولا يبعد ان تؤول املاكه الواسعة
 وأمواله الوفيرة الى ولدى الذى لا بد أن يعينه آنى سائساً لركابه أو
 رئيساً لضباط المركبات الحربية.

وبينما كانت راتوتى تملل نفسها بهذه المنى اذا بالقيم مقبلاً عليها،
 وما أن صار منها على قيد خطوات حتى صاح قائلاً: مولائى! مولائى!
 ان الملك ومينا واقفان وسط النار على افريز ضيق من أفريز جدران
 القصر. ولن ينجوا من هذا الضيق الا بمعجزة الهية. ويقينى أن

الذين أشعلوا النار بالقصر طغمة من الاشرار . ولقد رأيت جنة بما كر
 فمرفته بخاتم أبيه وهو بأصبعه كما شهدت نيمو مصمى بسهم ريش به .
 فما سمعت راتوتى هذا القول حتى اعترافها ما يشبه الخيل اضطرأباً وحيرة
 ثم سألت القيم : وماذا حدث لآبناء الملك ؟ أجاب : الحمد للآلهة انهم
 نزلوا بجبل من ثياب وصلت أطرافها بعضها ببعض . وحينما برحت
 مكان الحادث كانوا جميعاً قد فازوا بالنجاة .

ما سمعت راتوتى هذا القول حتى تقطب جيذنها واكفهر وجهها
 وأمرت القيم بالعودة لاستجلاء حقيقة الخبر . وما مضى على انصرافه
 من حضرتها بضع دقائق حتى اظهرت الجزع وملت الاضطباو وخيل لها
 ان الدقيقة الواحدة منها ساعة طويلة . ثم انقضت الساعات فتضاعف
 جزعها وازداد بأسها وفزعها . ولبثت تساورها الهموم حتى اذا أشرفت
 الشمس وارتفع النهار عاد القيم كاسف البال مضطرب الفؤاد ممتقع لون
 الوجه مصاباً بمي عجزه عن الاعراب عن مراده ، فالتقى بنفسه على
 قدمي سيدته وقال متأملاً : لقد كانت ليلة شؤم ونحس هلمت لهول
 حوادثها النفس . . توكلنى يا مولاتى على الآلهة فيما نزل بك من
 الارزاء وليكن لك فى الآلهة ايزيس التى سقط ولدها جريحاً وهو
 يناضل عن ابيه ومملكه أسوة حسنة فى التعزى عن المصاب وصدق
 الاتكال على رب الارباب ، وليلهمك آمون اله طيبة القوي القهار الصبر
 الجميل على مصابك والقوة على احتمال رزتك . . ان ولدك الشريف
 فخر الشبان وموضوع الآمال فى الحال والاستقبال قد أودت بحياته

الغالية قطعة خشب كبيرة هوت عليه . وكانت راتوقى تصفى الى هذا القول دون أن تبدي حرا كما كأنها تمثال نحت في حجر أو صيغ من نحاس ، ولم تنهل من عينيها دموع الاسبى والحزن على فقد ابنها وظلت كذلك فترة من الزمن قالت بعدها : وماذا جرى لوعميسيس ؟ أجاب القيم : حمداً للآلهة فقد أمجوه من المعاطب . سألته : وآنى ؟ أجاب : احترق جسمه فصار قطعة فحم ولم يعرف الا بالتاج الذى كان يكال هامته .

هنا تولى راتوقى من الذهول ما كاد يفقدها الصواب ويسقطها في يدها جزعا من العاقبة والعقاب . ووقف القيم في مكانه كالمنزول به فزعا مما رآه ، فتراجع الى الوراها وحس كأن الدم قد جمد في عروقه حين رآها وقد شبكت أصابع يديها وارسلتهما في الفضاء بعد ذلك كمن يريد خصمه بمصارعة أو ملاكمة ، ثم قهقهت ضحكا كمن أصيب بجنة وبدا عليها بعد ذلك من العلامات والاشارات ما دل على ان سماعها قد ازعجها فسكتت مطرقة رأسها بحيث لم يقع نظرها على رئيس حراس الملك المعروف باسم (عين وأذن فرعون) وهو مقبل عليها في ثلة من ضباط الجند وبعض الكتبة . وقد بلغ من ذهولها وجودها انها لم تسمع صوته وهو يناديها ، بل لم ترفع رأسها الا حين نبها القيم بلسمه ذراعها فرفعتها في وضع تصنعت به أنها كانت في سبات عميق ، ثم التفت الى رئيس الحراس وسألته بصف وكبرياء : ما جاء بك الى صيوانى . أجاب : بالنيابة عن قاضى مدينة طيبة الاعظم ألقى القبض عليك

وأعلنك بالحضور الى مجلس العدل الاسمي لمحاكمتك بتهمة الخيانة
الموجهة اليك ، وهي اخراقتك قصر الملك للفتك به . قالت راتوتى وقد
لاحت على خديها آثار ابتسامة الازدراء والتحقير : اننى مستعدة لك
ومطبعة لامرك ، ثم أشارت الى كرسي رجت من الضابط ان يجلس
عليه ريثما تسوى شعرها وتلبس ثيابها ، فأبى رئيس الاحراس الجلوس
بل ظل واقفاً عند الباب ، بينما كانت راتوتى تضرع شعرها الابنوسى
اللون وتضع على مفرقها تاج الامارة ، وأخذت تبحث فى عتيدها بمد
ذلك عن قنينة صغيرة تحتوى خلاصة الجوز المقىء ، وهو سم قتال ابتاعته
منذ اشهر من الساحرة نيخت على يد القزم نيمو . فلما عثرت عليها طلبت
من احدى خادماتها مرآة ، فلما تناولتها منها جعلتها إزاء وجهها بحيث
لا يراه الضابط ثم شربت القنينة . فما استقر السم فى جوفها حتى
اضطربت اعضاؤها وخرت على الارض صعقا ، فأقبل الضابط نحوها
على عجل ، فلما وقع نظرها عليه قالت له : لقد فشلت فى تديرى فاخبر
الكاهن الاعظم بأنه سيصيبه من الفشل ما صابنى . ثم تقلبت يمنة ويسرة
ناطقة باسم نيفرت وفاضت روحها .

*
**

ان الذين سالمهم الايام من بنى الانسان وهادتهم صروف الزمان
وشربوا من كوثر السعادة والهناء ، يعلمون يقينا أن لا بد من كدرة
تشوب هذ الشراب العذب . ولكن ليس فى هذه الكدرة من ضرر
ولا ضير لأنها تنبه الانسان الى وجوب الاعتقاد بأن أسباب الفرح

والسرور لم تتوافر لأحد على وجه المعمور مهما تجاوز له الدهر وابتسم
له من السعادة الثغر .

فقد جاء موت راتوتى على ما بسطناه من الوجه المحزن نقطة
سوداء فى صحيفة هناء نيفرت ومينا ، ولكنه بث فى نفسيهما احساس
جديدة بالحب المتبادل بينهما على أشرف المبادئ وأقدسها وهو الزواج
فان نيفرت كانت تستعين بحبه لها على النسلى عن مصابها بموت والنتها
وأخبها ، وكان حبه له يزيح ما تراكم من الهموم فى نفسه لتبديد والنتها
المتوفاة ماله فى غيابه . وقد فهم وقتئذ أن سعادتهما باللقاء بعد طول
الفراق والتناهى لم تكن من بواعث تطامن قلوبهما وانسراح صدرهما
فحسب بل وسيلة أيضاً لأبانه ما هنالك من ضرورة قيامهما بعضهما
لبعض بواجب مقدس ألا وهو أن يطيب كلاهما الآخر بما يزيل عن
صدره صداً الا كدار ويزيح عنه الهموم وردىء الافكار .

أما رمسيس فإنه لم يبرح مكان الحريق الا بعد أن أصدر اوامره
بتقديم الضحايا وتقريب القرابين ورفع الاصوات بالدعاء شكراً للآلهة
على حمايتهم الباهرة ومساعدتهم الظاهرة . وقد كانت تلك المكيدة التى
أخفق آنى وراتوتى فيها سعياً سبباً لهو اجسه وبلباله فعدل عن مخالطة
رجال الدولة متوخياً العزلة وفضل الانزواء فى خيمة بسيطة أمر بضرب
أطنابها على غشيان القصر الباذخ الذى كان ابتناه آنى رافعاً أركانه على
أسس الدسائس والغش . ولبت فيها يقبس الحاضر بالغابر ويزن ما رآه
من خير الناس وشرهم ، بميزان الاعتبار والاستبصار ، فاستنتج من

هذه المقارنة أن الخير كان في كفة الرجحان فقال : ان الواجب عليه في هذه الحالة الشكر الالهة وبنى الانسان . ثم ناجى نفسه بقوله : لقد علمتني والدتي وأنا في نعومة الاظفار كيف يكون شكر المعروف ومقابلة الصنيعة . وقد لفت ابناً في هذه الدروس النافعة ونشأتهم التنشئة الصالحة على تلك المبادئ الشريفة وغرست في قلوبهم وألقيت في عقيدتهم أن نكران الجميل ليس في شيء من كرم النفس ولا مقتضى الاحسان والعدل .

وكان رعمسيس قد تجرد من ميول الشر التي لا يخلو منها فؤاد انسان فبعث في طلب كريمته وبنطاؤور فلما مثلا بين يديه رجا من الاميرة أن تسرد عليه بالتفصيل الوافي جميع الحوادث التي أفضت الى وثوق عرى الحب بينها والشاعر ، فأنشأت تقص عليه تلك الحوادث بالاسهاب ، فكان في سماعه لها يوافقها على سلوكها في بعض المواقف وينمي عليها تصرفها في البعض الآخر . ولكن علامات السرور كانت بادية على وجهه في الحالين فلم يسعه حين أشرفت على ختام حديثها الا أن أمسك بيد الشاعر ووضع فيها يده فابتنت انات التي أطرقت في الخال رأسها حتى لمست به صدره لشدة ما تولاهما من الفرح والدهش . ثم التفت الى بنطاؤور وقال له : لقد صرت منذ الآن بعضاً من كلنا وعضواً من اعضاء أسرنا . وعليك ان تبقى الى جانبي في أثناء انعقاد الجلسة التي ستعقد حافلة بالامراء الاسيويين للمذاكرة في شروط الصلح بين الامتين .

وفي خلال ذلك تشرف ابناؤ الملك بمقابلته وحظوا بمجميل رعايته
وشامل عنايته . وكانوا أقبلوا لتهمته بالنجاة من خطر دسائس آتني
ورأتوني، فعرفهم جميعاً بينطاؤور وكشف النطاء لهم عن سر أصله الحقيقي
معلنا عقد قرانه بشقيقتهم بنت انات . فوقف الامير راميري وأخذ
يهنيء بنطاؤور بأبلغ عبارات التهاني ، فسر الملك بقوله وعانقه عناقاً طويلاً
شاكراً له ما أبداه من الاقدام والشهامة في حادث الحريق . وكان
أفرغ عليه حلل الرجولة والبلوغ ^(١) على أثر واقعة قادش ، لما أظهره
فيها من الثبات والجلد . وقد عينه في هذه المرة رئيساً لفرقة الكهنة
المحاربين في المركبات وقلده وسام الاسد ^(٢) الذي لا يمنح الا
للمتفوقين في الثبات والاقدام في ميدان القتال . فلما رأى الامير ترادف
نعم الانعامات الابوية الملكية جثا على ركبتيه مثنياً على والده وشاكراً
فلاطفه الملك بامرار يده على شعره المسدول وقال : أ كافئك اليوم
اعترافاً بشهامتك وتنوبها بكفاءتك . وربما كان مقدوراً لك أن تلقي
بدل المكافأة العقاب الصارم لانك لم تخضع للنظام قط ولم تطع أوامر
رؤسائك ، وأنت عليم بأنه لا يعرف من الامر والنهي شيئاً من لم يتعلم
الامتثال قبلهما . ومن آيات ركوبك متن الشطط في مخالفة الاوامر
أن طردك الكاهن الاعظم لهيكل سيمى من مدرسته فجئت الى الشام
وانخرطت في سلك الجندية دون أمرى أو امر أحد القواد . نعم لست

(١) انظر صحيفة ٢١٧ من الجزء الاول من كتاب فتوح مصر للسيرى

(٢) انظر كتاب هارتمن

أنكر أنك رجل راشد بشجاعتك وحقك ولكنك ما برحت صبيبا
بعقلك ورأيك ، وهذا نقص في خلقك كان من أثره أن ألقى بك
مرتين في يد العدو فافتديتك مرتين اذ قايضت عليك في احدهما
بابنة ملك الدناثم مع أن بقاءها في حوزتي كان خير وسيلة لنيل بفتي
منه على أيسر وجه وحسم كل خلاف بيني وبينه ، ولكن سوء تصرفك
أدى بنا الى التفريط بمض الشيء في حقوق مصر . ولا تنس ان ابناء
الوطن الذي تقوم على تصريف شؤونه وسياسة اموره حكومة منظمة
متضامنون جميعاً في عمل ما يعود عليه بالمنفعة . واني لأشبههم ، وهم إزاء
الواجب ، بأسنان العجلتين المتعاشقتين في الناعورة اذا انكسر سن
أحدهما تعطلت هذه الاداة الرافعة وعجزت عن رفع المياه من النيل .
ما أتم رسمسيس حديثه حتى جاء المنادون يبشرون بان ملك الخيتاس
وحلفاءه الامراء ينتظرون وصوله الى المجلس ، فلبس أفخر ملايسه
وتزين بأجمل حلاه ومس أجود طيبه ووضع على رأسه تاج الوجهين
القبلي والبحري . ثم أقبل عليهم في المجلس يتقدمه رئيس التشريعات
وحملة الاشارات والكرام الكاتبون ، ويتلوه اشباله فقيادة الجيش
فالترجمون . وظل سائراً على هذا المثال حتى استوى على عرش الملك ،
فأشار اشارة خرت لها الامراء الاسيويون سجدا وقلباوا الارض بين
يديه . أما ملك الدناثم فلم يقتد بهم بل استقر في مكانه مكثفياً بأداء
السلام المعتاد ، فلما شهد رسمسيس ذلك احتدم غيظا وسأله بلسان
الترجمين أيعتقد أم لا أنه مغلوب على امره . فاجاب : لم احضر هنا

أسيراً حقيراً . وقد سألتنا أن نخر على الارض سجداً فرأيت أن سجود
الانسان للانسان لا يتفق مع ما ألقته من عادات بلادى ولا مع شهامة
الاحرار الذين يأبون السجود الا للآلهة . واذا كان مما ترامت اليه
آمالى أن أصير لك حليفاً فى السراء والضراء ، أفىروق لك أن يكون
حليفك ممن تجردوا عن حلية الشرف والوقار .

سمع رعمسيس منه هذا الكلام فاخذ يجيل نظره فى ملك الدنايم
الذى كانت تبدو آيات الشهامة وعزة النفس واضحة على وجهه . ثم
قال بصوت جهورى : انا لا أقبل المذاكرة فى شروط الصلح الا مع
خصوم يسجدون لتاج الوجهين القبلى والبحرى ، فاذا أقمت على
اصرارك ولم تعدل عن عنادك فلن تصيب نصيباً ما من فوائد الصلح
الذى سأبرمه مع حلفائك . فلم يتحرك الملك الاسيوى من مكانه بل قال :
جئت هنا للمفاوضة فى الصلح ولن أبذل كرامتى ثمنه له . أما جبهتى ذه
فلن تلمس الترى لانسان أو لتاج ، على ان لى عندك رجاء أيها الملك
الشريف الاصل الكريم المحتد ، فهل أنت محققه لى ؟ ان مينا سائس
ركابك قد بالغ فى الحفاوة بابنتى (برا كسيلا) وأكرم مثواها فى أسرها
فأردنا أن نشكر له هذا الجميل ، أفأذن لنا بعبور النيل لنؤدى له هذا
الدين فى صيوانه .

فأذن رعمسيس له بالانصراف ثم بدأت مذاكرات الصلح الذى
كان الكتبة المصريون والاسيويون قد وضعوا المهم من شروطه
وقواعده واتفقوا عليها قبلاً . وكان العمل بالمجلس لهذا السبب مقتصرأ

على مراجعة نسخ الشروط التي جرت المناقشة فيها وحصل الاتفاق عليها، وعلى تقرير النظر في نص النسخة النهائية للماهدة بمدينة رعمسيس المسماة (طانيس) والمعروفة عند الساميين المقيمين فيها باسم (زوان) . ولما تمت المذاكرات دعي الامراء الاسيويون الى مأدبة ملكية أدبت برسمهم فجلسوا الى موائد خاصة بهم ، إذ كانت التقاليد المصرية في ذلك الوقت تقضى بأن يكون الاجانب ، في أثناء تناولهم الطعام ، بمعزل عن غيرهم تقيية التلوث بالدنس في مجاورتهم أو الأكل معهم . وكانت تظهر على رعمسيس أمارات الامتعاض والاستياء في أثناء الوليمة ، إذ خشي أن يترتب على انصراف ملك الدنائم استئناف الحرب بعد زمن قصير . ولكنه مع هذا وبالرغم من إعجابه بشهامة هذا الامير الاجنبي وإبائه قد عقد النية على التصعب معه فيما أراداه عليه من الرضوخ لشوكته ، خيفة أن يجر التسامح الى اقتداء بقية الامراء به فكان لم يكن هناك صلح ولا اجتماع لتقرير سلم .

وكانت الشمس على وشك الغروب فاذا بمينا الذي أمر الملك له بالراحة والرياضة قد عاد والتمس المثول بين يديه ليرفع اليه أمراً خطيراً . فلما أذن له رعمسيس واستدناه منه أخذنا يتحادثان ملياً ، ثم قام الملك بغتة على أثر الحديث وقال مخاطباً بنت أنات : هذا اليوم الذي بدىء بالحوادث المروعة قدختم بالانباء السارة والبشائر ، فقد اتضح أن الغادة التي أنقذتك من مخالب الموت ، وكادت تلتهم النار جسمها اللطيف من أسرة عريقة في الحسب والنسب . فما طرق هذا القول سمع الامير

راميرى حتى صاح فير محتشم : أي نعم انها لمن أسرة ملكية راسخة
في الشرف، فنظر اليه والده نظرة مغضب وقال : خليك بابناء رعمسيس
ان يلزموا الصمت ما لم يدعوا الى الكلام . فلم يكن من الأمير ، وقد
ادرك زلته وتعرف خطأه ، الا أن أطرق رأسه خجلا ، وظل كذلك
بينما كان الملك يستأذن من ضيوفه في الغيبة عنهم هنيهة . ثم أشار الى
كريمته أن تفتي أثره فأجابته الى امره وكلمته مسارة في شأن ما .
فالتفت الى راميرى ، وبعد أن ظل قليلا في التفكير أمره بمرافقة أخته
بلا توان ولا تأخير .



الفصل المتهم للعشرين

— حيث تنفتح الكمام الورد فيشم أريجها من وفاقه السعد —

كان راميري، وبنت أنات منصرفه إلى إفاقة وردة من غشيتها، يسأل عن بعض أطباء المعسكر. فلما التقى بهم - ألهم أن يرافقه إلى صيوان اخته فأجابوه إلى طلبه وما وصلوا معه إليه حتى أخذ يرمى الغادة بنظرات تم على ما كان يخالجه من عواطف الرفق وأحاسيس المحبة لها، ولاحت على وجهه علامات الغبطة والابتهاج حينما تأكد له أنها لم تصب بجرح يخشى منه على حياتها. وقد أخذ منه الوجد عليها والشغف بها مأخذاً لم يسعه معه إلا أن تناول يدها اللطيفة ورفعها إلى شفته يلثمها بلهفة وشوق. ولعله تخيل أن لا رقيب عليه فمضى في تيار العواطف الغرامية وانقاد إلى الأحاسيس القلبية، إلا أن بنت أنات ما لاحت لها هذه الجذبات حتى أبعدته عنها بلطف الحيلة رغم ذهوله ولهاها ووجداً عليها. ولكنه استطاع بفضل مغالبتها لهذه الجذبات استحضار ذاكرته فابتهل إليها أن لا تمنعه منها ولا تدفعه عنها، ثم سارها بحقيقة أمره مع وردة منذ عرفها وأحبها وقال انه عقد النية على الاقتران بها، فأرعدت بنت أنات لسماع هذا الكلام ثم قالت: ان الابنة ورثت الدنس عن أبيها، وهي ما زالت ملوثة به ولن تبرأ منه إلا بتجشم مشاق الاسفار وقطع القياقي والقفار. فاعترض الامير بقوله: ان الشرف

عندنا معشر المصريين يتصل بالاعقاب من الارحام لا من الاصلاب .
وقد كانت زوجة الجندي الشجاع رشتا . . . فقاطعته بنت أنات : لقد
عرفني بنسشت بأمرها إذ قال لي انها احدى سبايا الحرب . ولا ريب
عندى في أنها كريمة الاعراق على ما يؤخذ من شرف صورتها وحسن
ملاعها . ولقد ورثت وردة عنها كل هذه المحاسن ، فما أجملها من غادة
تسبي النظر وتحير الفكر ! قال راميرى : ان لونها في صفائه لكالازهار
في حسن الازدهار . أجبلى النظر في محاسنها أيا شقيقتى فقد تحركت
من موضعها . . وردة افتحى عينيك . . وردة افتحى عينيك . . افتحيهما
ياريحانة قلبي وبهجة حياتي وسرورى من الناس جميعاً . . إنا إذا أشرقت
الشمس تقدم القرايين اليها ونضحى الضحايا ، فماذا نضحى ولى من
عينيك شمسان متى أشرقتا أرسلتنا الى فؤادى سهاماً حادة النصال ؟
فلما وقفت بنت أنات على ما به من العشق والهيام ابتسم ثغرها ،
ورجت منه أن يتعد قليلا عنها لانها كانت تنفوس بعناء . وفى الاثناء
جاء طبيب ليخبر الاميرة بانه هيا للمريضة حماماً ساخناً من النباتات
الطبية ، وانه قد آن وقت نقلها اليه . فدبرت الاميرة التدابير لحملها
اليه . وانها من ذلك لفى شغل شاغل وهم ناصب ، وإذا برسول من
عند الملك يدعوها اليه ، فاحمر وجهها من الخجل إذ كانت تعلم ما لاجله
طلبها ، فرجت من راميرى أن يغيب عنها ريثما تهلى بثياب الاعياد
وفوضت الى نيفرت العناية بوردة بالنيابة عنها . ثم تحولت نحو أخيها
وقالت له : ان نيفرت لعلى خلق كريم وخصال شماء . وتفويضى اليها هذه

المهمة الآن ، وهي بين السرور والهم والصحة والألم ، خير ما تسرى به عن قلبها الهموم . ولقد أجاز واندى لمينا أن يلجأ أياماً الى الراحة ، فأطلقت لنيفرت عنان الحرية وأعفيتها من كلفة المراسم والطقوس الرسمية ، لا سيما وقد أصبحت منذ الامس في شغل شاغل كما أصبحت أنت كذلك . ولا عجب ياراميرى إذا كنا الآن أشبه بطير (يننو) المقدس الذي يتهافت على النار في عين شمس فلا يحترق بها بل يصدر عنها أحلى رواء وأجلى مظهراً منه عند تهافته عليها . فانا بعد نجاحنا من نار الحريق وخلاصنا من الضيق قد رفرر السكون بأجنحته على رؤوسنا وبث الثقة في نفوسنا وبشرنا بالدخول في دور جديد من الهناء والسعادة . وما كاد راميرى يغادر الصيوان حتى سجدت بنت أنات أمام صورة جدة والديها وعكفت على الصلاة ، ثم أطلقت البخور من المجامر على مذبح الالهة هاتور التي كان لا يفارقها تماثيلها أين ذهبت فضوعت رائحتها المسكان . ثم أزينت بأجمل وأفخر ما عندها من الحلي والحلل وقلها يفيض فرحاً وابتهاجاً لقرب لقاءها بينظاور . وما أخذت زخرفها وأزينت حتى دخلت على نيفرت ورجت منها أن تتولى وردة بعنايتها في مدة غيابها . وعندما برح راميرى صيوان شقيقته رأى الاحراس يطاردون طفلاً كانت تفيض الدموع من عينيه . فعرف الامير انه النقاش شرعو الذي كان أول من قصد الى وردة وكشف لها القناع عن سر المؤامرة التي دبرها الوالى للفتك بالملك طمعاً في الجلوس على عرشه ، وتذكر أنه كان لمح على مقربة من القصر ساعة شبوب

النار فيه . وكان الحراس يدفعونه عن صيوان الاميرة فيحاول الدنو منه
فيزدادون ارتيابا بامرهم وخوفا من شره ، وانهم في معاملتهم اياه بهذه
القسوة لمذورون لان الالسنه لم تكن تلوك في هذه الآونه غير سيرة
أعداء الملك وتفنهم في أساليب تدبير الدسائس له للفتك به مرة أخرى .
وما وقع نظر راميرى على الطفل شيراعو حتى عجل باستخلاصه
من يد الحراس وأخذ يترفق به ويسأله عن أمره ، فسرد الغلام ما اتفق له
من الحوادث وكيف أنقذت المعجوز نيمخت الجندي رشتا وابنته وردة
لاخطار فرعون . بالخطر المحقق به والدسائس التي تدس في الظلام
له وكيف انطلق هذا الجندي بين صفوف الجند يوقظهم من نومهم
وينذرهم جميعا بالخطر المحقق بهم والذي جاء وقوعه على غير انتظار ، وأنه
لما لم يجد ملجأ يأوى اليه ولا حاميا يستظل بظله وبقيء الى كنفه أراد
أن يستنجد بوردة ، فلما سمع الامير منه هذا القول بعث به الى نيفرت
ورجا منها أن تأمر بعض الخدم بالقيام على شؤونه والعناية بامرهم .
وكانت وردة تقيق شيئا فشيئا من غشيتها على أثر نجاح الاطباء
في العناية بملاجها فتحلت بأحسن ملابسها وقصدت الى نيفرت ، فلما وقع
نظر مينا عليها ولم يكن رآها من قبل بهت لجمالها وخولط في أمره فلم
يسعه الا أن قال : عجبا لهذه الفتاة الفتانة ! انها لأشبه الناس بابنة ملك
الدنائم التي أنزلتها سرادقى ، ولا فرق بينهما الا أنها أصغر سنًا وأنصر شباها
وأوفر حسنا وبهجة . وكان شيراعو وقع نظره عليها فدنا منها ، فحدقت
فيه النظر ، الا أنها لم تفه بكلمة واحدة بالرغم مما بذل الاطباء من العناية

بها . وكانت الديموع تساقط على خديها فأبجتهت نيفرت اليها وقالت :
لست أنكر أنك فقدت في أيك ركنا من أركان الشهامة وعزة
النفس ، ولكن خسارتي كانت ضعف خسارتك . فقد فقدت والدي
وأخى في نفس اليوم الذي فقدت انت أباك . فنطقت وردة : ان رشتا
والدي كان على جفاء زيه وقبح شكله حميد الاخلاق كريم السجايا ،
ولهذا لن تمنعني ذكراه من ذاكرتي ما دمت على قيد الحياة . . ان
النارجيل خشن الملمس ، ولكنه يعطى الحاذق الذي يعرف كيف يزيل
غلافه شرابا لطيفاً سائفا وطعاما حسن المذاق . . وما كان والدي الا
كالنارجيل يحفل الانسان من منظره ويقبل عليه عند مخبره . ولقد مات
جميع أهلي وأصبحت بوفاته آخر من بقي منهم على ظهر الغبراء ، فأنا
اليوم أشبه ما اكون بورقة شجرة عبثت بها الرياح على ساحل
البحر قبل وصولنا الى هذا المكان ، ثم سقطت في الماء فتلاعبت بها
الامواج وأصبحت بمعزل عن سائر الاوراق .

ما وسع نيفرت عند ما سمعت هذا التشبيه الا أن قبلتها بين عينها
وقالت لها : ثقي بأن لك أصدقاء وصديقات لا يتركونك وحيدة
تعبت بك عواصف الدهر وصروف الزمان ، كما عبثت الرياح بتلك
الورقة . قالت وردة : اتقي مع وثوقى بهم ما زلت أشعر أنني وحيدة لا
انيس لى في هذا العالم . ولقد كنت بطيبة أفضى نهاري في رؤية الاوز
البرى طائراني الفضاء غدوا ورواحا فأميز بين السابقات منها
واللاحقات . وكنت لا أرى ان السابقات قد هجرتها اللاحقات لانها

تظل مرموقة منها من بعيد . غير انى رأيت لفيفاً من الصيادين جعلوا
اللاحقات مرمى أنظارهم فشتتوها في جميع الارحاء وبقيت واحدة منها
بأيديهم ، أفلا ترين ان هذه الاوزة جديرة بالشفقة وانى شبيهة بها من
كل الوجوه بعد اذ فقدت عشيرتى الاقربين ولم تعد عندى وسيلة
للإجتمع بهم ، وقد طال أمد الفراق .

قالت نيفرت وقد ظنت أنها تزيل عن قلبها صداً الهم : ولكن
أنسيت انك الآن فى كفالة أسرة اعرق اصلا واسمى شرفاً من اسرتك ؟
فاطرقت هذه الكلمات أذنى وردة حتى اضطربت شفتها ولمعت
عينها وقالت بصوت يدل على إباء وعزة نفس : انى فرع والذى وهى
رحمها الله من أصل عريق ومحمد كريم . أتدرين لم اقتحمت الاخطار
اذ ألقيت بنفسى فى النار . . لم أجازف بحياتى الثمينة الا للاحتفاظ بالاثر
النفيس الذى تركته لى ، وكنت وضعت مع ثياب الحفلات والاعیاد وقما
جاءنى الشقى نيمو وأخذنى بدنى حيلته الى خيمته . ولا يخطر ببالك
ان هذا الاثر مال دفعنى الجشع الى الحرص عليه ، اذ ما يلزم المرء لوقاية
حياته من الموت بالجوع ؟ ان هو الا كسرة خبز وقليل من التمر وجرعة
ماء نقي . . بل كان فص خاتم نقشت عليه كلمات لم أقف على سر
معناها . وكانت تحدثنى الآمال بأننى ربما وقفت بهذا الطلسم النفيس
النادر على حقيقة أصلى فذهبت آمالى أدراج الرياح ويثت من
الحصول على السعادة المتمناة وفقدت بضياعه كل أمل فى الاستقبال .
وأخذت وردة العبرة فأمسكت عن الكلام فماتتها نيفرت قائلة

يلهف : اذن ذهب الاثر النفيس فريسة النار . أجابت وردة : كلا بل انتشاته من الصندوق ، وكان لا يزال يبدى حينما تلقاني الطيب بنسشت في ذراعيه . ولما أنقذت من القصر وحملت الى سرادق بنت انات حضر الامير راميرى قترامى لعيني كما تراءى الاشباح في المنام . قالت نيفرت : لعله فقد منك وأنت في الطريق الى هنا . فأومأت وردة بايماءة للموافقة ، وكان شيراعو مضطجما على الارض يسمع الحديث ، فلما انتهت منه نيفرت ووردت نظر الى هذه الاخيرة بعين العطف ثم تسلل الى خارج الصيوان دون ان يشعر به احد .

كانت الساعات تنقضي ، ووردت مطرقة الى الارض برأسها كأنها تقال الخشوع والحياء ، ونيفرت ومينا صامتتين جالسين أحدهما الى جانب الاخرى يفكران فيمن التهمتهم النار . وكان السكون سائدا في السرادق فلم يسمع أحد به حسا ولا جرسا . ولم يكن في هذا المنظر الذي يقبض الصدور ويمحي آية السرور ما يستفز الى العجب ، فان سحب الهموم أو شكت ان تكدر صفاء الزوجين فالتزما جانب السكون الذي لولا ما تخلله من صوت الابواق وودق الطبول لخليل لناظرهما انهما في بطن الصحراء . وكانت هذه الاصوات التي ترددها الآفاق منبعثة من مكان استقبال الامراء الاسيويين في السرادق الكبير الذي أعد لرعمسيس . وكان هؤلاء الامراء مقبلين ساعتئذ على مكان انعقاد الجلسات وقيما كان ملك الدنائم خارجا منه بعد ان استأذن فرعون في الانصراف ليذهب في حاشيته الى قاعة الطعام ، فأمل فيما كان من

احتفاء رعمسيس به واعادته اليه ماسلبه من القابه ! كما نيفرت وجزاء لها على اخلاصها الولاء لزوجها . فأخذ يصفحها كمن يترجم بهذه الاشارات عما يخالجه من الشكر والامتنان .

وبينا هو في هذه الهواجس اذا مجلبة وضجيج ، فالتفت مينا نحو مدخل السرادق فاذا بضابط جاء ليخبره بقدم ملك الدنا ثم وكريته ، تحرسهما شزيمة من الجند الملوكي ، فأمر مينا بفتح ابواب السرادق وتقدم مع نيفرت لاستقبال الزائرين الكريمين اللذين لم تكن زيارتهما في الحسبان ، بينما كانت وردة تتراجع الى الخلف تتلمس ركنها لا يراها فيه أحد . وكان ملك الدنا ثم رجلا دب ديب الشيب في لحيته ورأسه ولاحت أسارير وجهه ولم تذهب بشيء من نضرة حياه وجمال ملامحه ، وكانت عيناه الزرقاوان تلمعان فتخطقان الابصار . وكانت ابنته تسير الى جانبه بخطوات لاتباريها في الاستقامة والاتساق الا التي تنظمها نقرات الآلات الموسيقية . وكانت ممنطقة بنطاق من المسجد المصنفي حول حلة ناصعة البياض أفرغت على قدها السهري ، وشعورها مرسله الى الكتفين كما كانت مكحلة الجبين بأكليل متقن الصياغة ، باسمة الثغر مستجمعة من محاسن الجمال ما يستهوى القلب ويأخذ باللب . وكان معهما مترجم لترجمة ما يدور من الحديث بينهما ومينا وقرينته ، ورجلان وامرأتان يحملون الهدايا النفيسة برسهما .

وقد بدأ الملك حديثه مع مينا منوها بكرم محتده وطيب عنصره وعزة نفسه وصدق شهامته ثم قال : لقد اتيقنا بدليل جديد على ان

ابناء الدولة المصرية صاحبة الشوكة والاعتدار يعرفون الامانة والاعتدال ويأتون المعروف والجميل ، غير انى اعترف لك بانك قد زدت في نظرى قدراً حين رأيت ان قربنتك لا تعدلها ابنتى حسنا وجمالا . قالت نيفرت وقد احمر وجهها حياء : ان حسن ظنك بى هو الذى وهبى نعمة الجمال الذى رأيت انه يفوق جمال بنت انات ، وما هو فى الحقيقة إلا دونه . وانى على كل حال التمس منها ومن مكارمك الصفع الجميل . فتقدمت براكسيلا ابنة ملك الدنايم نحو نيفرت وعرضت عليها ما جاءت به من الهدايا النفيسة وهى اكليل مرصع بالاحجار الكريمة ومشابك ذهب وعقود لؤلؤ ، وقدم الملك الى مينا درعاً دقيق الصنع ودرقة من الفضة جميلة النقوش ثم دخل الجميع السرادق لتناول الخبز والبيذ كالمادة المصرية بين الضيف والضائف .

وبينا مينا فى حديث الملك كانت براكسيلا تقص على نيفرت حديث آلامها وتشرح لها ما لقيته فى الاسر ، وكيف تنازل مينا لما وقف على حقيقة أمرها عن حصته فى الغنيمة وأكرم مثنواها فى سرادقه ، وأن أحد الرؤساء أراد ان يخص نفسه بها . ثم افاضت فى شرح حسن معاملته لها واشاره لياها بمنايته ورعايته . وكانت متهدجة الصوت لشدة ماعراها من التأثر ، حتى اشفق مترجم أقوالها وعطف عليها ولا سيما حين قالت : وقد اصيب خطيبي بجرح بالغ فاخذ من ميدان القتال محمولاً على الاعناق ، وقد من الله عليه بالشفاء وهو الآن بالانتظار حتى اذا عدت الى مسقط رأسى ارتبطنا بعروة الزواج التى

لا انفصام لها .

وسمع الملك هذه الكلمات فقال : يا حيدالو أسبغت الآلهة علينا
هذه النعمة فإن برا كسيلا آخر سلالتنا وعليها نعتمد في استبقاء ذريتنا
وتخليد ذكرانا . فقد فقدت في الحرب الاخيرة ابناى الاربعة الذين
كانوا في مقتبل العمر وصهرى الذى كان ابنه لا يزال طفلا رضيعا
وسقطت زوجتى سبية بأيدي المصريين منذ سنوات ، ولم يبق لى
سوى برا كسيلا التى هي أملى للمستقبل وعزائى للحاضر . وفيما هو
ماض فى حديثه انساب طفل صغير را كضا فى السراقى يصيح بملء
فيه : هاهو .. هاهو .. لقد عثرت عليه .

وكانت وردة خلف ستر مسدول بينهما الملك وابنته من جانب
ومينا وقرينته من الجانب الآخر ، فسمعت مادار من الحديث وأحست
فى نفسها جذبات تجذبها نحو ملك الدناتم وبراكسيلا التى كانت لا تنفك
عن النظر اليها والاعجاب بجمالها . وبث هذه العواطف فيها اعتقادها
أن والدتها ربما كانت من أفراد اسرة الملك فتقدمت اليه بقلب يخفق
وديباجة عليها علائم الحياء وعرضت عليه الخاتم فما كاد بصره يقع على
وردة حتى أخذته رجفة وتراجع الى الخلف باسطا اليها ذراعيه ، وصار
اشبه ما يكون بامرئ يتنازعه عاملان ، الحنان والذعر . فبينما تحمله
الجذبات القلبية على التماس من يوليه الحنان ليضمه الى صدره كان
يتراجع الى الخلف تأثراً بروعة منظره أو بأسا من لقائه ، فعدت واثابة
الزمان بتحقيق أمانيه المستحيلة من خوارق العادات أو الآيات

الباهرات . وما وسعه وقتئذ الا أن صاح : يا كزانت ايا كزانت ؟
أهبطت ثانيا من السموات العلى للبحث عنى والقرب منى ؟ وكانت
برا كسيلا تنظر الى والدها بعين يخامرها القذى ، اذ ظنت انه أصيب
بجذبة أو نزل به مكروه فصرخت صرخة عالية ونزعت عندها الثمين
من جيدها ، ثم ترامت على وردة فخطفت من يدها الفص المكسور
قائلة : ان معى نصفه الآخر ، ولقد كان لشقيقتى كزانت السيئه الحظ .
ان قلم البليغ ليعجز عن وصف ما ألم بالملك من الدهشة والذهول
حين طرقت مسامعه هذه الالفاظ ، وما عاجله من الجهد للتظاهر
بالسكون والاطمئنان ، وما أحسه من الجذبات الغريزية نحو وردة حبا
لها وعظفا عليها . ثم قارن بين شطاري العقده اللذين كانت وردة متحلية
الجيد باحدهما وبرا كسيلا بالآخر فأرعد دهشا وخولط ذهولا ،
وقارن بين نصفي الفص فبان له انهما يكملان بعضهما وانهما يمثلان
جناح نسر متصل بقطعة أشبه ما يكون بنصف الشكل البيضي نقشت
عليه حروف ورموز يجملها المصريون ، وان موضع التحام النصفين
يكون في حالة اتصالهما شكل النسر الملكي ناشر اذراعيه ومكتوبا
على صدره بأحرف يونانية هذا الكلام الذى يكاد يكون من الاحاجى
والمعميات « ليس نصف الواحد حليا ولكن اذا ضم الى نصفه الثانى
توافرت فيه مسرات زفس » .

وقد تأمل الملك قليلا فى ذلك الفص الذى كان صنعه برسم قرينته
وهي شقيقتها التى كان وإياها توأمين وتوفيت فى نضارة الشباب وإبان

العمر فأعطي نصف عقدها براكسيلا عملا بوصيتها قبل وفاتها والنصف الثاني لابنته كزانت ، يوم عرسها . وقد كفاء الوقوف على حقيقة العقد مؤونة البحث فيما اذا كانت الفتاة من سلالة ، فضمها الى صدره فلم نجفل منه وردة خوفا أو استنكارا بل تركت نفسها اليه اذ أحست كأن الدم الذي يجري في عروقها يسرى أيضا في عروقه . وبعد هنيهة أشار الملك الى المترجم ، فوقف أمامهما ليكون واسطة التفاهم بينهما فسألها أولا عن والدتها ، فأجابت بما لم يبق معه أثر للشك في انها كانت من السبايا اللاتي أخذن الى طيبة ثم اشتراها جندي مصري أحبها حباً جماً وأولدها هذه الفتاة الفتانة ، فلم يسهه الا أن عانقها مرة اخرى ودعاها : ابنتي ! ولدي ! فلذة كبدي ! وعهد الى براكسيلا العناية بها والقيام على شؤونها ثم أخذ يسرد الحوادث المحزنة التي تلت وقوع ابنته في أسر المصريين وكيف انه قضى زمنا طويلا في البحث عنها ووعد بالمكافأة من يأتيه باخبارها أو يرشده اليها ، وأنه كان اذا سأل المصريين عما اذا كانت ابنته خرساء أجاب نفيًا لانه لم يكن يدور بخلده ، وقد انقضى على سببها نحو العشرين عاما ، أن تحرمها المخاوف والآلام والشدائد نعمة النطق ، وانه لو كان يعلم ما آكل اليه أمرها لما انقضت تلك السنوات الطويلة دون أن يلتقي بها .

وكان وجه الملك يفيض ابتهاجا وسرورا . فظلت وردة تنظر اليه وتستشبهه ويدها في قبضة براكسيلا ، الا انها التفتت بعد الى المترجم وسألته أن يترجم لها بلغة الملك « أنا سعيدة جداً » فلما أجاب نظرت

إليه باسمه الثغر ونظقت الجملة بلفته ثم سأله أيضاً عن ترجمة « ان وردة
 تحبك من صميم فؤادها » فلما اوقفها عليها فاهت بها صحيحة اللمجة
 كما لو نشأت على التكلم بلغة الملك الذي لم يسهه الا أن ضمها الى صدره
 مرة اخرى . وكانت نيفرت في أثناء ذلك تذرف الدموع ارتياحا لهذا
 المنظر العجيب والاتفاق الغريب . فلما التفتت ووردة اليها وجهت نحوها
 وجهها وقالت لها : ان الأوزة المتروكة أدركت بقية الأوز والورقة
 التي كانت تتلاعب بها الرياح وتتقاذفها الامواج قد عادت الى غصنها
 من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء . فلتسعد من كانت وحيدة
 غريذة بما من الله عليها من نعمة الاجتماع بأهلها بعد اليأس من اللقاء .
 وقضى القوم بعد ذلك ساعة يتعجبون أطراف الحديث . وكانت
 ساعة هناء لا يشوبها كدر فأمر ملك الدناثم جماعته بالعودة ، الا ان
 مينا رجائنه الا تظناريثما يطلع فرعون على ما شهد من الحوادث ،
 لا سيما وأن وردة أصبحت عداد غاشية بنت انات التي عهدت الى
 نيفرت العناية بشؤونها والقيام على مصالحها ، ولم تأذن بتسليمها الى أحد
 الا باذن منها . وكان رعمسيس على مائدة الطعام فلما رفع مينا اليه حقيقة
 حالها وأيقن منها انها حفيذة ذلك الملك قام من فورهِ للاجتماع به . ثم
 التفت الى راميري وقال له : عليك باصلاح ما فرط من هفواتك بالاقتران
 بوردة فتربطنا بجمدها لحمه النسب وآصرة القرابة . فسكت راميري ثم
 يادر بلم يد ابيه وبدت على وجهه لوائح الابتهاج والسرور ورأى
 رعمسيس ذلك فقال له : بيدولي من حالك أنك سبقتنا الى تحقيق

قصدا ودبرت التدابير لذلك دون علمنا .

وظل القوم سائرين مهلا حتى بلغوا الى سراق مينا حيث كان ملك الدنأم وابنته وحشمه وغاشيته بالباب . فتقدم رعمسيس لمصاحته فلم يكن من الملك الا أن جثا على ركبتيه في الوضع الذي كان يرى ان فيه صناراله يوم دعاه رعمسيس اليه فأبى ثم قال : لا تجعلني عداد الملوك ولا تحسبني من الابطال ، بل والدأ حنوننا وابا رحيا يلتمس الصفح منك ويستمنحك الصلح ويستأذنيك في أخذ هذه الفتاة حفيدته الى بلاده . فما بلغت هذه الكلمات سمع رعمسيس حتى هرول نحو الملك فأنهضه وصافحه وقال له بلطف : لا ابلنك الا النصف من هذه الاماني فإنه لا أشهى الى نفسي بصفتي صاحب هذه الديار من ابرام الصلح معك على وجه ثابت جلي ، وبصفتي رب أسرة لا أرى في أمر حفيدتك وردة الا ما تراه ابنتي بنت انات التي تخذتها خلية لها تلازمها آناء الليل وأطراف النهار ، وبراہ كذلك راميري الذي أسرته في احدي الوقائع ، وما نراه جميعاً وهو اقتران ولدي هذا بها . قالت بنت انات : لقد سقط حقي على وردة في سبيل الامنية التي يتطلع راميري لتحقيقها . ثم سألت وردة : أيتها الفتاة أرضين بأخي بملاك ؟ .

فأحنت وردة رأسها علامة الرضى والقبول . ثم التفتت الى جدها وحدثت فيه بعينين أعربتا عما يكنه ضميرها . فقال جدها لراميري : اني أعرفك ايها الفتى الشجاع ، لانك شققت صفوف جيشي ونفذت فيها حتى صرت وياي وجها لوجه فضربك أحدهم بالسيف فهويت من

مر كبتك الى الارض . وقد رأيت منك تهوراً في البسالة والاقدام ، وهو
 عيب الزمان وحده كفيل باصلاحه . وأما أنت أيها المولى الكريم
 والفرعون العظيم فسأرفع اليك فكري حتى لا تخفى خافية عليك من
 أمري . لست أعارض في افتران الفتى بالفتاة ، لأنني ارجو أن يكون
 من وراء هذا القران دوام الصفاء والاتحاد وزوال الاحقاد والاضغان .
 غير أنني أستمعحك الاذن بأخذها الى بلادى وابقائها فيها عاماً واحداً
 لأشرف أذنى بسماع اللغة التي كانت والدتها تتكلم بها . وأرى ان هذا
 الالتماس ان يجد منكم اعراضاً ، لا سيما والوقت الملائم للافتران لم يحن
 بعد ، اذا راعينا الطقوس المتبعة في بلادنا حيث الفقيان والفتيات يبلغون
 الحلم متأخرين بالقياس على ما تقتضيه نواميس الطبيعة في بلادكم . ولا
 يذهب عليكم ان وردة من سلالة ملكية ، وهي هنا لا دار تأوى اليها
 لان راميرى عمر عيها في مساقط الفاقة ومهاوى الشقاء . والاولى أن
 يتم الزواج في بلادنا اذ في وقوعه هنا ما يدعو راميرى الى ان يتخيلها
 فتاة وضيعة انشلمها من وهدة الفقر ليرفعها الى ذروة السؤدد والمجد .
 قال فرعون : ما تقوله حق وعدل فنخذ حفيدتك مع العلم بأنها
 ابنتى وخطيبة ولدى . ثم أخذ بيد وردة وقال لها : اعلمى يا وردة ان
 الاجل المضروب لزواجك سيعلمك كيف يكون الصبر ويجعل راميرى
 كفواً لك بما يكسبه في هذه المدة من التجربة والخبرة . وأعلم يا اميرى
 انه بعد عام ستصل الى بيلوز سفينة فينيقية تقلك الى بلاد خطيبتك
 حيث تقام الحفلات احتفاء بزواجكما واكباراً لمقامكما . قال ملك

الدنائم : ليكن ذلك ، واني أقسم بزفس وهو قسم عظيم إن احنت فيه
 أمت شرميتة انى رضيت بابتة كريمتى كزانت قرينة راميرى .
 وما عاد راميرى الى سرادق اخوته حتى عانقهم واحداً واحداً
 سروراً بالاقتران بوردة وبتحقيق أمنية من أعظم الامانى التى تردد بها
 خاطره فى حياته الماضيه باعتبار انه فتى فى مستقبل العمر ينعمل قلبه
 بعوامل العشق . ثم أخذ يمازح قيم القصر الملكى ، وهو رجل قوست
 الشيخوخة ظهره . وتطرف فى المزح لشدة تأثير السرور فى نفسه فانتزع
 من رأسه الشعر المستعار ورمى به فى الفضاء . ولكنه استشعر غلظته
 وشططه فى الهزل فأعاد اليه الشعر وأظهر له أمارات الود والحب بما
 أزاح الضغف والبنضاء من القلب .



الفصل الحادى والعشرون

— موت رجل من أهل الشكوك وموت والده حميدة السلوك —

صحبت وردة جدها وخالتها براكسيلا الى السراقات المعدة لهم بالضفة الاخرى من فرع النيل ، على أن يعودوا فى اليوم التالى الى المعسكر المصرى . ولم تنس ما وصتها به نixت قبيل وقتها بساعات معدودة فأطلعت عليه بنت أنات . والتمست هذه من أيها ، وقد ثبت لها بالدليل المقنع بل بالحقيقة المحسوسة الملموسة ما كان للخدمات الجليلة التى أدتها للأسرة المالكة من الاثر النافع ، أن يحنط جثتها كما تحنط جثت نساء الاشراف فأجابها الى طلبها . ولما همت وردة بمزالة المكان دنا بنطاؤر منها وسألها أن تحقق لنبسشت الذى أنقذها من غائلة الموت ، وهو الآن على آخر رمق من الحياة ، ما يتمناه من مشاهدتها ، فاحمر وجه وردة خجلا وأجابت الطلب قائلة انها تعد نفسها سعيدة اذا أمكنها أن تخفف عنه وطأة الآلام . فانطلق بنطاؤر ليبشر الطبيب بتحقيق امينته ، وكان قد قضى عنده طول ليله للعناية به .

أما سبب اشرف نبسشت على الموت فهو انه أصيب بحمى شديدة من جراء الحروق البالغة التى انتابت رأسه . وقد تورم بتأثيرها خداء وانتفخت أوداجه ، وحرار الاطباء فى علاجه لا تتم لم يهتدوا الى سبيل فى شفائه ويئسوا من انقاذه . وابلغوا الى صديقه الشاعر انه لم يبق بينه

والموت سوى ساعات معدودة فوضع بنطاؤر كفه على جبهة صديقه
ليتحسس الحرارة فألقاها شديدة ، ولكنه أخذ يشجعه بعبارات الامل
فتبسم نبسشت تبسم الموقن بدنو أجله وقال بصوت خافت ، وهو
يشير باصبعه الى رأسه وقلبه : ليس لي سوى أنفاس معدودة لاحصل
على الراحة في هذا العالم والعالم الثاني . قال بنطاؤر : انا نسير بخطوات
واحدة ونطمح الى مثل أعلى جعلناه موضع أمانينا الا وهو الراحة .
فهل يبعد أن يكون هذا انسير الباعث الوحيد على عمل الانسان ونشاطه
في هذه الحياة ؟ واذ كان الآلهة يطوقون بالنعم أعناق العاملين المجدين ،
فلاريب في أنك ستنال اسنى العطايا واجزل الهبات جزاء عملك
المتواصل وهمتك التي لا تنى في البحث عن الحقيقة . وإذا كان عقل
يشري اندمج في روح هذا الكون وغاص بحار العلوم لاستطلاع
أسرارها ، فانما هو عقلك أيها الصديق الحميم . وإذا كان للعينين أن
تبصرا الربوبية الصحيحة من خلال السجوف الكثيفة الحائلة بيننا وسر
وجودها فما هما الا عينك ، وهما أولى العيون وأحقها بهذا الامتياز
الجميل .

قال نبسشت متنهداً : طالما تقبت عن هذه الحقيقة وكابدت في
سبيلها المصاعب واحتملت الضيم ، فلما كشفت النقاب عن جانب منها
مد الموت اليّ يده الباردة الثقيلة لينغمض بها عيني . ولست بعد هذا
أرى من فائدة في شهود الألوهية ولا في مشاطرتها الاحاطة بعلم
الحقائق الدنية والوقوف على الاسرار الكونية . لأن من وراء

البحث عن هذه الحقائق والاسرار لذة لا تعدلها لذة شهودها بأعيانها أو الاحاطة اتفاقاً بعلم ما لم يعلم من أطرافها. لهذا كنت ترانى أوتر أن تتجدد حياتى فى هذه الدنيا على الخلود فى الاخرى، ليتواصل تتمى بلذة البحث وحلاوة الاستكشاف التى تجعل الباحث ازاء نتائج بحثه كالمثل سروراً وفرحاً.

قال هذه الكلمات وسكت، لان قواه كانت تتلاشى بسرعة غريبة. فلما رأى بنطاور ذلك رجا منه أن يهدىء روعه وأن يستحضر فى ذهنه ما قضاه فى الحياة من سويعات الفرح والمسرّة. قال الطيب: تلك سويعات ما كان أحلاها، أذكر منها ساعة كانت تضمنى والدتى الى صدرها وتملأ جيبى بالتمر، وساعة خلوتى تفرغاً للعمل والتأمل والمشاهدة، وساعة كنت أسرح الطرف فى أرجاء عالم غير عالم المادة والفناء، وهو عالم الشعر الخالد والخيال. تلك الساعات لم أنسها ويا ليت مداها قد طال وما زال. قال بنطاور: أنسيت الساعات للمديدة العديدة التى قضيتها فى علاج المرضى وتخفيف آلامهم؟ طوبى لك وسلاماً عليك! فقد عشت ما عشت بيننا لم تمتد يدك بأذى لاحد من العباد، بل الكل يذكرون فضلك ويترنمون بذكرك من حاضر وباد. فهزّ نبسشت رأسه وقال بصوت خافت: ألم أكن سبب جنون المحنط بينم وموته! ..

ثم لبث تأمهاً فى بیداء الفكر والتأمل زمناً لمعت بعده عيناه وقال: ما قصدت هذا الشيخ بسوء قط وما كانت سريرتى بناقمة عليه، بل

كنت ارمى الى غاية محمودة وغرض شريف . ولكن الضرر الذي أدركه
 أتمر من المزايا والفوائد ما لم يكن في وسعي ادراكه لولا القيام بأعمالى
 فى بلدة ماجدو وبلاد الشام . فقد توصلت بذلك الضرر الى استكناه
 حقيقة المصو الذي يسدى الانسان نعمة الحياة العقلية ، وهو القلب .
 إذن ما هو القلب . ان لقلب الانسان وقلب الكبش وظائف متشابهة ،
 فكما أن الاول يزيد منه الخفقان بمؤثرات الخوف والاطمئنان ، كذلك
 الثانى يزداد منه الضربان متى أثر فيه هذان المؤثران . وسببه أن
 الحيوان كالانسان فى الشعور بالمؤثرات الطارئة من خوف وغير
 خوف . وغاية ما هنالك من الفرق أن الانسان خص بمزية العقل الذى
 يقدر بواسطته على مقارنة الاشياء بعضها ببعض والحكم عليها واستنتاج
 النتائج موافقة لما ترمى اليه مقدماتها ، والاعراب عن الضمير ، وابداء
 الآراء بالحكم المنطوقة ، الى غير هذا مما يدل على ان مركز العقل
 الذى هو الروح والحياة الحقيقية هنا ، بداخل الرأس خلف الجبهة .

ما كاد يصل الى هذا الحد من الكلام حتى استمكن منه الوهن
 فلزم الصمت وخيل للشاعر بنطاور أن هذيه فى هذه الساعة الحرجة
 والموقف الخطير نتيجة حمى أصابته ، فبادر بأعطائه شراباً ملطفاً بينا
 كان الطيبان اللذان يعالجهان يطوفان حوله داعيين له . وما استقر
 الشراب فى جوفه حتى انتمش وحاول النهوض من مضجعه ، فاعتنم
 بنطاور هذه الفرصة وسأله : ألا ترى أن أحسن تذكرك علق بذهنك فى
 حياتك مرأى تلك الفتاة الفتانة التى أتقذتها من الموت وضجيت فى

سبيلها حياتك . . تلك الفتاة الجميلة التي ذكرت لي ان مرآها الجميل
أيقظ في نفسك الشعور بحب الجمال والميل الى السكالم ؛ تلك الغادة
التي تستعبد القلوب والمهيج قد اهدت الى أهلها ، وهي بلقائهم الآن
مغتبطة . ولكنها لا تفتأ تذكرك وتشكر لك صنيعك معها ، وقد
آلت على نفسها أن لا تبرح هذه البلاد قبل أن تراك .

فتردد المريض هنيهة ثم قال ببطء : لم لا أراها ؟ عجل يا صديقي
باحضارها ولكن لا تدعها تدنو مني ، فاني أريد أن أراها من بعيد .
فخرج بنطاؤور ، ثم عاد ثانيا ومعه وردة التي وقفت بباب الخيمة
وخداها كجذوتي نار وعيناها مغرورقتان بالدموع . فأجال نبسشت
فيها النظر ساكتا باهتا ثم قال : اشكر لك يا وردة تفضلتك بزيارتني
وأرجو من الله أن يسمع عليك ثوب السعادة والهناء .

لم تما لك وردة عندئذ أن تقدمت قليلا نحوه ، ولكنه أشار اليها
بالتراجع مظهرأ لها يده الدامية وقد أحيطت بالاضمدة ثم قال : الزمي
مكانك ولا تقربني مني . . ماذا جرى لك . . أتبيكين . . ولم هذه
الدموع الغزيرة . . أترفين بحالي وتتوجعين لآلامي ؟ . قالت وردة :
انتي ارثي لحالك وأتوجع لمصائبك أيها الرجل الطيب الكريم . . ابكي
لأنني أشعر بالآلامك ، أنت يا من انقذ حياتي من الموت مرتين . وكان
الطيب قد أطبق جفنيه وهي تتكلم ، فلما أمسكت عن الكلام فتح
عينيه وأمعن فيها النظر ، شبه المعجب بجمالها الباهر . . قال لها
بصوت خافت : كفاني منك هذه النظرات قبل اللعات ، يا من تحلت

نفسها بأطهر الصفات ! .

فانصرفت وردة وأخذ بنطاؤور يرقب حركات صدر صديقه
ويقيس قوة تنفسه ، وانه كذلك اذا بالمرضى هب من رقدته وقال
لينطاؤور : استودعك الله يا صديقي . . انى لراجل ، وليس من يدري
أين أرحل . قال بنطاؤور : أنت لا ترحل ابدا الى فضاء العدم . فهز
نفسه رأسه وقال : كنت فى الدنيا شيئا فأصبحت ومصيرى حتما الى
شيء ، لان ما لا شيء لا يحدث عن شيء ، والعدم لا ينشأ عن الوجود .
ان الطبيعة قائمة على التدبير والحكمة فهى لا تدع شيئا يذهب عفا
وفناء ، بل هى تنتفع بالفتيل والقطمير كما تنتفع بالشيء الكبير ، وستنتفع
من جثتى بقدر حاجتها منه وتسير على قواعد ثابتة وأقدسة مبينة فى
ايصال كل شيء الى الغرض المرسوم له دنيا او أخرى ، ينتهى شيء
ولا يضيع شيء بل لا بد لكل شيء ان ينتج شيئا أو يستحيل الى شيء
مطابق لما قدر له أن يصير اليه . ولا دخل فى ذلك كله لارادة البشر . .
آه لقد ضاع رأسى وضل عقلى . . منذ أصبت بتلك الجراح الموجهة
لا أستطيع التفكير ولا الملاحظة ولا القياس ، فياليت لى قدرة على
اثبات النظريات العلمية أو استنباط القواعد الفنية أو الغوص على
الحقائق الخفية ولكن هي . . هيات . . هي . . هيات . .

هنا تلجج لسان المسكين وتعاجم عليه النطق ، وكان صوته بعد
صلصلة حلقه به يترامى الى الخفوت ، وانفاسه بعد شدتها تشرف على
الضعف والضيق ، واعضاء تشنج وحسرة الصدر يعاؤ زفيرها ، ثم لم

تكن الادقائق معدودة حتى فارق الحياة ، فأغمض بنطاؤور جفنيه .
وفيا هو خارج من الخيمة اذا بأميني مقبلا عليها معتقداً انه سيلتقي به
فيها لما يعلمه من استحكام عرى المودة بينهما ، فعاد بنطاؤور معه اليها . ولما
شهد الكاهن الاعظم الطيب مطروحاً على الارض جثة خامدة هامدة
اشتد حزنه وأسفه لفقده ، وبعد أن صلى عليه أشار الى بنطاؤور أن يتبعه .
وفي الطريق حادثه في أمور أراد ان يهيئه بها لاحتمال مباغتة لم تكن
لتخطر بباله .

وكان قضاة مدينة طيبة حكموا بالنفي على ستخم أم بعاكر الخائن (١)
ولكنهم أجازوا لها مقابلة رعمسيس بحراسة شرذمة من الجند لتلتمس
منه العفو ، فتظاهرت ستخم بالصبر على ما أصابها بخيانة ولدها ، ثم
أعدت معدات السفر لتلتمس العفو عن ابنها قبل ان تلتمسه لنفسها .
وكان الحكم عليها صدر في غيبة الكاهن الاعظم ، فلم ير فائدة لكتمان
السر الذي سارت نيخت به الوالى آنى وسمعه من وراء حجاب . أما ستخم
فكابدت في سفرها من المشاق والاهوال ما لا يطيقه الاحتمال كجنوح
سفينتها ، فلم تصل الى ييلوز لهذا السبب الا بعد حدوث الحريق المعلوم
وكانت شعبة النيل الموصلة الى هذه المدينة غاصة بسفن الملك والامراء
والسفراء والتجار والاعيان وافدين من جميع الانحاء . فوقفت سفينة

(١) في الجزء الثالث من تاريخ ديودورس الصقلي ان من العادات المتبعة في مصر سابقا
الحسك على أهل الخائن وأعضاء أسرته بالاشغال الشاقة في المناجم ولو لم يشتركوا معه في اثمه .
وفي احدى المعاهدات المبرمة بين رعمسيس والملك أرشيتا شرط مؤداه ان المتشرد الذى يؤتى
به الى مصر لا تطبق عليه عقوبة ولا يلحق بيئته ولا بوالديه ولا بأولاده أذى ولا يحكم
بالموت على والديه

ستختم بعيداً عنها، وبينما كان نبسشت يلفظ النفس الاخير تمكنت
ستختم بعد العناء من لقاء الكاهن الاعظم ومكاشفته بسبب حضورها
من طيبة .

وكانت سحنة ستختم قد تغيرت معالمها الى حد أن انكرها من
كانوا يعرفونها، لأن نكبات الزمان وتصاريف المدثان أذوت غصن
شبابها الانضر وأبيست عودها الاخضر وجعلتها في نقيض ما اشهرت
به أيام عزها السابق ومجدها الرفيع السامق . فانه بعد أن كان لسانها
ينطلق بالمطايبة والملاحظة تارة وطورا بتمحيض النصح أو اعطاء الرأي،
أصبح في سجن بابه شفتان متلاحتان لا تنفتحان أبدا الا اذا أذفت
ساعة الصلاة، فيتلغم ببعض كلمات تطلب فيها المغفرة لولدها بما كر .
وكانت على يقين من ان ولدها هذا سلك مسلك اللثام وارتكب الآثام
الفلاظ، وانه غير أهل للشفقة من الملك ولا من الامة والوطن . ولكنها
بما جبلت عليه من الرحمة كانت تعمل جهدها لدفع معرفة الخيانة عنه
واستصدار العفوله، فكانت تواصل الليل بالنهار في الشخوص بعينها
في مقره، ساكبة عليه عبراتها الغزيرة .

وقد رأت ستختم وهي على ظهر سفينتها ضوء النار المضطربة في
قصر الملك ووصل الى أذنيها صياح الجماهير وجلبة الجند والاحراس،
فأخبرها من كانوا على مقربة منها بأن قصر الوالي آنى التهمته النار
واستحال الى رماد، وان الملك رعمسيس على وشك الهلاك، وأن بعض
الخونة اللثام اضرموها نكابة فيه وذريعة لانتزاع صولجان الحكم من

يده . فلما كان الفجر تواردت الاخبار ببيان الحوادث فطرق سمعها
 اسما ابنها بما كر وأختها راتوني، فلم تفه بكلمة واحدة ولم تسأل سؤالا،
 بل صمت أذنيها عن سماع بقية الحوادث اكتفاء بما وقفت عليه منها
 وتأكدت لها مطابقتها لما كانت تنبأت به وأنذرت بوقوعه لما أعرض
 عنها وأنى العمل بنصائحها والاعتبار بمواعظها، مؤثرا الجروح في ميادين
 البغي والايغال في بيداء الوم والمضي مع نزغات الشيطان على الوجه الذي
 أفضى به الى ارتكاب جنائته، ورمى بها من بعده في مهاوى الحزن
 والخزي . وكانت اذا سمعت دعاء على الخائنين واستنزالا للعنات عليهم
 من الرائيين والغادين، دوت في أذنيها اصداء الدعوات واللعنات
 واستشعرت بصداع في الرأس وقشعريرة في الجسم وتجمد في الدم .
 وقد ظلت في الغداة طربحة الفراش لا تفوه بكلمة ولا تبدى حركة
 كالمنزول بها، ولم تذوق طعاما ولا شربا . ويئس قيم بيتها مما آلت اليه
 حالها فجدت في البحث عن أميني، وكان يومئذ في حضرة الملك رعمسيس
 فلم يستطع الوصول اليه الا في اليوم التالي لمحدثته في أمرها . وما أن
 قابله فيه وأطلعه على الواقع حتى هدا روعه ونفس من كربتته وصحبه في
 مركبته الى المرفأ، حيث كانت ترسو سفينة ستخم . وقد يادر بذلك
 ليهيء هذه المرأة المسكينة لما أراد أن يفجأها به من سر صلة بنطاور
 بها ومته اليها بجبل البنوة الصحيحة وتعريفها بحقيقة أمره، لتكمل لها
 السعادة وتنجو من المهواة التي اصبحت على وشك السقوط فيها من
 جراء ابنها خائن الملك والوطن . ولكن وصوله جاء بعد فوات الوقت

المناسب فإن المرأة المسكينة أصابها خبل ، فلما سمعته يتكلم أخذت تحديق فيه بعينها دون اصغاء الى ما يقول . وكل ما كان يبدر منها من حركة أو قول أنها كانت تقطع عليه الكلام بسؤالها : هل فعل ذلك حقيقة ؟ هل هو على قيد الحياة ؟ . . . وظلت تكرر هاتين الجملتين من غير أن تفهم معنى لكلامه ، حتى ينس من تفهيمها مراده . ولكنه استطاع مع ذلك أن يقنعها بمرافقته الى سرادقه الخاص الذي وعدّها بأن يقدم اليها ابنها فيه .

كان بنطاؤور كما ذكرنا صورة طبق الاصل لايه الموهار . وكان كل اعتماد أميني العارف بأحوال النفس وما يؤثر فيها من العوامل على هذه المشابهة الصادقة بين الموهار المتوفى وابنه الحقيقي ، لكي يردّها الى حظيرة العقل والصواب . فاستهل حديثه بأن سرد تاريخ استبدال بنطاؤور من بماكر وهما في الايام الاولى من عمرهما ، وما كان لنيخت الساحرة من الشأن في هذا العمل . ثم استرسل في تمجيد عبقرية الشاعر ووصف محاسنه جسما وعقلا ونفسا ، وذكر ما يجمعه بالموهار من صادق التشابه والمماثلة . وكانت ترمقه كما لو كان الكلام الذي يفوه به غير موجه اليها ولا هي مقصودة به ، ولكنها قالت حين أتى على آخره : نعم نعم ، أنت تريد بكلامك ذلك الشاعر الذي ألقى الخطبة البليغة يوم الاحتفال بعيد الوادي . . . اني أعرفه . . . اني أعرفه . . . ولكن أين بماكر ؟ فتركها السكاهن الاعظم ليحيء اليها بينطاؤور ويواجهها به . وجاء أن تهتدى الى الصواب بتعرفها عليه . فلما عاد لم يجدها لانها

كانت طلبت الى جاجابو أن يطلعها على جثة بما كر فتميز الكاهن
الاعظم غيظا ويئس من نجاح في سعيه . غير أنه دعا بنطاور الى اقتفاء
أثره عسى أن يدركاها قبل أن تبلغ الى مكان الجثة .

وكانت جثة بما كر ملقاة بخيمة أحد الجند ومنطاة الى مادون
الوجه بقطعة قاش . فلما وصلت ستخم اليها جثت على ركبتيها وأخذت
تحدق النظر فيها . وفجأها أميني وهي في هذا الوضع فصوت باسمها
فلم ترد عليه فأمسك بكتفها ثم أشار الى الجثة وقال : هذا الرجل الذي
تنظرين اليه بلهف وحنان لم يكن ابنك بل ابن بستاني وضع . أما
ابنك الحقيقي وارث زوجك . . الابن الذي انطوت عليه جواحك ثم
هبط من بينها فهو بنطاور ، هذا الذي جمع الآلهة فيه صفات ابيه
الجهمانية وشيمه الغراء ، فواجب عليك أن تسدلي ستار العفو عن بما كر
وتتبعي بنطاور هذا الحنان الذي تولينه جسما لم يشتق من جسمك ، لان
ابنك الحقيقي هو الشاعر البطل الذي أنقذ الملك من خطر الموت .

ما استقرت هذه العبارة في أذن ستخم حتى انتصبت قائمة
واخذت بيدي بنطاور وابتسمت في وجهه وقالت : هو . . هو . .
فليبارك فيه الآلهة . فلما هم بنطاور بعناقها دفعته عنها بعنف ، ثم التفتت
الى الجثة صائحة : بما كر . . مسكين يا بما كر ! فتأثر بنطاور من
هذا المنظر وتولاه منه يأس فقال : والدتي ! والدتي ! أما أن لك أن
تعرفي ابنك البار بك . فلما سمعت صوته أقبلت عليه ثانياً وأمعنت فيه
النظر وقالت : هذا صوته . . هو هو بذاته . . ثم تطامنت الى صدره

وأحاطت بذراعيها عنقه ووضعت شفتيها على ثغره وقالت : ليبارك
الآلهة فيك يا ولدي . ولكنها ما كادت **م** هذه الكلمات حتى انسأقت
بمغذبات خفية نحو جثة بعاكر واكثرت من البكاء والعيول ، كما لو
أنها جفت عليه . ثم ألقت بنفسها على هذه الجثة الخاملة الهامدة وقد
خفت صوتها وسكن جسمها حتى لم تبد منه حركة وخيل لناظرها أنها
مليت نعمة الحياة لولا أنفاسا ضعيفة يتعشرج بها صدرها بين حين
وحين . عندئذ نقلها الحاضرون الى السفينة وطرحوها على فراشها ، ثم
قدموا اليها شيئا من الطعام والشراب فألوت عنه وجهها وامسكت عن
الكلام الا عن قولها بين وقت وآخر : ما أشقى حظك يا بعاكر . .
مسكين يا بعاكر . . وظل بنطاور ملازما لها ، وهي على هذه الحال ، حتى
فارقت الحياة وهي تبغى اللقاء بهذا الابن الكاذب الغادر والبعد عن
ابنها الصادق البطل الشاعر .



الفصل الثاني والعشرون

— مسك الختام —

قوض المساكر الخيام وساروا في ظلال الاعلام يتقدمهم المليك
 الهمام ، حتى بلغوا الى طانيس المعروفة بمدينة رمسيس . وكان سكانها
 اليهود الذين فك عنهم آنى جميع القيود ، وأعفاهم من دفع الضرائب
 والرسوم ليستميلهم اليه ويتخدم آله طوع يديه ، هم الذين سخرهم
 رمسيس في تشييد الحصون الصعبة المرام والقصور المتسقة النظام . وفي
 تلك البلدة أبرمت معاهدة الصلح والامان بين (تارتيزبو) سفير ملك
 الخيتاس وقدمت الى اعتاب فرعون منقوشة في الواح فضة (١) .
 أما بنطاور فقد اجتمع بالملك بعد أن أدى الفروض الواجبة عليه
 لوالدته ستخم ، اذ سار بجثها الى عين شمس حيث عولجت بمواد
 التحنيط ثم قصد بها الى طيبة وقام على دفنها في مدفن الاجداد ، وأظهر
 في ذلك من فائق العناية وبالغ الاهتمام والرعاية مالا مطمع بعده لطامح .
 لان المصريين كانوا يرون ان من أقدم الواجبات عليهم أداء تلك
 الفرائض التى لا يجوز بدونها ان تسمو آمال الراغب فى الزواج الى

(١) مازالت معاهدة الصلح هذه منقوشة فى الجدار القبلى لهيكل الكرنك . وقد جاء فى
 السطر الرابع منها وصف اللوح الذى نقلت منه صورة المعاهدة والذى قدمه (تارتيزبو) سفير
 ملك الخيتاس ووزيره المفوض الى الملك رمسيس . ويؤخذ من هذا الوصف ان اللوح كان
 مستطيل الشكل وكان يلقى بحلقة مثبتة باعلام

الاقتران بمن يهواها . فلو ان بنطاؤر قصر في العناية بجثة والدته لما استطاع أن ينال بغيته من الاقتران بينت انات التي جمعت الى محاسنها الفتانة جميل الخصال وجميل الصفات .

عاد الشاعر الى طانيس ووافق يوم عودته الحادى والعشرين من شهر طيبى من السنة الحادية والعشرين من حكم رعمسيس . وهو اليوم الذى تم فيه التوقيع على معاهدة الصلح والامان ، الا أنه كان واجماً كثير الهموم ، لانه لما وصل الى طيبة وسأل عن البستاني ، الوالد الحقيقى لبعامر ، علم أنه انتقل الى الدار الآخرة فحزن عليه . لان الرجل كان يحبه ويرى انه ممن توافرت فيهم صفات الكمال بل انه ملك من ملائكة السماء هبط منها رسولا للخير ورائدا للسعادة والهناء .

وقد احتفل في طيبة ، عقب عودة الملك رعمسيس اليها ، بزفاف بنت انات الى بنطاؤر احتفال باهر زاهر فى قصر الفراعنة العظام ، وطابق هذا الاحتفال ختام الشهر السابع من وقوع حادث الحريق بيبولوز . وكان ما لقيه العروسان من المصائب الشديدة من البواعث على ارتباطهما بعروة الحب التى لا انفصام لها . وكانت بنت انات ، بالرغم من قوة بنطاؤر وعلو همته تحس انها اصبحت منبعثا لاشعة الامل ، وان ابتسامة نقرها تدعو الى الاطمئنان ، وان كلمة واحدة منها تجبر القلوب الكسيرة وتسهل الامور العسيرة . ولكنهما مع هذا كانت موقنة ان وجودها مع بنطاؤر هو الذى يحيا من صحيفة صدره سورة الحزن وشجعه على احتمال المصائب . وكان اغتباطهما بذلك مقترنا بجزمة

الفخر بأنها هي التي دخلت به في طور حياة جديدة فكانت له كالشمس
إذا اشرفت انبعثت أشعتها على ألوف الأزهار فتفتتح أكمها وتبهج
بازدهارها الانظار .

وكان الاثنان أيام اشتغالهما بمكافحة الصعوبات وتذليل العقبات ،
وشعورهما بالآلام الشديدة التي أعقبت خيبة الآمال يظنان كل الظن
ان لا تلاقيا . فلما اجتمعا وجاءت الامور بما يتجاوز المأمول ادركا قيمة
ما بينهما من الحب المتبادل ، وان ما يرميان اليه من المثل العليا ينحصر في
الشرف والخير ، وان لا سعادة لهما في الحياة الا بدركه والتخلي بحليته .
وكان بنطاؤور يطالع بنت انات بأمراره ويشركها في الصعب من
اعماله ، فتزداد روابط الحب بينهما وثوقا . وقد اسبغ رعمسيس عليه من النعم
والهبات ما رفعه الى اسمى الدرجات فتنازل عن نصيبه في الأثر لأخيه
هوروس واتخذ الملك هذا الشاب المقدم موهاراً لجيشه جزاء ما ابداه
من الاخلاص والبسالة يوم قادش . وكان مع عزة نفسه وكرم محتده
عيوفا متواضعا ، ولهذا استعاض من جذوع الأرز العالية التي كان
غرسها في باحة القصر لرفع الاعلام اعجابا وكبرا بادقال قصيرة ناط
باطرافها هذه الاعلام .

أما هوني المسكين الذي كان بنطاؤور انتحل اسمه للتمكن من
الوصول الى سيناء ، فقد أعيد من المناجم بمساعيه المشكورة وعرفانه
الجليل فانقلب الى اهله فرحا مسرورا بالتعطفات الملكية وفيوض المكارم
العلية . ولم يلبث الملك أن تأكدت له فضائل بنطاؤور فأولاه من العطف

مالم يوله أحدا الا كريمة بنت انات التي ظلت مقربة من والدها ، حتى بعد ان اضطرت السياسة الى الاقتران بابنة الملك (شيتا) . ولكي يقيم له الدليل على ذلك الميل اتخذ مشيرا خاصا يستضيء بمشكاة آرائه في عويصات المسائل ومعضلات المشاكل .

وقد عثروا في صيوان آني على وثائق ظهر منها بالدليل القاطع تواطؤه مع أميني وأغلب الكهان ، فانتوى رعمسيس معاقبة هؤلاء الخونة عقابا يكون عبرة زاجرة وعظة خالدة في الاعقاب . الا ان بنطاؤر وشاموس ألحا عليه أن يعدل عن الانتقام قائلين انه لا يليق بمقام الكرام ، وان بالعفو والاحسان يستقيم الملك وتتوطد منه الاركان . وكان رعمسيس أشد الناس تعلقا بالدين وتمسكا بسببه المتين ، لاعتقاده ان الايمان تعزية الفقراء والمساكين وسلاوان المظلومين والمنكوبين وركن البائسين ، بل انه الحافظ الامين للحياة البشرية والحامي لسعادة الشعوب والباعث في الوجود البشري ذلك الوجدان الذي يسيل الخير منه على جوانب الحياة فيخفف اعباءها ويصرف ضراءها ، وانه من هذه الوجهة أشبه ما يكون بالمدرسة التي يتعلم فيها الاطفال فروض الامتثال . ولكنه اجتنب مع الكهان ما يفضي بهم الى احتقار القوانين السنونة لتدبير شؤون الامة ، لانهم وان يكونوا الامناء على ارواح العباد فليس في وسعهم على جلال قدرهم وارتفاع منزلتهم وخطورة مهمتهم أن يعارضوا الارادة الملكية بالانحراف عن جادة القواعد الموضوعة لتصرف أمور الجمهور .

ولقد قال لامبني والكهان الذين التقوا به في طانيس انه لا يتنازل
عن شيء من حقوقه ، وان له وحده حق التصرف في شؤون مصر بلا
منازع ولا شريك .

ولم يكن للاله سبتي صاحب المكانة العليا عند الساميين منذ عهد
الهكسوس ، اذ كانوا يعبدونه باسم الاله (بعل) ، هيكل مشيدا على
ضفاف النيل . فقد كان المصريون يعتبرونه من المعبودات الاجنبية التي
لا يقيم لها عندهم وزن ، فأمر رمسيس بإنشاء هيكل فخم له في طانيس
ليتعبده فيه المهاجرون الاجانب . وكان انشاؤه بالرغم من احتجاج
الكهان على الملك باسم الدفاع عن التقاليد القديمة . وكان الحزب الذي
تألف من هؤلاء المعارضين يسمى بحزب (المؤمنين الصادقين) . وكان
رمسيس حريصاً على شرف آلهة الوطن بدليل ما بذله من المال في رفع
بيوت العبادة ، الا انه كان مفطوراً على التسامح والتساهل في أمور
الدين ، وهو شأن كل ملك عاقل يريد أن يؤلف حوله القلوب . ولم يشأ
ان يعارض المذاهب والاديان الاخرى فلم يدع مدينة كبيرة في انحاء
المملكة الا وأقام فيها الهياكل الجديدة ، ثم وسع هيكل فتاح في منفيس
وشاد تمثالين جسيمين أمام مدخله تخليداً لذكرى نجاحاته من المكيدة
التي دبرت له ليلة الحريق ، وأنشأ في مقبرة طيبة بناية وطيدة الاركان
تخليداً لذكرى الساعة التي نجح فيها . ولا يزال السياح يعجبون بها
ويبهتهم ما يرونه من حسن نظامها وجمال تنسيقها . وقد نقش في أعمدها
بالكلمات البارزة ما يتضمن شرح واقعة قادش كما نقش في جدران قاعة

الطعام بها تاريخ الخطر الذي انتذته منه أيدي الآلهة .

وكان بنطاؤور قد نقح القصيدة التي نظمها وألقاها ارتجالاً على مسامع رعمسيس في ليلة الوليمة ببيلوز ، فأمر بنقشها في جدران ثلاثة هياكل وتدوينها في كثير من أوراق البردى ، وبذا تمكن علماء الآثار من استكمال أبياتها . ولم يبق كبير ولا صغير من الأهل إلا وحفظها عن ظهر قلب للتغنى بها كنشيد وطني في المناسبات الحماسية .

وعهد الملك إلى بنطاؤور بعد ذلك انشاء مدرسة جديدة للكهان من طراز مدرسة بيت سيتي وهيكل آخر سمي بيت رعمسيس ، وهو الذي نذر بناءه من قبل فوفى بالنذر . ثم قرر اصلاح الهيئة الكهنوتية على وجه يصد به الكهان عما اعتادوه من الاستئثار بالسلطة والتحكم في العقائد فذهبت بهم إلى الاعتقاد بأن لا سيطرة إلا لهم ، ويعلمهم الخضوع للملك وأن هذا الخضوع لا يحط من هيبتهم ووقارهم . وعين بنطاؤور رئيساً للمدرسة الجديدة فأنشأ بها داراً للكتب لم ينشأ بمصر دار مثلها وسماها (دار صحة النفس) وسارت المدرسة في طريق التقدم والنجاح حتى أصبحت مجعماً للعلماء ومحطاً لرجال الطلاب والفضلاء الوافدين عليها من جميع الأنحاء والأرجاء .

وقد انشئت على مثالها مدرسة الاسكندرية ونبغ منها مشاهير الفلاسفة والحكماء والادباء والشعراء وغيرهم ممن أحيوا ذكرها ووصلت كتاباتهم ومنشآتهم إلينا ، ومن أهمها الأناشيد التي نظمها (أنا) رفيق بنطاؤور في عهد التلمذة ورواية الأخوين التي ديجها يراع (جاجابو) .

هذا ولم يستطع الكاهن الاعظم الاقامة في طيبة ، لأن رعمسيس وقف على سر مسألة قلب الحمل وعلم كيف استغلها أميني لدس الدسائس ضده اعتمادا على ما له من النفوذ ولاستماله قلوب العامة من الجهلاء اليه بامثال تلك الخرافات الباطلة ، فاجابه الى طلبه بان يقيم في بلدة منديس من بلدان الوجه البحري المعروفة ببلدة الحملان المقدسة . ولم يصادره في ألقابه ووظائفه السامية وايراداته الواسعة ، بل اقتصر في نكايته على كلمة قالها فيه ليتناقلها الخلف عن السلف ولتبقى وصمة في تاريخ حياته الى الالعقاب وهي : « ان أميني كان في حاجة الى قضاء حياته مع الحيوانات المقدسة » . على ان هذا التلويح لم يمنع الكاهن الاعظم من السير بين مروؤوسيه بالشددة والهمة اللتين عرف بهما في طيبة ، فأصبحت منزلته هناك كما كانت هنا من الاحترام ، ولبت بنطاؤور يواصله برسائل المودة الى أن جاءها اليقين .

وكان أكبر تمثال من تماثيل القطر المصري قائما بشكله المهييب في وسط الفناء الاول من بيت رعمسيس الذي سبقت الاشارة اليه . وقد كسر من وسطه بتوالي الدهور عليه ، ولكنه ما برح موضع اعجاب السياح الذين يقصدون اليه لمشاهدته . وقد صنع من الحجر الصلد ممثلا صورة رعمسيس الاكبر ، صنعه في رعاية الشاعر بنطاؤور (شيراعو) الذي رأيناه في منارة المعجوز نيخت يصنع تمثالا من الطين للوالى آنى ، ثم حذق صناعته ومهر فيها مع الزمن فنحت ذلك التمثال الذي كان يفتخر به ويعتبره احسن واتقن ما قام بعمله من التماثيل الكثيرة التي نحتت

لتخليد ذكرى ذلك الملك الجليل .

وبعد حريق القصر بعام ابجر الامير راميرى قاصدا الى بلاد
 (الدنايد) حيث اقيمت الافراح احتفاء بمقدمه وسرورا باقترانه بوردة
 حفيذة ملك هذه البلاد . وقد أقام بها حتى توفي هذا الملك فأل الملك
 اليه وصار بذلك رأس أسرة ملكية جديدة فيها ، ولبت اسم وردة
 معطرا في أفواه شعبها الذي اخلص لها ولقرينها الولاء . وهي حقيقة
 بهذا الاخلاص لانها ذقت مرارة الفقر وصاب الذل والفاقة فكانت
 ادري من غيرها بتخفيف الآلام عن المنكوبين وإغداق الاحسان
 على المحتاجين . وكانت في إيتاء المعروف بين الناس كالورد اذا توضع
 ربحه ترادف على الالسنه مديحه

توضع مسكا بطن نمان اذ بدت

به (وردة) في سوسن وقطاف



فهرست

— الجزء الثاني من رواية وردة —

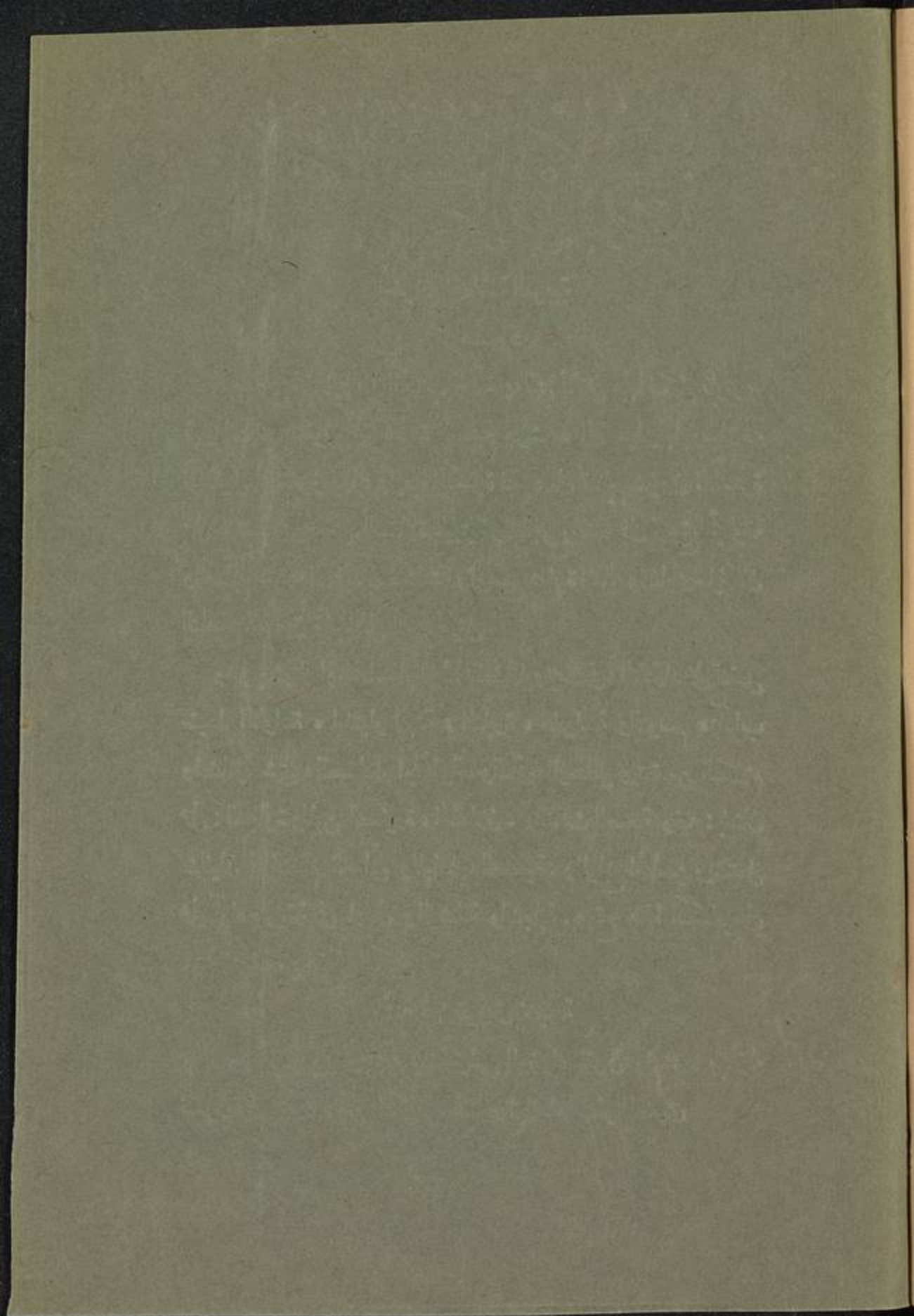
صحيفة

- ١ الفصل الاول : مكاييد ومصائد
- ٢٥ الفصل الثاني : كيف كان الاله يعبر النيبال في عهد رعمسيس الجليل
- ٤١ الفصل الثالث : وقائع أميرتين وشاب اقتحم الاموال فصار من
الابطال
- ٦٧ الفصل الرابع : ولية في هيكل والكهان بين المشرب والمأكل
- ٩١ الفصل الخامس : بيكي احدى حسان طيبة الفاتنات وليلة التجليات
- ١٢٠ الفصل السادس : تدريب الامراء على الاعمال ليكونوا للغير خير مثال
- ١٣٧ الفصل السابع : تأمر العواطف على الحب وتأثيرها في القلب
- ١٤٥ الفصل الثامن : ما حدث أثناء الوداع من مظاهر الوجد والالتئاع
- ١٧٠ الفصل التاسع : قفار موحشة خطيرة وقلوب حزينة كسيرة
- ١٩٤ الفصل العاشر : اين يلتقى المرء بربه ويتوجه اليه بكل قلبه
- ٢٠٢ الفصل الحادى عشر : الرحلة من سيناء الى لبنان وما وقع فيها
من غرائب الحدثان
- ٢٢٠ الفصل الثانى عشر : بداية الحوادث وفاتحة الكوارث
- ٢٣٣ الفصل الثالث عشر : ليلة تقلد السلاح والاستعداد للكفاح
- ٢٥١ الفصل الرابع عشر : ذل الانكسار وعز الانتصار
- ٢٦٨ الفصل الخامس عشر : ملتقى الابطال والخوانة الاندال

- ٢٨١ الفصل السادس عشر : المأدبة الملكية لتنفيذ المؤامرة السياسية
 ٢٩٤ الفصل السابع عشر : ما يدبر في الظلام من الجرائم والآثام
 ٣٠٤ الفصل الثامن عشر : النار ! النار ! وما وقع بالقصر من الدمار
 ٣١٩ الفصل التاسع عشر : حيث تسهل الامور ويباح المحظور
 ٣٣١ الفصل المتعمم للعشرين : حيث تفتح أحكام الورد فيشم أريجهم من
 واقاه السعد
 ٣٤٧ الفصل الحادي والعشرون : موت رجل من أهل الشكوك وموت
 والدة حميدة السلوك
 ٣٥٩ الفصل الثاني والعشرون : مسك الختام

فهرست الخطا والصواب

صواب	خطأ	صحيفة سطر	صواب	خطأ	صحيفة سطر
بخدمه	خدمه	١٠ ١٩١	عليه	عیه	٤ ٤
بنت	بنت انات	٥ ١٩٣	يرتدون	ترتدون	٦ ١١
تثبت	تثبت	١٣ ٢٠٥	الصبر	الصهبر	١١ ٢٧
الجلبة	الجلبة	١٦ ١٣٤	يساور	يشاور	١٦ ٤٩
حتى	حتى	٧ ٢٥٦	منها	منه	١١ ٩١
أبين	أبين	١٩ ٢٥٦	صفاقة	صفاقة	١٤ ٩١
باعث	باعث	١١ ٢٦٩	ويلقوا	ويلقون	١٣ ٩٥
الشمس	الشمس	٥ ٢٨١	فيدا	فبدأ	١٢ ١٠٢
وانتشر	وانتشر	٧ ٢٩٥	الاطباق	الطبقات	٢ ١٢٦
نوبه	نوبه	٩ ٣٠٨	لا ارتاب	الا ارتاب	٩ ١٢٩
قتلتهم	قتلتهم	٢٠ ٣١١	رآك	ارآك	١٤ ١٤٧
بجيت	بجيت	١٤ ٣١٩	أخذ	احدا	٧ ١٥٧
تعبت	تعبت	١٦ ٣٣٥	فيأون	فيأوا	١٦ ١٧٨
احفت	احفت	١ ٣٤٦	سثموا	وسثموا	١٠ ١٨٠
			وتصفحتهم	وتصفحتهم	٦ ١٨٣



مُعَارِجُ الْفَلَاحِ

أخرجه الى اللغة العربية

محمد مسعود

معارج الفلاح من الكتب العصرية التي لاغنى عنها لكل قارىء. فهو للطالب المقبل على الحياة العملية مرشده الى ميادينها وسلاحه الكفيل له بالفوز فيها، ولرب الاسرة قائده الى تنظيم شؤون الاسرة على ما يتحقق به معنى السعادة البيئية وللتاجر رائده الى ترويج تجارته وللصانع هاديه الى اتقان صناعته وتوسيع دائرة اعماله وللقارىء ايا كان الناصح الأمين والجلس الذي لا يمل

وهو يحتوى اربعة اقسام اولها الفضائل ويبحث في: الاعتماد على النفس ضبط الارادة، اختيار المهنة، المثابرة، الفراسة والتوسم، آداب وفضائل شتى، الصفات الجمالية. والثاني الوسائل ويتضمن الكلام على: التجارة والمهن الصغيرة، الاعلان. والثالث الصحة وفيه: بحثان ضافيان في النظام الغذائى والمبادئ الصحية. والرابع المحاسن ويشتمل على آراء طريفة في الجمال والرشاقة والنجابة. ويقع هذا الكتاب في صحيفة من القطع الكبير

وثنه ١٠ قروش صحيفة

ويطلب من مترجمه برئاسة مجلس الوزراء تلفون رقم ٤٢٣ وبمنزله

تلفون رقم ٧٢٠٢ ومن المكاتب الشهيرة بانحاء القطر المصرى